
الدكتور أحمد عبد الرحمن
نقد
أعلام الفكر المصري المعاصر
د/ زكي نجيب محمود
أ/ محمد حسنين هيكل
د/ عبد الرحمن بدوي
د/ طه حسين
د/ فؤاد زكريا
أ/ محمود أمين العالم
د/ حسن حنفي
د/ نصر أبو زيد
د/ جابر عصفور
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

هذا الكتاب

- دراسات نقدية لبعض آراء الدكاترة والاساتذة: زكى نجيب محمود، وعبد الرحمن بدوى، وفؤاد زكريا، وحسن حنفى، وجابر عصفور، ومحمد حسنين هيكل، وطه حسين، ومحمود أمين العالم، وبعض العلمانيين المفترين على الله تعالى

- وقد التزمت فيه أصول النقد العلمى الذى يحصن الناقد ضد التحيز والمجاملة، ويحرره من رهبة الاعلام، وخشية الاعتراض على آرائهم، وفى الوقت نفسه يلزمه الاعتراف بانجازاتهم وعلو أقدارهم.

- ولا ريب أن بعض القراء يستشعرون الحرج أو الضيق من النقد ويميلون إلى الشك فى كل كلام يوجه إلى الأعلام. وقد يتطور هذا الشعور إلى نوع من الحساسية المفرطة من النقد، أو اعتباره مجرد شغب على الكبار.

- وأنا آمل من وراء هذا الكتاب الوجيز أن يبدد تلك الحساسية، بفضل الله تعالى، وبفضل الإلتزام الصارم بأخلاقيات الحوار فى الإسلام، فيكون النقد إضاءة ضرورية لفهم أى عمل علمى وتقديره حق قدره.

الدكتور أحمد عبد الرحمن

نقد
أعلام الفكر المصري المعاصر

- د. زكي نجيب محمود
- د. عبد الرحمن بدوي
- د. فؤاد زكريا
- د. حسن حنفي
- د. جابر عصفور
- أ. محمد حسنين هيكل
- د. طه حسين
- أ. محمود أمين العالم
- د. نصر أبو زيد

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦٠

اسم الكتاب:
نقد الفكر المصرى المعاصر
الطبعة: الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
اسم المؤلف: الدكتور أحمد عبد الرحمن
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
١٨٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع ٢٠٠٦/٢٤٢٣٣
الترقيم الدولى I.S.B.N 977-17-4138-1

تحذير
جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الكتاب الرابع لى في نقد الفكر المعاصر. كان الأول بعنوان: "نقد الثقافة الإلحادية "، وهى الثقافة المادية الحسية السائدة في الغرب، والمسيطرة على الكُتاب العلمانيين في العالم العربى والإسلامى، وقد نشرته دار هجر بالقاهرة سنة ١٤٠٦ هـ. وكان الكتاب الثانى بعنوان "أساطير المعاصرين"، وهى الأفكار الخرافية لدى عدد من الكتاب المصريين، أهمهم الدكتور زكى نجيب محمود، وقد نشرته دار الحكمة بالقاهرة سنة ١٤٠٩ هـ. والكتاب الثالث، نُشر سنة ١٤٢٠ هـ – على نفقتى الخاصة – بعنوان " نقد الإسلاميين المعاصرين "، وهم الدكاترة: يوسف القرضاوى، ومحمد عبد الله دراز، وعبد المنعم النمر، ومحمد خاتمى والشيخ الشعراوى والشيخ محمد سيد طنطاوى.

وهذا الكتاب هو الجزء الثانى من "أساطير المعاصرين" . وهو يتناول بالدراسة أفكاراً أساسية لدى الدكاترة والأساتذة: زكى نجيب محمود، وطه حسين، وعبد الرحمن بدوى، وفؤاد زكريا، وحسن حنفي، وجابر عصفور، ومحمد حسنين هيكل، ومحمود أمين العالم، ونصر أبو زيد وعلمانيين آخرين. ومن هذه الأسماء يتبين أننى اخترت القادة المؤثرين[1] في مجالات الثقافة والفكر، ولم أضف دراسات نقدية أخرى لكتَّاب الصف الثانى والثالث، لأن ذلك لن يفيد القارئ، وسيكون تكراراً مملاً لما يقال عن الكبار، وتضخيماً لا مسوغ له للكتاب.

---

(١) نصر أبو زيد ليس من القادة، ولكن جهات ثقافية نافذة ساندته، لذلك وضعته هنا.

والكتب الثلاثة الأخيرة تشكل كتاباً واحداً كبيراً في "نقد الفكر المصرى في الربع الأول من القرن الهجرى الخامس عشر". وآمل أن تُنشر الكتب الثلاثة معاً في مجلد واحد، فموضوعها واحد ومنهجها واحد وهو: "نقد الفكر المعاصر في ضوء الإسلام".

والنقد عندى هو النقد بمعناه السديد؛ أعنى بيان الصواب والخطأ، ومن ثم يتمكن القارئ من فرز ما يقرأ بموضوعية، ودون تحيز أو حيف. والله تعالى أسأل أن يغفر لى ما قد أكون أخطأت فيه، "وكل ابن آدم خطّاء" كما قال رسول الله ﷺ.

* * *

الدكتور/ أحمد عبد الرحمن

زكي نجيب محمود
ما الذى تغير ... النبرة أم الفكرة ؟

– حين يصير الكاتب – أى كاتب – مقروءاً على نطاق واسع، ومؤثراً في أمتنا إلى حد كبير، وحين يكون له كثرة كاثرة من الأتباع والتلاميذ الذين يروجون لأفكاره، فإن تقويم هذه الأفكار يصبح واجباً، لبيان السليم منها وتمييزه من السقيم، خصوصاً فيما يتصل بالمسائل الثقافية الكبرى. وحين يقرر الكاتب نفسه أن ما تغير وتطور في فكره إنما هو "النبرة دون الأهداف"، ويؤكد ذلك، رداً على من توهم أنه عانى تطوراً جذريًا في فكره، وعلى الرغم من ذلك يصر البعض على نقيض ما قرره الكاتب نفسه، حتى لقد رحب به البعض ككاتب و مفكر إسلامى، بعد أن كان زعيماً للعلمانيين ورائداً للعلمانية، وحين يصل الأمر بهذا البعض إلى أن يرفض نشر كلمة تشير إلى جهود ذلك الكاتب في مجالات التغريب والإحلال الثقافي، فإن المسألة تطرح نفسها طلباً للمراجعة، ووضعاً للأمور في نصابها، استناداً إلى مؤلفات الكاتب الأخيرة على وجه الخصوص. وهذا هو ما تطمح إليه هذه الدراسة.

– أما الكاتب الذى أعنيه فهو الدكتور زكى نجيب محمود، وقد كان مشهوراً بموقف علمانى، تغريبى، في قضايا التجديد والتحديث، أدى به إلى رفض تراثنا العربى الإسلامى وثقافتنا العربية الإسلامية، حتى قال إنها: "خليقة بأن يقذف بها في النار"، وحين خفف هذا الحكم قال: "إنها مادة للتسلية في ساعات الفراغ".[1] قال هذا في مرحلة النضج، أى بعد التطور الذى يكثر الحديث عنه دون تمحيص!

– والرجل نفسه يتحدث عن تطور فكره تجاه قضايا التجديد بعد عام ١٩٧٠ فيقول في أسف واستنكار "إن كبار الكتاب في مصر في النصف الأول من هذا القرن العشرين، كانوا يسرفون بالتباهي بثقافة الغرب: "مما أدى بنا يومئذ إلى العيش في

---

(١) انظر كتابه تجديد الفكر العربى؛ ط ٥ ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤١.

مناخ كاد المواطن فيه يخفي مصريته وعروبته وإسلامه حتى لا يتهم بالجلافة والتخلف. ولا اظن أن أحداً منا قد نجا من تلك التبعية العمياء القاتلة". (والحق أن كثيرين نجوا من تلك السقطة، وكان الإسلام هو طوق النجاة). ويعترف الدكتور زكى نجيب محمود بأنه كان واحداً من أولئك المتغربين، فيقول: "**ولقد كنت لفترة طويلة واحداً من أولئك الذين ضلوا سبيل الحق في هذا الصدد، فبالغت كما بالغوا حتى أراد لى الله رؤية أهدى**".(١)

– لقد حدث تطور إذن، ولكن المؤلف بهذا الكلام العام لا يحدد مدى تخليه عن الاتجاه التغريبى (الذى وصفه بأنه اتجاه الذين ضلوا سبيل الحق) ولا مدى التبعية التى عاناها، ولا يحدد طبيعة "الرؤية الأهدى" التى أرادها الله له. كذلك لم يحدد للناس المؤلفات القديمة التى حملت إليهم ذلك الضلال، فثمة مؤلفات عديدة كتبت في تواريخ مختلفة، قبل سنة ١٩٧٠ تاريخ الهداية إلى سبيل الحق، وقد قرر مثل هذا الكلام الذى اقتبسناه عنه توأ لكنه لم يحدد الجرعة التى يجوز اقتباسها من ثقافة الغرب، ولا المعيار الذى يبين ما يجوز اقتباسه وما لا يجوز اقتباسه، وكذلك لم يحدد موقفه من الأصالة، أى من ثقافتنا العربية الإسلامية، وخصوصاً جوهر هذه الثقافة المتمثل في الإسلام وكتابه وسنة رسوله ﷺ (وسوف نعرض لهذا الموقف إن شاء الله).

– إنه يوضح موقفه الأول من التغريب، لكنه لا يوضح موقفه الأخير، وسيكون علينا أن نجمع أقواله لتحديد ذلك الموقف، فهو يحسم موقفه الأول بقوله: إنه على امتداد عشرين سنة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٧٠ "لم أكن في تلك الأعوام أفرق بين ما يجوز نقله عن الغرب وثقافته وما لا يجوز، فكل ما عندهم واجب النقل إلينا، ما دمنا في حاجة إلى نتائجه. **وأسرفت في هذه الدعوة حتى تمنيت أن نأكل كما يأكلون، ونكتب من الشمال إلى اليمين كما يكتبون. وأن نرتدى من الثياب ما يرتدون**".(٢) وهذا هو التغريب الشامل، أى إحلال ثقافة الغرب محل الثقافة العربية الإسلامية. ومن الواضح أنه تأثر بالدكتور طه حسين في كتابه

---

(١) انظر كتابه: قيم من التراث؛ ط سنة ١٩٨٤ ص ١٣٥.

(٢) قصة عقل؛ ص ٧٣.

"مستقبل الثقافة في مصر"، وبالمناخ التغريبي الذى كان سائداً في تلك الفترة في الجامعة المصرية على وجه الخصوص والذى كان يلقى مقاومة باسلة قوية من الدعاة والكتاب الإسلاميين.

صعوبات :

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن كلام الدكتور زكى نجيب محمود عن تفكيره قبل عام ١٩٧٠ **يسوغ لنا القول إن مؤلفاته قبل ذلك العام قد نُسخت، ولم تعد لها قيمة، فهى ضلال ثقافي في نظره هو نفسه**، وربما لم تعد لها قيمة إلا كشاهد على مدى التطور من الضلال إلى الرؤية الأهدى وإلى سبيل الحق، وسوف يكون علينا أن نقرأ مؤلفاته المتأخرة لنعرف نهاية المطاف في تطوره الفكرى، وهل صار حقاً كاتباً إسلامياً أم لا؟ وهل الذى تغير هو "النبرة" فحسب أم أن التغير لحق الفكرة أيضاً؟ وإلى أى مدى؟ وفي أى المسائل؟

ولقد واجهت بعض الصعوبات في تحديد تطوره الفكرى لأنه يعمد إلى التعتيم أحياناً، حين يتناول المسائل الخطيرة الحساسة، وقد عبر غير مرة عن ضيقه بالرأى العام الإسلامى ووصفه بأنه "وثن"! وذلك بسبب رفض الرأى العام الإسلامى المساس بتلك المسائل، من هنا وجدناه يراوغ ولا يحسم القول في قضايا العقيدة والشريعة، وقد مكنت له لغته الفصيحة الرشيقة من توصيل أفكاره المنافية للإسلام في كثير من الأحيان، دون إثارة للرأى العام، وحين كان يقترب من الوضوح، كان يصطدم بالنخبة الإسلامية وبالجماهير المسلمة، وهذا ما حدث غير مرة وأغضبه أشد الغضب.

وقد كان من الضرورى أن أنتخب لهذه الدراسة الأولية بعض المسائل ذات الأهمية، لأنه ليس بوسعنا دراسة المشكلات التى أثارها الدكتور زكى نجيب محمود في كل مؤلفاته.

* * *

مصدر ثقافتنا وجوهرها

تكلم الفلاسفة كثيراً عن الروح والمادة. وانقسموا واختلفوا. فقال بعضهم: إن مصدر الوجود روحي؛ أي أن خالق الموجودات ذو طبيعة روحية، لا مادية. وأما الموجودات المخلوقة فهي مادية وروحية. وذهب آخرون عكس هذا المذهب فزعموا أن المادة هي أصل الموجودات ومصدرها؛ ومن المادة خرجت كل القوى والظواهر التى نسميها روحية. ولهذه المذاهب تفاصيل واسعة يعرفها أهل الاختصاص.

والذى يهمنا هنا هو مذهبهم المادى في مصدر الثقافة وجوهرها. إن المادة، أو طين الأرض، أو البيئة، هى التى تفرز الثقافة. مثلاً عند الدكتور زكى نجيب محمود أن مصدر ثقافتنا العربية الإسلامية هو: الصحراء. وكل خصائص ثقافتنا ترجع إلى الصحراء. فالأصل الثلاثى لمفردات اللغة العربية هو الصحراء، هكذا يقرر دون أن يقدم تفسيراً! والشعر العربى صحراوى، والفنون العربية صحراوية. وديانات التوحيد صحراوية! ولغات المنطقة العربية كلها، وثقافاتها، وأديانها القديمة، كلها صحراوية. وعدم وجود فن مسرحى مرجعه إلى الصحراء.(1) فهو لا يميز بين الشعر الذى يتأثر بالبيئة، والدين المُنزَّل من السماء!

ونمضى مع نظريته هذه قُدُماً، فنجده يزعم أن الصحراء هى التى أوحت إلى العربى فكرته عن طبيعة الكون والإنسان و"عما وراء الكون".

– وفكرة اللانهائية عند العربى مصدرها الصحراء، فإن: "أول ما توحى به الصحراء لساكنيها هو فكرة اللانهائية".(2)

– ولأن مصر عنده بلد صحراوى – هكذا يقررا – فقد قبلت الثقافة العربية بيسر، وتفاعلت معها: "ولكنه تفاعل فيه طغت البداوة على الحضارة أحياناً، فتهجم

(1) انظر كتابه: عربى بين ثقافتين؛ ص٥٢، ٥٤، ٦٣، ٦٦، ٦٧.

(2) نفسه؛ ص٤٤.

الثقافة الأولى على ظهور جيادها (يقصد الفتح الإسلامى !) وفي ظلال سيوفها، لتغزو الثقافة الثانية في حصونها وقلاعها" .... " فلما غزت ثقافة البداوة بمجموعة قيمها، ثقافة مصر بمجموعة قيمها، حدث مركب خليط هو الذى نحياه اليوم" .(١)

وقبل أن نُزيِّفَ مَزاعمه هذه، نود أن نلفت الأنظار إلى أن نظريته – أى نظرية صحراوية الثقافة العربية الإسلامية – قد جاءت في كتاب له صدرت أولى طبعاته عام ١٤١٠هـ –١٩٩٠م، أى بعد كل التطورات التى مر بها فكره، وبعد كتابات عديدة له حول الأصالة والمعاصرة ومحاولاته للتوفيق بينهما. وهذا يثبت أن نظريته المادية بطبيعتها، لم تتطور ولم تتغير، باستثناء "النبرة" في التعبير، كما قرر هو نفسه. وهاهو يقول في آخر كتاب ألفه، أعنى "حصاد السنين" – ص٤١٠– عن شخصية العربى ومقوماتها، إنها شخصية: "تؤمن بأن هذا الواقع الذى نقضى حياتنا في ربوعه نراه بالبصر ونلمسه بالحواس، لابد أن يكون له "وراء"؛ فهذه حقيقة توحى إليه بها لانهائية الصحراء التى هى بيته الكبير، كما تؤكدها له رسالات السماء فيما نزل من ديانات" .

● وأول ما نأخذه على هذه النظرية أنها تنتسب إلى الفلسفة المادية التى تجعل المادة خالقة للعقل وللشعور، وللثقافة بكل مضامينها، وللدين بعقيدته وشرائعه وأخلاقياته. ولكن كيف يخلق الجماد حياة وفكراً وشعوراً؟! هذا هو السؤال الذى وقف كالجبل في وجه الماديين؛ ولم يستطع أحدهم أن يجيب عنه. لذلك سقطت المادية وخصوصاً الوضعية المنطقية التى اعتنقها الدكتور زكى نجيب محمود وانحدرت إلى أدنى الدرجات في نظر مؤرخى الفلسفة المعاصرين.

وثانى أخطاء الرجل زعمه بأن العرب عرفوا فكرة اللانهائية بإيحاء الصحراء. والحق أن العرب لم يعرفوا هذه الفكرة مطلقاً لأن الصحراء معروفة لهم بحدودها؛ وقد اجتازوها آلاف المرات في رحلاتهم التجارية. ولا يوجد أى دليل على معرفتهم بهذه الفكرة الفلسفية. أما الثابت في تاريخ الفكر الفلسفي فهو أن الفيلسوف اليونانى القديم المعروف والمشهور أنكسيمندريس (٦١٠–٥٤٩ ق.م) الذى عاش في "مالطة"

---

(١) انظر كتابه: قصة عقل؛ ص٢٦٦، ٢٦٧ .

- وهى منطقة غير صحراوية من بلاد اليونان - هو الذى قال بهذه الفكرة لتفسير وجود الموجودات.(١)

وقد عرف العرب دين إبراهيم عليه السلام، وعرفوا اليهودية والمسيحية، في صيغ محرفة، وآمنوا بالله؛ لكنهم أشركوا به، فعبدوا الأصنام والأوثان، فلم تكن الصحراء هى مصدر معرفتهم بالله، وإنما هو دين إبراهيم، بالإضافة إلى الفطرة العقلية التى تقود الأمم، في السهل والساحل والجبل، إلى الإيمان بأن وراء المخلوقات خالقاً، ووراء النظام مُدبّراً حكيماً.

والخطأ الثالث هو تعميمها التعسفي للبيئة الصحراوية في الوطن العربى؛ ونحن نعلم أن مصر ليست صحراوية. وبعض المصريين لم ير الصحراء في حياته! وقبول مصر للثقافة الإسلامية يرجع إلى العناصر الإيجابية القوية في عقيدة التوحيد وشريعة العدل وأخلاق الإيثار. والتوحيد والعدل والإيثار في ثقافتنا الإسلامية تضعها في القمة من الرقي والتحضر، وتنفي عنها وصمة البداوة التى ألصقها بها زوراً وبهتاناً، وبخاصة إذا تذكرنا أن الإسلام لم يعرف التفرقة العرقية أو الثقافية في تطبيق العدل والإيثار. وأما الثقافة المنحطة حقًّا، فهى تلك التى لا تعرف العدل إلا بين أهلها فحسب، ثم تقتل وتظلم وتنهب من غير ضابط، إذا خرجت من ديارها! وتلك هى الثقافة التى حاول زكى نجيب محمود إقناع أمتنا باستيرادها وأبدى إعجابه الشديد بها، في كل مناسبة، وبدون مناسبة.

ومن المؤسف أن قوى التغريب، و زكى نجيب محمود أحد أقطابها، قد نجحت في تسميم ثقافتنا العربية الإسلامية بعناصر مادية، ولا أخلاقية، عبر مائتى عام من الفتح الاستعمارى لمصر، فصارت ثقافتنا خليطاً، أو "بغلاً" ثقافياً، من عناصر إسلامية وعربية وشوائب مادية أُوربية..وهذا هو الذى نحياه اليوم، ويسبب العقم، والصدام والتهادم، وسائر الظواهر السلبية في حياتنا الفكرية و الاجتماعية.

والخطأ الرابع يتمثل في قوله: إن رسالات السماء أكدت للعربى ما أملته عليه البيئة الصحراوية المادية. ففيم كان القتال بين المسلمين والمشركين إذن؟! والحق هو أن الفطرة العقلية لدى البشر، في الصحارى والسهول ، تقودهم إلى الإيمان بالخالق، وإن

---

(١) يوسف كرم؛ تاريخ الفلسفة اليونانية؛ مكتبة النهضة المصرية؛ ط٥ سنة ١٩٦٦م - ص١٤ .

لم تسعفهم في معرفة صفاته، ولا أوامره ونواهيه. وجاءت الرسالات السماوية لتؤكد الصواب وتنفي الخطأ، في الفكر والعمل وفي العقيدة والشريعة. وهناك بدهيات عرفها البشر في كل البيئات، كوجود الخالق، والعدل والوفاء بالعهد، كما عرفوا أن واحداً وواحداً يساويان اثنين. فهذه أكدتها الرسالات السماوية. لكن أكواماً من الأخطاء كانت راسخة كالجبال، فنسفها الإسلام نسفاً. فمن الخطأ إذن أن يقول الدكتور زكى نجيب محمود: إن الصحراء أوحت إلى العربى بأن هناك "وراء" لهذا الواقع، وإن رسالات السماء قد أكدت ذلك؛ فكلامه يوحى بأن الصحراء هى أصل الدين؛ وأن الرسالات السماوية أكدت ما أوحت به الصحراء. وتلك كما قلنا هى النظرية المادية الصحراوية في تفسير الثقافة؛ وهى نظرية خاطئة جملة وتفصيلاً.

والخطأ الخامس زعمه أن الصحراء هى التى أوحت إلى العربى بأن القيم الأخلاقية ثابتة. [1] والحق أن العربى الجاهلى لم يعتقد أبداً بثبات القيم، فكانت القيم عنده نسبية؛ ومرجع القيمة عند الجاهلى هو مصلحة القبيلة. والمصالح كما نعلم مُتغيرة مُتقلبة، وعلى هذا كان الحرام اليوم عند العربى حلالاً غداً! والحلال بالأمس حراماً اليوم! ولذلك استباحوا الجرح والقتل والسلب والنهب؛ وتلك جرائم إذا اقترفها العربى ضد قبيلته، أو حلفائها، وبطولات إذا اقترفها ضد قبيلة معادية. وكلنا يعرف المبدأ الجاهلى القائل: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!" إنه يمثل نسبية القيم وتغيرها ويعبر عن عدم ثباتها خير تعبير. وقد نفاه الإسلام، وأكد ثبات القيم ثباتاً مُطلقاً.

– ومن المعروف أن ثبات القيم كان هو مذهب سقراط في مواجهة السوفسطائية القائلين بنسبية القيم. وكانت البيئة لكلا الطرفين واحدة؛ ولم تكن صحراوية! وهذا يبين جسامة الخطأ الذى اقترفه الدكتور زكى نجيب محمود. والآن في أوربا وأمريكا، يوجد القائلون بنسبية القيم والقائلون بثبات القيم جنباً إلى جنب، لا أقول في البيئة الواحدة بل في الجامعة الواحدة، والقسم العلمى الواحد!!

• وهكذا تظهر أخطاؤه العديدة في نظريته المادية الصحراوية في تفسير الثقافة؛ وعبارته القائلة: إن رسالات السماء تؤكد ما أملته الصحراء، إنما هى "النبرة" الجديدة التى تغيرت. أما الفكرة أو النظرية الخاطئة فبقيت واستمرت معه، ولم يحدث قط أنه صرح بتبرئته منها. وهذه هى مؤلفاته المتأخرة تشهد بصحة ما أقول.

---

(١) عربى بين ثقافتين؛ ص٤٨ – ٥١.

الـرســول و الـرسالــة

إذا كانت الثقافة العربية الإسلامية - دون تمييز بين جوهرها الديني وغيره من العناصر -إبداعاً من طين الأرض أو رمال الفيافي، لا تنزيلاً من وحي السماء، فلابد أن يكون للدكتور زكي نجيب محمود (صاحب نظرية "صحراوية الثقافة العربية الإسلامية") موقفه من الرسول -الذى تلقى الوحى -والرسالة التى جاء بها. وهذا الموقف هو موضوع هذه السطور.

وصفه للرسول و الرسالة:

ونبدأ بوصفه للرسول والرسالة، فهو يصفهما وصفاً مراوغاً، تاركاً التحديد للقارئ. لأن ذكر اسم النبى ﷺ والقرآن الكريم بسوء يعرضه دون ريب لنقد الناقدين، وسخط الساخطين، الأمر الذى كان يشكو منه دائماً، ولا يستطيع مواجهته!

فهو يصف النبى ﷺ فيقول: "رجل قضى منذ زمن لكنه ترك وراءه شهرة وسمعة تملأ النفوس رهبة" [1]. ويصف التراث العربى فيقول إنه: "صحف مكتوبة وبعضها الآخر مكسو بالجلال والرهبة بحكم أنه تراث هبط على الناس من أسلافهم الميامين". [2] فمن ذا الذى قضى منذ زمن لكنه ترك وراءه شهرة تملأ النفوس رهبة؟ هل هو إنسان آخر غير الرسول ﷺ؟ هل هو شاعر أو فيلسوف أو حاكم؟ ولماذا يخفي الاسم، إذا لم يكن هو النبى ﷺ؟! وما الصحف المكسوة بالجلال والرهبة تلك التى هبطت علينا من أسلافنا؟ إن الصحف المكسوة بالرهبة والجلال هى القرآن الكريم وكتب السنة النبوية الشريفة. وعلى كل من يرفض هذا التفسير لكلامه أن يجيب عن سؤالين، هما: لماذا هذا التعتيم وتعمد إغفال الأسماء؟ ومن يا ترى يكون المقصود إن لم يكن الرسول والقرآن؟!

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص٥٢.

(٢) نفسه؛ ص٤٥.

ولكى نُزيل أى شبهة تظل عالقة بأذهان البعض حول موقف الدكتور زكى نجيب محمود من النبى ﷺ والقرآن الكريم، نقدم بعض دفاعه عن العقل، ونبذه ما أسماه "المنوال الفكرى القديم"، ففي ذلك المزيد من الوضوح. فهو يقول: "والمنوال الفكرى القديم الذى أعنيه قوامه عناصر كثيرة لعل أهمها جميعاً الركون إلى "سُلطة" فكرية تُستمد منها الأسانيد. ومثل هذه السلطة الفكرية تتمثل عادة في نصوص بعينها محفوظة في الكتب. وبناءً على هذا الموقف تكون الفكرة التى يُقدمها رجل الفكر صواباً إذا هى اتسقت مع ما أقرته السلطة الفكرية في الكتب المحفوظة أو في الأقوال المأثورة، كما تكون الفكرة خطأ إذا جاءت مُخالفة لما أقرته تلك السلطة. ومن هنا اشتد سُلطان الماضى على الحاضر، وأصبح البُرهان الذى لا يُرد هو أن نسوق "الشواهد" من سجل الأقدمين، وانحصرت قوة الإبداع الفكرى في القدرة على إيجاد السند من القول الموروث[1].

فمن الواضح أن السلطة الفكرية التى يُعارضها الدكتور زكى نجيب محمود بهذه الكلمات هى سلطة الدين المتمثلة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة. حقًّا هو لا يُصرح ولا يحدد ويعتمد على الاكتفاء بأوصاف مُراوغة للرسول والرسالة، لكن القارئ المثقف يفهم أن المقصود هو القرآن والسنة؛ وتكفي عبارات مثل "نصوص بعينها محفوظة في الكتب" و "الكتب المحفوظة". و "الأقوال المأثورة"؛ وألفاظ مثل: "الشواهد" و "السند"؛ فهذه الألفاظ و العبارات، والفقرة مُجتمعة، تنطق بأن الرجل يتحدث عن الكتاب والسنة؛ وبأن السلطة الفكرية التى يرفضها هى سُلطة الإسلام المتمثلة في نصوصهما؛ وبأن لفظ "الماضى" لا يقصد به هنا سوى الإسلام؛ وبأن المنوال الفكرى الذى يرفضه هو منهج الفكر الإسلامى الذى يستند إلى الكتاب والسنة، ولا يصح فيه قول يتعارض مع نصوصهما.

ولقد يذهب البعض إلى تفسير آخر؛ غير أنه لابد أن يضطر إلى التعسف والالتواء، والتصادم مع الخط الفكرى للدكتور زكى نجيب محمود نفسه في مسائل أخرى عديدة؛ وسنرى أن موقفه من المسائل الفكرية والثقافية الأساسية مُتسق، وأنه يؤيد ما ذهبْت إليه هنا من تفسير لموقفه من الرسول والرسالة.

---

(١) قصة عقل؛ ص١٢٤.

"روح النصوص" و"عبيرها" !

– لكن ثمة تطوراً قد حدث وهو تطور في "النبرة" فحسب، كما قال هو نفسه.[1] فهناك عبارات كثيرة متناثرة في كتبه الأخيرة توهم القراء بأنه يقبل الاحتكام إلى الكتاب والسنة. لكنه في الحقيقة قد أوضح أن ما يقبله منهما هو "عبيرهما" فحسب!! أو "روحهما"!! وبالإضافة إلى هذا، هو يقبل "عبير" بعض النصوص فحسب، فقد أوضح بجلاء رفضه بعض أحكام الكتاب والسنة؛ فهو "اجتزائى"؛ وهذا الموقف يباعد بينه وبين الموقف الإسلامى الصحيح المشروع الذى يسلم تسليماً كاملاً بالسمع والطاعة لله ورسوله، وبالقبول الكامل لنصوص القرآن والسنة دون جحد أو اجتزاء أو انتقاء.

● وفي حسبانى أن موقفه الأول الأكثر وضوحاً، أفضل من الموقف الأخير الذى طور فيه" نبرته" فحسب، مع بقاء الفكر الوضعى، المادى، قابعاً وراءها! ولقد انخدع بعض الكتاب بهذه "النبرة " حتى أدخلوه ضمن المفكرين الإسلاميين، وفرحوا بذلك ورحبوا به!

* * *

(١) حصاد السنين؛ ص ٣٤٠ .

هدم الأصيل وجلب الغريب

القرآن الكريم والسنة النبوية هما عماد الأصالة في ثقافتنا وجوهرها. وإفساح المجال لجلب الثقافة الغربية وإحلالها محلهما لإنجاز مشروعات التغريب يتطلب هدم هذا العماد وتحطيم ذلك الجوهر. وقد أثبتت تجارب النصف الأول من القرن العشرين أن الهدم الصريح والتحطيم المباشر المكشوف، يستفزان قوى الأمة المسلمة على مستوى النخبة وعلى مستوى الجمهور العام. ولهذا تغيرت مناهج الهدم والتحطيم، فاستخدم اصطلاح "الماضى" بدلاً من "الإسلام"!

وبدلاً من الهجوم على الإسلام من خارجه، وتحت رايات معادية جرى الهدم من الداخل وبعد إعلان القبول به ورفع رايته!

إزالة العصمة عن الماضى!

من الركائز الأولى لإنجاح الإحلال الثقافي ما يسميه الدكتور زكى نجيب محمود: "إزالة العصمة عن الماضى"، والماضى في اصطلاحه هو الإسلام، فهو يقول: "وهاهنا نضع أصابعنا على ركيزة أولى لامحيص لنا عن قبولها إذا أردنا أن نتشرب روح عصرنا، وهى أن نزيل عن الماضى ما نتوهمه له من عصمة وكمال."[1] ومن الجلى أن العصمة و الكمال لا يوصف بهما شيء سوى الكتاب والسنة، فكل العلماء والفقهاء، بل كل الصحابة ﷺ بشر من البشر، ولم يدع أحد لهم عصمة ولا كمالاً باستثناء بعض الشيعة، فلا يظن ظان أن الرجل يقصد شيئاً آخر غير الكتاب و السنة؛ فإذا أزلنا العصمة والكمال عنهما (لا قدر الله) تفتحت كل الأبواب لنبذ ما يشاء العلمانيون من عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقياته، وإحلال البدائل الغربية محلها: الفكر المادى محل العقيدة والقوانين الوضعية محل الشريعة والأخلاقيات النفعية محل الأخلاقيات الإيثارية، والثقافة والهوية محل الثقافة والهوية، دون أن يثور أحد أو يُستفز. فما ينبذ في هذه الحالة إنما هو أشياء لا عصمة لها ولا كمال!

---

(١) قصة عقل؛ ص٢٤٩ .

النسبية:

والترويج للفلسفة النسبية مدخل أساسي أو ركيزة أولى في منهج الإحلال الثقافي الشامل، فيجب إقناع الجماهير المسلمة بأن كل شيء يتغير بتأثير الأيام والليالي، لا فرق في ذلك بين عقائد الدين وشرائعه وبين حقائق العلم وقيم الأخلاق ووسائل النقل والري! وقد تمسك الدكتور زكي نجيب محمود بهذه الفلسفة في مؤلفاته الأخيرة التي تعبر عن آخر تطورات فكره، وفي هذا يقرر بوضوح أن لا شيء ثابت مُطلقاً إلا الله: "لأن الثبات المطلق لا يتحقق إلا لمن هو فوق الزمن وتقلباته وقيوده – سبحانه وتعالى –.(١)

وفي ضوء هذه الفقرة يجب أن نفهم ما قد يبدو لنا مُخالفاً لفلسفته هذه. ففي عدة مواضع في كتبه نجده يتحدث عن "الثبات والإطلاق" وكأنه قد تخلى عن النسبية!

لكنها "النبرة" التي تغيرت، فالنسبية هي مذهبه، لكنه يُميز بين "أشياء سريعة التغير" و "أشياء بطيئة التغير"، والكل يتغير. وما هو بطيء التغير يسميه هو ثابتاً أو مُطلقاً، فيلتبس الفهم على القارئ ويظن أنه نبذ فلسفته الأثيرة! وقد انخدع بهذا بعض الكتاب الإسلاميين!!

من ذلك مثلاً أنه في أثناء وصفه لطبيعة العلم يقول: "إنه يُسقط عن الإنسان فرديته التي ينفرد بها كي نخلص إلى ما هو عام، مُطلق، يصدق في كل مكان وفي كل زمان".(٢) فإذا أخذنا هذا الكلام منعزلاً عن بقية أقواله، أخطأنا وتوهمنا أنه نبذ الفلسفة النسبية الجذرية.

إن النسبية فكرة ضرورية لتمهيد الأرض للمطالبة بنبذ "القديم" كله من الشرائع والعقائد، بالإضافة إلى الحقائق والقيم. ولكنها فكرة خاطئة، وقد ثبت زيفها في الفكر الفلسفي المعاصر، في أوربا وأمريكا نفسها. فإن أساس النسبية هو الخلط بين "الحقائق" وبين "معرفة البشر بها". فالمعرفة تتغير بتغير الزمان، لكن الحقائق ثابتة، مطلقة وكذلك العقائد والشرائع والقيم. فالحقيقة القائلة:

---

(١) حصاد السنين؛ ص٣٤٤.

(٢) نفسه؛ ص ١٧٩.

"إن الأرض تدور حول الشمس "ثابتة مطلقة، وإن لم يعرفها الناس في العصور القديمة. والعدالة الإسلامية التى تقرر "أن لكل إنسان ثمرة جهده وعليه تبعة أخطائه" قيمة تشريعية ثابتة مطلقة، وبدهية عقلية يستحيل تغيرها، سواء عرفها البشر وطبقوها أو جهلوها ولم يطبقوها. والدكتور زكي نجيب محمود كان مخطئاً ومتعسفاً حين رفضها بقوله: "بعضنا يريد أن يعيد" الماضى "ليكون هو الحاضر أيضاً، وكأن لم يكن هناك امتداد زمنى بيننا وبينه".[1] فالقيم المطلقة لا تخص الماضى ولا الحاضر ولا المستقبل، لأنها غير زمانية، ولذلك عرفها البشر - غالباً - في كل زمان ومكان. وكل محاولة لانتهاكها عن جهل أو عن عمد لابد أن تفضى إلى الفشل الذريع. وقد كانت الشيوعية ضرباً من التحدى لقيمة العدالة لأنها أصرت على إعطاء كل فرد على قدر حاجته، لا على قدر عمله! وكانت النتيجة الحتمية هى الانهيار المأساوى لعالم واسع شاسع هو المعسكر الشيوعى البائد!

● وعلى هذا أقول: إن محاولات هدم الإسلام استناداً إلى النسبية مصيرها الإخفاق الذريع بحول الله. لكن المسألة تحتاج إلى توعية أمتنا بهذه المداخل المضللة التى تتخذ "نبرة "مهادنة!

* * *

---

(١) حصاد السنين؛ ص٢٧٢ .

الدين والعقل والعاطفة

لعل من أخطر الأفكار التى اعتنقها الدكتور زكى نجيب محمود، وروّج لها في مؤلفاته، بما في ذلك الأخيرة منها، تلك التى تزعم أن مصادر المعرفة عند الإنسان العقل والعاطفة فحسب! وأن مصدر المعارف الدينية العاطفة لا العقل. وفي هذا يقول: "العلم عقل والدين وجدان (أى عاطفة)، لأنه إيمان يُصدق به من آمن به. والإيمان بالله الخالق المدبّر، الواحد الأحد، ليس عاطفة كالحب كما يزعم وليس وجداناً، بل هو نتيجة لتدبر العقل في العالم والوجود والإنسان، وفي نظام الكون المذهل الدقيق. فقد أملى العقل البشرى الإيمان بالخالق المدبر إملاء؛ لأنه يستحيل تفسير وجود الكون ونظامه دون التسليم بوجود الخالق الحكيم – جل جلاله –. ولذلك وُجدَت هذه العقيدة الدينية عند كل الأمم، وإن أخطأ بعضها في تصوره لهذا الإله العظيم. وكان من فضل الله تعالى على خلقه أن بعث رسله لتصحيح العقائد وتبليغ الشرائع، وهداية البشرية إلى الخير الذى يريده الخالق لها في الدنيا والآخرة.

وأخطأ الدكتور زكى نجيب محمود حين زعم أن الناس آمنوا بالإسلام دون أن يطلبوا حجة أو برهاناً ! فقد كان العرب يؤمنون بالله، لكنهم كانوا مشركين يعبدون أصناماً وأوثاناً، مع إيمانهم بالله. وهم لم يتركوا الشرك رغم تفاهته عقلاً، إلا بعد مجادلات طويلة، وعديدة، وعنيفة، سجل القرآن الكثير منها. ووقعت مجادلات مماثلة بين النبى ﷺ واليهود والنصارى، أوردها القرآن وكثير من الأحاديث والأخبار والآثار.

كان العرب ينكرون التوحيد،، فجادلهم القرآن جدالاً عقلياً لا وجدان فيه ولا عاطفة، فجاء على لسانهم في القرآن: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (سورة ص: ٥)

وقالت النصارى إن المسيح ابن الله وقالت اليهود عزير ابن الله، فقال القرآن الكريم: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

وهذه حجة عقلية، لا عاطفية، تثبت صدق عقيدة التوحيد وتبطل التثليث والإثنية والشرك. و طالب القرآن المشركين بتقديم البرهان على صحة الشرك إن كان عندهم برهان وقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. (المؤمنون: ١١٧) وقال أيضاً: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (النمل: ٦٤) فهل كان النبى يطلب البرهان دون أن يقدم البرهان ؟!

واندلعت مجادلات عقلية عنيفة بين النبى ﷺ و أهل الكتاب، وأسلم قليل منهم وبقى معظمهم على دينه، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١) فكانت "المباهلة" بعد مجادلات طويلة ومضنية.

وقد ظلت القبائل العربية حوالى عشرين سنة تجادل في الإسلام، حتى فتح الله تعالى مكة، فاتخذوا من ذلك دليلاً على صدق الدعوة الإسلامية وترجيح التوحيد على الشرك. ولولا رسوخ الوثنية لما طال بهم العهد في مجادلات و محاورات لكى يعتنقوا التوحيد وينبذوا اللات و العزى!

وظلت المجادلات العقلية مندلعة عبر القرون بين المسلمين وغيرهم ممن فتحت بلادهم. والمؤلفات الفلسفية والدينية طافحة بهذه المجادلات. وحتى اليوم لا تزال المجادلات جارية. والذين أسلموا من زعماء الغرب ومفكريه لم يسلموا دون برهان كما زعم الدكتور زكى نجيب محمود. والمثقفون المسلمون الذين ورثوا الإسلام عن آبائهم أعادوا فحص عقيدتهم وقارنوها بالإلحاد المعاصر، واختارت الأغلبية الساحقة دين التوحيد، دين العقل ودين العلم، وأما غير المسلمين فقد فشى فيهم الإلحاد لعجز عقائدهم عن مواجهة البراهين العقلية والعلمية.

• فهذه هى حقيقة مزاعم الدكتور زكى نجيب محمود عن مصادر المعرفة: إنها أخطاء مركبة. فإذا صادفك في كتبه ما قد يناقض هذه الحقائق، فاعلم أنها "النبرة" في التعبير، لا التغيير في التفكير!

فكرة التطور

يقول الدكتور زكى نجيب محمود إن أهم أفكاره التى نقلها عن الغربيين وتحمس لها هى: "فكرة التطور"، ومن ثم فكرة "التغيير" وبالتالى فكرة "التقدم" **بمعنى أن يكون من مُسلماتنا الثقافية اعتقاد بأن الحاضر دائماً أفضل وأكمل من الماضى"** (١)

هذا هو رأيه الذى استقر عليه فى مرحلة النضج وعبر عنه فى آخر كتاب له وهو: "حصاد السنين".

ويبنى الدكتور زكى نجيب محمود على رأيه هذا موقفه من ثوابت الإسلام. فهو يرفض الاعتراف بأية ثوابت، فكل شيء متطور متقدم متغير، وإن كان التغير يُسرع فى أشياء ويبطئ فى أخرى فنظنها ثابتة. وعلى هذا يجب أن نفهم كل كلام يصدر عنه فى ضوء هذه الحقيقة. فإذا تحدث عن ثبات القيم أو الهوية أو الحقائق العلمية يجب أن نفهم أن ثباتها نسبى، فهى متغيرة متطورة، ولكن ببطء. وفى هذا يقول إنه: "حتى الثوابت من العناصر الثقافية التى تدوم أكثر مما تدوم المتغيرات من تلك العناصر عصراً بعد عصر، وأعنى "الثوابت" التى تتألف منها "الهوية" الوطنية أو القومية، أقول إنه حتى تلك "الثوابت" من عناصر الحياة الثقافية لشعب معين، لا ينبغى أن يكون لها من القداسة ما يمنعنا من تعديلها إذا وُجد أنها قد فقدت شيئاً من قدرتها على أن تهيئ لصاحبها فرصة الحفاظ على حياته قوية مزدهرة." (٢)

و"الثوابت" الأساسية التى تشكل الهوية هى "الدين، بشرائعه وقيمه الأخلاقية واللغة وآدابها. فالدين بعقائده وشرائعه و أخلاقياته نسبى متغير، متطور، ولكن ببطء. ولذلك تجد الرجل يدين الدعوة إلى التمسك بالإسلام، ويقول إن:

---

(١) حصاد السنين؛ ص ٤٤

(٢) عربى بين ثقافتين؛ ص ١٨٩، ٣٧٢، ٤٠٠.

"الرجوع إلى الماضي لالتقاط أهدافنا من تصورات الأمس هو بمثابة رفض صريح لفكرة "التقدم" التي هي من أبرز ما يميز الوجه الثقافي لعصرنا." (١)

وهو يتمسك بفكرة التقدم بكل قوة وعزم، ولذلك يرفض الغايات التي يحددها الإسلام للحياة البشرية والقيم التشريعية و الأخلاقية، و"الالتقاط من الأمس" يعني - عنده - الاستناد إلى القرآن الكريم و السنة المطهرة.

وبناء على اعتقاده الراسخ بفكرة التقدم، أكد دائماً أن: "الحاضر أكمل وأفضل من الماضي." لكنه أمام النقد الذي واجهه دائماً، اضطر إلى تعديل رأيه، وميز بين مجال الدين ومجال العلم، وتساءل: "ماذا يمنع أن يكون السابقون في أية عقيدة دينية أنقى عقيدة وأصفى رؤية و أخلص عبادة وأفضل سلوكاً من اللاحقين؟" (٢) ثم يعترف بأنه في مجال الفن والأدب قد يكون القديم أصح وأكمل من الجديد: "وذلك لأن الأمر فيها مرهون بموهبة الفنان أو الأديب." (٣) وهنا لابد أن نذكر القارئ بأنه بحسب نظريته في التطور لابد أن يكون الجديد أفضل وأكمل على المدى البعيد، فإن الحاضر: "هضم الماضي ثم أضاف جديداً تلو جديد مما أنتجته السنون، ومعنى ذلك ألا يكون "العصر الذهبي" وراء ظهورنا، بل يكون موضعه الصحيح هو المستقبل". ثم يضيف قائلاً: "ومعنى هذا وجوب الاهتمام "بالمصير"، ولا ينفي ذلك الاهتمام أن تجيء قوائمه مستندة إلى تراثنا الذي تركه لنا السلف، على ألاّ يكون في حياتنا الحاضرة بمثابة النهاية التي نقف عندها، بل يكون بين أيدينا نقطة ابتداء نجاوزها إلى مستلزمات حاضر حيّ ومستقبل مأمول." (٤)

والتراث المقصود هو الذي تركه السلف وهو الوحي الإلهي أي القرآن و السنة.

وهذه إيماءة سلبية منكرة للحديث الشريف القائل: "خير القرون قرني"، وهي تتعارض مع تمييزه السالف بين مجالات العلم والفن والدين وإغفال الوحي. وهذا هو منهجه، أعني التناقضات التي تجيز للباحث أن يقول إننا بإزاء رجلين أو كاتبين متضادين أو زكيين نجيبين محمودين! وبصفة عامة هو لا يعترف بأن الوحي هو سبب خيرية القرن النبوي أو تفوق "الماضي" على الحاضر!

---

(١) حصاد السنين؛ ص ٤٠
(٢) نفسه؛ ص ١٣٤.
(٣) رؤية إسلامية؛ ص ٤١.
(٤) نفسه؛ ص ٧.

ويخلط الدكتور زكى نجيب محمود بين "الحقائق العلمية" و"المعارف العلمية". فيقرر أن: "الحقائق العلمية "نسبية مرهونة بظروف زمانها وما قد وصل إليه من أجهزة متطورة."(١) فالحقائق العلمية على نقيض قوله ثابتة مطلقة، لكن معارف البشر بها هى المتغيرة المتباينة، ولا أقول نسبية. فالأرض كروية، وهى تدور حول الشمس منذ أن خلق الله الخلق؛ هذه حقيقة ثابتة مطلقة، لكن معرفة البشر بها كانت خاطئة، ثم تقدمت واقتربت من الحقيقة المطلقة. لكن النفور من الثوابت سوّغ للكاتب الكبير هذا الخلط الفظيع.

وفى حديثه عن القيم الأخلاقية نواجه التناقضات أيضاً. فهو يقرر أن: "معظم المبادئ الأخلاقية جاءت إلى الناس وحياً مع رسالات السماء، وليست من صنع البشر." (٢)

وهو يصنف مبادئ الأخلاق صنفين:

١- الأول مجموعة جاءت مع الوحى الدينى، ولذلك هى جزء من الدين، وهى ثابتة؛ وهى ضمانة ضد التحلل و الدمار. وهو لا يحدد لنا أى مبدأ، ولو كمثال، ولا يصف لنا هذه المبادئ أو يميزها.

٢- والثانى مجموعة أفرزتها خبرة الإنسان فى حياته العملية؛ فمصدرها المعرفة البشرية. وهى قابلة للتغيير، وهى التى تُيسّر للعرب اللحاق بموكب العصر. (٣) وهذه أيضاً لا يحدد منها شيئاً.

والمبادئ الأخلاقية التى جاء بها الدين يجب أن تكون مُلزمة.(٤) ولكنه سيعود ويُنكر ذلك!

وقد عرض لموضوع القيم الأخلاقية فى كتاب "قصة عقل" فقال: "لو أمسكنا بالقيم الموضوعة لنا، تعرضنا لخطر الجمود، ولو سبحنا أحراراً مع تغيرات الزمن وتغيراته تعرضنا لانحلال الشخصية. وغاية ما أستطيع أن أقوله فى هذا الصدد هو أن

---

(١) حصاد السنين؛ ص ١٣، ١٤٦.
(٢) عربى بين ثقافتين؛ ص ٣٧.
(٣) نفسه؛ ص ٣٩.
(٤) نفسه؛ ص ٢٢٢.

قيمنا الأخلاقية الموروثة فيها من السعة ما يمكننا من التصرف فى إطارها بدرجة من الحرية تكفى للحركة مع سرعة الإيقاع فى عصرنا." (١)

فالتمسك بالقيم الإسلامية، كالعدل والصدق والوفاء بالعهد و الرحمة وغيرها من القيم الأخلاقية، يعرضنا للجمود. وهو لا يذكر قيمة واحدة كمثال لما يريد قوله، ويقف عند حدود التعميمات. ولو أنه فعل لظهر له الخطأ الجسيم فيما يقول. وهو لا يحدد "تيار الزمن وتغيراته"؛ غير أننا نعلم أنه يقصد الفكر الأوربى. وهذا لا يفيد فى شيء لأن الفكر الأوروبى مذاهب عديدة و توجهات متعارضة. وفى مجال القيم الأخلاقية بالذات هناك مذاهب عديدة محترمة لفلاسفة كبار تؤكد ثبات القيم الأخلاقية، وتنفى النسبية، كما أن فيها مذاهب نسبية جذرية. ويعتبر نيكولاى هارتمن أكبر فيلسوف أخلاقى معاصر معارض للنسبية، ومؤكد لثبات القيم الأخلاقية التى لا تقل فى ثباتها عنده عن المبادئ الرياضية والمنطقية. (٢) وهكذا يتبين لنا أن آراء الدكتور زكى نجيب محمود فى ثبات القيم لا تفيدنا فى شيء، فهى لا تحدد لنا بماذا نتمسك أو ماذا ندع!

وقد تحدث عن "العبارات و الجمل الأخلاقية" التى ترد فيها ألفاظ مثل "خير"، و "واجب". وهذه العبارات عنده فارغة من المعنى. ولم ينتبه إلى أن هذه العبارات كثيرة الورود فى القرآن الكريم؛ وأنه بهذا الادعاء يقتحم منطقة مقدسة دون سند علمى!

يقول الدكتور زكى نجيب محمود: "إن الجمل الأخلاقية ليست بذات المعنى لأنها لا تشير إلى عمل يمكن أداؤه للتحقق من صدق معناها المزعوم."(٣)

فإذا أخذنا قول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ كمثال لجملة أخلاقية وجدناه يشير إلى عمل محدد يمكن أداؤه، ويجب أداؤه. والبشرية كلها تعيش على هذه القيمة الأخلاقية – أى الوفاء بالعهد – وعلى غيرها. فعلاقات الأفراد

---

(١) قصة عقل؛ ص ٢٤٢ .

(٢) مبادئ ميتافيزقا المعرفة؛ (بالفرنسية)؛ جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٣) انظر كتابه: الموقف من الميتافيزيقا؛ ص ١١٢ .

و الدول تستند إلى قيم العدل و الصدق و الوفاء بالوعد وغيرها من القيم الأخلاقية الثابتة المطلقة الخالدة التي لا يمكن تطويرها أو تحديثها بأي حال.[1]

فأين يكون المعنى إن لم يكن في الجمل الأخلاقية ؟ وكيف ينكر إنسان أنها أوامر صريحة بأداء أعمال محددة؟

ويفرق الدكتور زكي نجيب محمود بين "الصورة " و "الحشو" في القيم الأخلاقية. وهي تفرقة تثير العجب من كاتب مخضرم وأستاذ محقّق.

فهو يقول إن: "القيم الأخلاقية يجب أن تبقى اليوم على حالها بالأمس، وهي أن تكون مطلقة لا نسبية، إلا أن ذلك الإطلاق يتعلق بالصورة لا بحشوها. فالشجاعة اليوم قد لا تكون شجاعة المبارزة بالسيف بقدر ما تكون شجاعة في اقتحام الصعاب في سبيل الحق."[2]

والشجاعة كما يعرفها علماء الأخلاق هي الثبات في مواجهة الخطر من أجل الدفاع عن قيمة سامية. وقد تجسدت في الماضي في المبارزة وفي مواجهة المعتدين على الحق؛ وهي اليوم لم تتغير: إنها كما كانت: مواجهة الخطر في الحرب و السلم دفاعاً عن الدين أو الوطن أو الأهل والعرض. وتبايُن مصادر الخطر، وتبايُن القيم السامية التي يخاطر البشر بأنفسهم في سبيلها، لا يغير من قيمة الشجاعة شيئاً. ومن المحزن بحق أن يتورط أستاذ كبير في مثل هذه المزاعم الباطلة.

ومن أجل بلوغ غايته في نبذ الأخلاق الإسلامية وبيان أنها لم تعد تلائم عصرنا يعرض لحق الضيافة الذي أوجبه النبي ﷺ للضيف. فهو يقول: إن السفر في الصحراء في الماضي اقتضى أن يكون: "كلٌ لكلٍ فندقاً ومطعماً؛ وتغيرت ظروف الحياة بحيث أصبح مسافر الصحراء كما في الأرض المزروعة. .. وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد أمامنا محيص عن تغيير الفرض الأول بفرض جديد تنبثق منه أحكام الناس على سلوك الناس من فضيلة ورذيلة."[3]

---

(١) راجع الموضوع بالتفصيل في كتابي : الفضائل الخلقية في الإسلام؛ المبحث الرابع و الخامس .
(٢) حصاد السنين؛ ص ٣٩٨ .
(٣) تجديد الفكر العربي؛ ص ١٩٩ .

والحق أن إكرام الضيف تطبيق لمبدأ أخلاقي أوسع هو: سدُّ خَلَّة المحتاج أينما كان، في الصحراء أو في المدن أو البحر. وإذا كان المسافرون اليوم لم يعودوا يحتاجون إلى الضيافة، فإنهم قد يحتاجون إلى النجدة عند وقوع الحوادث المرورية وتعطل السيارات، وسقوط الطائرات؛ وقد يحتاج الجنود إلى الضيافة، وأكثر من الضيافة، حين يقومون بارتياد مواقع العدو. وفي حالات الحرب، والهجرات الجماعية للمدنيين - وقد جربناها مراراً في عالمنا الإسلامي - وكذلك في حالات انهيار المساكن، وحالات الفيضان، استضاف المسلمون إخوانهم شهوراً عديدة، حتى عادوا إلى ديارهم.

فظاهرة احتياج الناس بعضهم إلى بعض ظاهرة بشرية، تتخذ صوراً عديدة، ولها أسباب متباينة وتقع في أماكن مختلفة. ومواجهتها واجبة على كل مسلم. وهذا هو التكافل الاجتماعي و السلوك الأخلاقي -أي العطاء بلا مقابل - في صيغ متباينة. فإذا اختفت صيغة-كحاجة المسافرين في الصحراء إلى الضيافة - لم يكن ذلك مسوغاً للمطالبة بتغيير مبدأ التكافل الاجتماعي ونجْدة المسلم لأخيه المسلم في أوقات الحاجة. لكن الدكتور زكي نجيب محمود في ولعه الشديد بإبطال مبادئ الأخلاق الإسلامية وإظهار عدم الحاجة إليها، لم يشعر بالحاجة إلى تأمل القضية في أصولها وامتداداتها. إنه "التطور" الذي يريده أن يصْدُق على كل شيء، ليحل الجديد محل القديم - والجديد هو الفكر الأوربي الوضعي، و القديم هو الوحي الإلهي في الكتاب العزيز و السنة المطهرة. وأوربا اليوم تشكو مُر الشكوى من الأنانية الفظة و الفردانية المفرطة التي تترجم عن نفسها في شكل صنوف من الجريمة المنظمة وغير المنظمة. فكيف يجوز لأستاذ كبير للفلسفة أن يطالب بنبذ مبدأ التكافل الاجتماعي و النجدة الإسلامية وسَدّ خَلّة المحتاجين لأن المسافر في الصحراء اليوم لم يعد بحاجة إلى الضيافة التي قررتها السنة المشرفة ؟

وإيمانه بالفكر الأوربي الحديث ليس موضع شك، فقد أكده غير مرة، في مواضع عديدة من مؤلفاته. وفي مجال القيم الأخلاقية اتخذ الدكتور زكي نجيب محمود معيار الخُلُقية البراجماتي العملي السائد في الفلسفة الأمريكية و الأوربية. فهو يقرر "أن الفكر الفلسفي المعاصر (يعني الغربي) كشف عن أن مقياس العمل

الصحيح، أو الفكر السديد، هو مقدار ما ينتجه ذلك العمل أو الفكر." (١) فلا قيمة للنية، أو طاعة الله؛ بل المعيار هو المنفعة العملية الدنيوية. والمنفعة تظهر بعد العمل؛ فكان المستقبل، لا الماضى، هو مقياس صحة العمل أو سداد الفكرة: "وليس قول قاله سلف فى لحظة من زمن مضى." (٢)

فلا يجوز عنده أن نقول: قال الله تعالى، أو قال رسول الله ﷺ، للحكم على مدى أخلاقية العمل، بل ننظر فى النتائج فقط. وكذلك العمل السلبى أو الرذيلة لا يُحكم فى شأنها بقول "السلف"، ولذلك غضب الرجل غَضْبةً شديدة حين علم أن بعض طلاب كلية الطب حرصوا على معرفة حكم الإسلام فى رؤية الطبيب للعورة. (٣)

ومن جهة أخرى، إذا درسنا القيم الأخلاقية عنده فسوف نرى أنها نسبية متطورة متغيرة. وأى وصف لها بالثبات فهو نسبى بمعنى التطور البطىء. وعلى هذا الأساس يقرر أن القيم ليست عامة ولا مُلزمة لكل إنسان سوى من يؤمن بها. (٤) (وهذا زعم باطل كل البُطلان. ومن ذا الذى يمكن أن يعيش بين الناس دون التزام الصدق والعدل و الوفاء بالعهد؟!) ثم يضرب مثلاً – وهذا يندر أن تجده فى كتبه – للقيمة الخلقية، ولكنه للأسف يخطئ ويخلط بين القيم و الأذواق الفنية !فهو يقرر أن جميع الأحكام القيمية قابلة للاختلاف: "دون أن يكون ذلك دالاً على صحة الرأى عند أحدهم وخطئه عند آخر، إذ لا تناقض بين أن يعجب معظم الناس بغناء أم كلثوم – مثلاً – و أن تجد قلة من الناس لا يشاركونهم هذا الإعجاب." وأنا أقول إن الخلاف هنا فى التذوق لا فى قيمة خُلقية. والمثال الصحيح أن يقال إن البعض يعتبر العدل رذيلة أو جريمة و أن الظلم فضيلة! أو يقال إن الوفاء بالعهد خطأ ونقص سلوكى معيب، وأن نقضه خَصْلة شريفة ! فالرجل كتب عن القيم الخلقية دون أن يُعرّفها؛ ولذلك خلط بين التذوق الفنى الذى لا جدال فى اختلاف الناس فيه وبين القيم الخلقية الثابتة المطلقة التى لا خلاف فيها بحال.

---

(١) رؤية إسلامية؛ ص ١٣٨ .

(٢) نفسه؛ ص ١٣٩ .

(٣)نفسه؛ ص ٢١٥ .

(٤) حصاد السنين؛ ص ٣٢٣ .

وهذا مثال آخر للخلط بين قيمة ثابتة مطلقة - هى العدالة - وبين وسائل تحقيقها. والغاية من وراء هذا الخلط هو إثبات النسبية الجذرية الشاملة. يقول الدكتور زكى نجيب محمود إن مضمون العدالة يتغير: "فقد تعنى العدالة - فى عصر فكرى معين - أن يقتص المظلوم من ظالمه متى استطاع ذلك بشخصه، ثم يتغير العصر فتصبح العدالة ان يقف بين الطرفين قاض محايد؛ وهكذا فى سائر المعانى." [1]

والحق أن مضمون العدالة ثابت مطلق. إنها تعنى حق كل إنسان فى أن ينال ثمار عمله. وإذا اغتصب أحد ثمار عمل غيره، فذلك هو الظلم. أما وسيلة تحقيق العدل ومنع الظلم فقد تكون عن طريق القضاء كما عرفته أمم الأرض جميعاً، وقد تكون عن طريق سلطة أبوية أو عشائرية أو روحية؛ وقد يضطر صاحب الحق إلى أخذ حقه - أو ما يعتقد أنه حقه - بالقوة. فتختلف طرق تحقيق العدل، لكن يظل العدل هو العدل والظلم هو الظلم، قيماً ثابتة، وبدهيات مطلقة مثل المبادئ المنطقية والبدهيات الرياضية. وهكذا يظهر للعيان الخطأ الكبير للأستاذ الكبير![2] وفضلاً عن هذا الخطأ الكبير يضيف الدكتور زكى نجيب محمود خطأ أكبر حين يزعم أن كلامه عن العدالة يصدق على سائر المعانى، أى أن كل القيم التشريعية والأخلاقية متغيرة متطورة، نسبية، كالعدالة!

العدالة عنده نسبية متطورة؛ فإذا كانت العدالة بمثابة الجوهر لكل تشريع، كان معنى ذلك نسبية كل تشريع. وكان الإسلاميون قد طالبوا بالعدالة الإسلامية وتطبيق الشريعة والإسلام كاملاً غير منقوص ولا مبتور، فرد عليهم قائلاً إن: "بعضنا يريد أن يعيد الماضى ليكون هو الحاضر أيضاً، وكأنه لم يكن هناك امتداد زمنى بيننا وبينه."[3] فالعدالة الإسلامية لم تعد صالحة للتطبيق بعد مرور أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام. وبصفة عامة، الإسلام عنده ماض، والحاضر أفضل منه، ويجب أن يحل محله. فلا ثبات لشيء عنده إلا الله تعالى: "لأن الثبات المطلق لا يتحقق إلا لمن

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص ١٧٧ .

(٢) راجع كتابنا : الفضائل الخلقية فى الإسلام؛ المبحث الرابع؛ ص ١١٢ .

(٣) حصاد السنين؛ ص ٢٧٢ .

هو فوق الزمان وتقلباته وقيوده - سبحانه وتعالى - [١]، لكنه فى مكان آخر يعترف بأن الحقائق الرياضية مطلقة ![٢]

- ومن المؤسف أنه يرفض أشياء لا يعرفها، وبالجملة !ولو أنه حاول معرفة معنى العدالة الإسلامية لما رفضها. إنها تعني: أن ينال كل إنسان ثمرة جهده. فهل يسع أحد أن يرفض هذه البدهية التشريعية ؟[٣]

هل يمكن قبول صيغة مُضادة أو مُعدلة لها كان يُقال مثلاً إن: "لكل إنسان أن ينال بعض ثمرة جهده فقط؟ فمن ذا الذى ينال البعض الآخر؟ ومن ذا الذى يُحدد نسبة ما يأخذ ؟ لقد حاولت الشيوعية ذلك، فماذا كان مصيرها؟!

ولقد اعترف هو نفسه بأن: "الإسلام مجموعة من القيم التى لا أحسب عاقلاً على وجه الأرض يرفض شيئًا منها من حيث هى مُثل عُليا."[٤]

لكنه للأسف كثيراً ما يُناقض نفسه، وقد رفض العدالة الإسلامية التى هى القيمة التشريعية الأساسية.

وفى مجال الحريات يزعم الدكتور زكى أن تطوراً عظيمًا قد طرأ على حياة المسلمين اليوم، فصاروا يعزلون الحكام ويختارون غيرهم وكانوا عاجزين عن ذلك. ولا أدرى كيف يجحد ما حدث فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ حين كان يعزل الحكام والولاه تبعًا لآراء الرعيّة فيهم. وقد عزل "عمار بن ياسر" الصحابى الجليل ﷺ عن الكوفة؛ وذلك بسبب عدم رضا الرعية عنه."[٥] وعزل سعد بن أبى وقاص - قائد القادسية المظفر - للسبب نفسه.[٦] فحيثما تُعلن الرعية عن عدم رضاها، يكون العزل!

- والمفكرون المسلمون - فى رأيه - لم يعالجوا قضية الحرية السياسية والاقتصادية، بل عالجوها بمعنى ميتافيزيقى، فسألوا: هل الإنسان مُخيّر أم مُسيّر؟

---

(١) حصاد السنين؛ ص ٣٤٤ . (٢) نفسه؛ ص ١٧٩ .
(٣) راجع تفاصيل الموضوع فى كتابى "خلق القرآن" ؛ ص ١٥-٢٣ .
(٤) تجديد الفكر العربى ؛ ص ٦٨ .
(٥) تاريخ الطبرى ؛ جـ٤ ص ١٦٣- ١٦٤ .
(٦) نفسه؛ ص ٢٤٤ .

وتكلموا عن حرية الأحرار فى مقابل الرق: "وهى لا تمس علاقة الناس بالحكومة، هل هم أحرار فى إقامتها وفى عزلها، ولا تمس صور التبادل التجارى والاقتصادى، بل ليست هى بذات شأن فى علاقة الوالد بولده، ولا الزوج بزوجه."(١) ثم يقول: "فإذا وجدنا كلامًا عن الإنسان الحر،كان ذلك بالقياس إلى الرقيق، فهو حر بمعنى أنه غير مملوك لأحد؛ وأما حرية هذا الحر ما مداها فى أوضاع الحياة الفكرية والعملية، فلا أظن أنها ظفرت بالنظر."(٢)

وهذا النقد لا أساس له إلا الجهل بالإسلام والجسارة فى نقده دون تمحيص. فالإسلام أكّد حرية المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية بتوكيده لمبادئ الرضا والتراضى وانتفاء القسْر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،ورفض التسعير، و"العفو"-أى المجال الذى لا يخضع لأحكام النصوص الدينية..

- ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ (النساء: ٢٩) وعلى أساس هذه الآية شُيدت الحريات الاقتصادية، وَحُرِّم الغَصْب والإجْبار فى المعاملات المالية والتجارية. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ينطوى على حرية النقد الاجتماعى والسياسى، ويجعل حرية النقد واجبًا فى الممارسة. وقد رفض النبى ﷺ التسعير وقال: "إن الله هو المُسعّر."(٣) وقوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ معناه أنه لا إكراه فى أى شىء، لأن "الدين" يشمل العقائد والعبادات والمعاملات والسياسة والاقتصاد والاجتماع. فلا إكراه فى أى مجال من مجالات الحياة. فهذا هو المنهج الإسلامى، وهذه هى المصطلحات الإسلامية للتعبير عن الحريات. وقد نظر المفسرون والفقهاء فى "الرضا والتراضى"؛ وفى بطلان كل أمر يتم قسرًا، وفى حرية التصرف للمالكين فى أملاكهم. وهناك آلاف الصفحات التى تتضمن بحوث العلماء المسلمين عبر العصور. ولكن ما ذنبنا نحن المسلمين إذا أراد كاتب أن يتقوّل على ديننا بالباطل دون أن يكلف نفسه عناء البحث والعلم؟!

---

(١) تجديد الفكر العربى، ص ١٨٦ .

(٢) نفسه، ص ١٨٨ .

(٣) راجع الموضوع بالتفصيل فى كتابى: موقف الإسلام من الدنيا .

– وبعدُ فإن الدكتور زكى نجيب محمود آمن بالنسبية الجذرية التى تزعم أن كل شىء لابد أن يتغير مع الزمان والمكان؛ وهذه النظرية هى الأساس الفلسفى لفكرة التطور الشامل لكل شىء، النّافى لكل الثوابت: فى الدين والفكر والعلم والقيم والشرائع.

– لكننا نقابل تعبيرات عديدة فى كتبه تقول عكس هذا الكلام وعكس هذا الإيمان، بحيث يمكن أن يلتقط الناقد بعضها، ويرصّها جنبًا إلى جنب، لينتهى إلى القول إنه من أنصار الثبات وإنه ضد التطور والتقدم والحداثة والتجديد [1] ولكن إذا تذكرنا قوله إن الثابت هو الذى يتغير ببطء؛ وإن كل شىء متغير إلا الله تعالى، أدركنا أنه يستحيل أن يُعتبر من المعترفين بوجود ثوابت فى أى مجال.

وقد تأثر جيل من أساتذة الجامعات بكتابات زكى نجيب محمود وخالد محمد خالد، والسوفسطائية القُدماء ونظرية "دارون" وفلسفة "نيتشه"، وتُرجم كتاب "أصل الأنواع" لدارون إلى العربية.[2]

وأُلفت كتب عن "نيتشه ".[3] وقراءة كتاب واحد لـ "نيتشه" تغنى عن كل ما كتبه الكُتّاب العرب عنه. فليس لدى التلاميذ شىء يُضاف إلى ما كتبه الأساتذة، ولا لدى الأساتذة العرب – فى الحقيقة – شىء أكثر مما قاله "نيتشه" ونُقاده. وهذه الحقيقة المرة يعترف بها الجميع، وعلى رأسهم زكى نجيب محمود نفسه.

* * *

(١) انظر مثلا: رؤية إسلامية ص ٣٣، ٣٤، ٤١، ٧٥، ٣١٨، ٣١٩.

(٢) ترجمه إسماعيل مظهر، لكنه مات قبل إتمامه، فترجم الفصلين الرابع عشر والخامس عشر الدكتور محمد يوسف حسن.

(٣) كتب عبد الرحمن بدوى "نيتشه"، نشرته مكتبة النهضة سنة ١٩٣٩، وكتب عنه فؤاد زكريا كتاباً نشرته دار المعارف.

موقفه من اللغة العربية

لقد وجه الدكتور زكى نجيب محمود انتقادات مريرة إلى المؤلفين العرب الذين ألفوا كتب التراث وإلى اللغة العربية ذاتها. وبعد فترة من الزمن قال كلامًا آخر يعلن فيه تراجعه عن تلك الانتقادات، لكنه لم يحدد ما تراجع عنه؛ ولذلك ظلت مؤلفاته التى تحمل تلك الانتقادات إلى القراء العرب تمارس تأثيرها السلبى؛ حيث تتوالى طبعاتها الواحدة تلو الأخرى.

ونبدأ بنقده، أو لنقُل رفضه، للغة العربية. فهو يرى أنها: "كما نراها فى التراث الأدبى، وكما لا تزال عند كثيرين ممن يظنون أنهم يكتبون أدبًا، توشك ألاّ تنتمى إلى دنيا الناس، فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين الحياة العملية. ولذلك لم يجد المتكلمون باللغة العربية مفرًا لهم من أن يخلقوا – إلى جانب الفُصحى– لغات عامية يباشرون بها شؤون حياتهم اليومية!" لأن الفصحى فى نظره: "أداة عُروج إلى السماء، لا وسيلة اتصال بالواقع". وقد سطر هذه المزاعم فى كتابه: "تجديد الفكر العربى" الذى يُعد من مؤلفات طور النضج فى حياته الفكرية.(١)

– ثم وَجّه سهام نقده العنيف إلى الثقافة العربية فقال إن: "الثقافة العربية – فى كثير من الحالات – لم يكن يعنيها أن تكون للصيغة الكلامية دلالة فى دنيا الطبيعة وعالم الكائنات. إن الصيغ اللغوية إنما تفعل فعلها "كله" ما دامت حسنة التركيب جميلة الجرْس، ولا على صاحبها ولا على قارئها بعد ذلك أن يهتدى بها فى تجارة أو صناعة أو قتال، أو فى شأن من شئون العَيْش."(٢)

وعلى هذا رأى أن ثقافتنا العربية الإسلامية: "خَليقة" بأن يُقذف بها فى النار!" وحين خفف هذا الحُكم قال: "إنها مادة للتسلية فى ساعات الفراغ!"(٣)

---

(١) انظر كتابه المذكور ط ٥ . ص ٢٠٦، ٢٠٧ ، ٢٤١.

(٢) تجديد الفكر العربى ؛ ص٢٣٣ .

(٣) نفسه؛ ص ٢٠٥، ٢٠٦ .

وكلامه فى العبارات الأولى التى اقتبستها يحتمل البراءة لبعض كتابنا من اتهاماته؛ لكن العبارات الأخرى تعمم الحكم بانقطاع صلة العربية بشئون الحياة. وهو يجعل الثقافة العربية الجانى على اللغة، لأنها لا تريد من اللغة سوى جمال الجرْس!

– وفى جسارة الموقن بصحة اتهاماته يقول لقارئه: "إن شئْتَ فاخْترْ لنفسك أى كتاب شئت من تراثنا الأدبى، واقرأ مقدمة المؤلف، والأرجح جداً أن تجد نفسك فى أُحْبُولةٍ من ألفاظ وتراكيب، خيوطها سحرية، تصرفك عما يُراد بها من معنى، لتعكف على النغم والجرْس". ثم يضيف قوله إن ذلك: "يتفق ومزاج من لم يُرد أن يفعل شيئاً، فهو فى فراغ يملأه بالزخارف."(١)

– وهذا هو الحكم السابق نفسه مع حكم شنيع آخر على علمائنا ومفكرينا وأدبائنا الذين ورثنا عنهم تراثنا الإسلامى العظيم.

– وقد نصح قراءه بالرجوع إلى ذلك التراث ليتأكدوا من صدق اتهاماته. وسوف نأخذ بنصيحته ونرجع إلى عدد من عيون التراث، لنرى إن كان الرجل محقًا أو مبطلا.

ولقد كانت النتيجة مفزعة، ومفرحة، فى وقت واحد: مفزعة لأنها أثبتت لى أن الباطل يجسر – فى حياتنا الراهنة – على تحدى الحق، وعلى أن يطبع بهتانه فى صحائف كثيرة يسميها زوراً: "تجديد الفكر العربى". وأنا على يقين من أن أى قارئ يُجرى تجربتى سيجد النتيجة نفسها فى انتظاره.

– لقد قرأت مقدمات الكتب التالية:

* تاريخ الطبرى.

* الرعاية لحقوق الله، للمحاسبى.

* الأم للشافعى.

* بداية المجتهد لابن رشد.

* المستصفى للغزالى.

---

(١) تجديد الفكر العربى: ص٢١٧، ٢١٨.

* دَرْءُ تعارض العقل والنقل، لابن تيمية.

* الملل والنحل، للشهرستانى.

* الموافقات، للشاطبى.

* المحلى، لابن حزم.

* والجامع لأحكام القرآن، للقرطبى.

– وقد وجدت مؤلفيها أهل جدٍّ وعمل وتطبيق، لا أهل زخرفة، ومماحكة، ونظريات فارغة، ولم أجد من بينهم واحداً تَصْدُق عليه أوصاف الدكتور زكى نجيب محمود. وهم مجمعون على أن العلم الجدير باسم العلم هو الذى يسعى إلى تسديد العمل.

– وفى تلك البيئة الثقافية الإسلامية العملية القديمة، عُرِف المنهج التجريبى الذى تلقّفه "روجر بيكون"، العالم البريطانى الشهير (١٢١٤–١٢٩٤م) وطوره ليكون أساس النهضة الأوربية الحديثة. وكان "بيكون" يعرف العربية وكانت له صلاته بالعرب فى الأندلس.(١)

– فماذا يستحق ذلك الذى يجرؤ على وَصْم شيوخنا وعلمائنا بتلك الأوصاف الشنيعة زوراً وبهتاناً؟ أسأل هذا السؤال وأدع الجواب للقارئ.

– وأحسب أن معظم المثقفين يستطيعون أن يكتشفوا زيف انتقاداته للعربية الفصحى، لأنهم يتعلمون بها، ويكتبون بها، وقد دُونت العلوم الحديثة بها: من فيزياء وكيمياء وطب وهندسة. ولا ينفى هذه الحقيقة أن بعض الجامعات تدرِّس الطب بالإنجليزية، لأن جامعات أخرى تدرِّسه بالعربية. وهناك جهود حثيثة تُبذل لتعريب المصطلحات الأجنبية. وفى مجالات الفكر والأدب، عَبّرت اللغة العربية عن أفكار المفكرين، ومنهم الدكتور زكى نجيب محمود، وعن خيالات الشعراء، وعواطف الأدباء. وكتبت الدساتير والقوانين بالعربية، وصيغت بها المعاهدات والمواثيق الدولية، وظلت العامية حبيسة الأسواق، وبعض مسرحيات "الفارس" البذىء! وإعلامنا العربى

---

(١) راجع الموسوعة العربية الميسرة ؛ دار نهضة لبنان ، بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

الجاد بأخباره وتحقيقاته، ومقالاته، يجد الفصحى أداته القوية الثرية المعبرة، ونادراً ما يلجأ إلى العامية، لا لنقص فى الفصحى، ولكن لعادة المتكلم أو جهله.

فهل هذه المجالات كلها "خارج دنيا الناس"؟ وماذا تكون دنيا الناس عند الأستاذ الناقد؟ ولماذا لم يؤلف مؤلفاته بالعامية؟ ولماذا ترجم محاورات أفلاطون بالفصحى؟!

– وقد عبرت الفصحى عن معانى الفقه الإسلامي– عبادات ومعاملات، بأدق تعبير وأوفى بيان، فى المؤلفات التراثية والحديثة. وهذا الفقه يتناول حياة المسلمين: فى البيع والشراء والإيجار، وكل المعاملات التجارية، والأحوال الشخصية، والدماء، والقتال، والصلح والعهود، والعلاقات الدولية. فهل هذا كله "خارج دنيا الناس" ؟

الجواب عن هذه التساؤلات معروف، وهو يظهر بجلاء مدى البُطلان فيما قاله ذلك الأستاذ.

ومن المؤسف أن يمتد نقده الزائف ليمسّ الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ﷺ. فقد التقط كلمة عظيمة لذلك الخليفة العظيم، ثم فسرها على هواه، لتدعيم انتقاداته السابقة للفصحى وللكاتبين بها قديمًا وحديثًا. قال عمر: "إن الرجل ليكلِّمنى فى الحاجة يستوجبها، فَيَلْحَنُ ، فَأَرُدهُ عنها، وكأنى أقْضِمُ حَبَّ الرمان الحامض، لبُغْضى استماع اللحن. ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها، فيُعْربُ ، فأجيبهُ إليها، التذاذاً بما أسمع من كلامه."(١)

– فهل هذه الكلمة تشهد على أن العربية الفصحى لا تبتغى غير جمال الجرس؟ وهل تؤيد رأى الناقد القائل إن تراثنا العربى يستحق إضرام النار فيه؟

إن الخليفة العظيم لم يذكر جمال الجرس ولا طلبه، وإنما أراد أن يحث محدثيه على اجتناب اللحن، وعلى التزام الإعراب الصحيح. أراد "عمر" أن يحرص كُتابه وعماله والمسلمين عامة على تعلم العربية الفصحى. ولذلك أعلن تقززه من اللحن، واحترامه للإعراب الذى هو: "البيان دون لبْس أو مواربة." والفصاحة لا تعنى جمال الجرس، بل صحة الكلام ووضوحه."(٢)

---

(١) تجديد الفكر العربى؛ ص ٢٣٢ .

(٢) راجع قواميس اللغة ، مادتى "ع ر ب" و "ف ص ح" .

- وعلى هذا نرى أن نقد الناقد مجرد تُرهات جسورة هن بنات النزق الذى لا يعرف قَدْرَ المتكلم العظيم، ولا معنى كلامه الدقيق ولا غايته النبيلة.

ثم مضى زمن ليس بالطويل، أعلن بعده الدكتور زكي نجيب محمود تراجعه عن افتراءاته السابقة على التراث والثقافة العربية، والفصحى والكاتبين بها قديماً!!

- فهو يقول: "اقرأ ما شئت من نصوص التراث، وفى أى ميدان تختاره، تجدك أمام إنسان يجدّ ولا يهزل، يسمو بقارئه إلى القمة، ولا يهبط من قمته إلى السفوح ليرضى عنه قراؤه."(١)

- وفى تفسير مواقفه السابقة الرافضة للتراث العربى الإسلامى يقول: "وربما كان دافعي الخَبِيء إليها هو إلمامى بشيء من ثقافة أوربا وأمريكا، **وجهلى بالتراث العربى جهلاً كاد أن يكون تامًّا ، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا**."(٢)

إن المرء ليقف مشدوهًا أمام هذا الاعتراف!

- إنه يثير إعجابنا بشجاعته الأدبية، لكنه فى الوقت نفسه يثير سخطنا الشديد. فكيف استجاز ذلك الأستاذ الكبير، رائد العلمانية فى مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، لنفسه، أن يُصدر تلك الأحكام الزائفة على تراث أمته وهو جاهل به؟! وأين يكون الاستهتار والتهور الفكرى إن لم يكن فيما فعله الدكتور زكى نجيب محمود؟!

- وقد كان عليه أن يُفصِّل القول فى المسائل الكبرى التى تناولها فى نقده الجهول؛ وكان عليه إن يصحح أخطاءه وأن يعتذر عن سوء فهمه لكلمة الخليفة الراشد الخامس ﷺ، لكنه لم يفعل. ولا تزال كتبه تُطبع، وتنشر جهالاته إلى اليوم!

وبعد عقود من السنين دار فيها الجدل حول اللغة العربية بين التراثيين والحداثيين، لا يزال مستقبل اللغة العربية غامضاً . فيقول الدكتور عاطف نصار - رئيس جمعية لسان العرب - إن: "اللغة العربية تُضرب فى كل مكان، كتابةً وقراءةً واستماعًا وتعليمًا وتعريبًا "الأمر الذى "يحتاج إلى تعبئة عامة على المستوى القومى،

---

(١) انظر كتابه : عربى بين ثقافتين ص ١٤٨ .

(٢) تجديد الفكر العربى؛ ص ١٣ .

يُدعى إليها كل أطراف الفعل، وهى الأجهزة الحكومية، وشخصيات المال والأعمال، ورموز الفكر، وخبرات تقنية المعلومات، وخبراء صُنع القرار، وأساطين الصحافة والإعلام والإعلان، والأمن القومى العلمى التعليمى" فى: "مؤتمر تطوعى لا يخضع لسيطرة حكومية أو فردية، وإنما يديره مجلس حكماء قادر على صياغة رؤى التطور والتخطيط لها وتنفيذ مشروعاتها."

– وفى اعتقادى أن مشكلة اللغة جزء من مشكلة الثقافة. فإذا كانت الهيمنة الآن للثقافة الغربية، كانت اللغات الغربية هى المرغوبة، لا لذاتها، ولكن للمصالح الاجتماعية والاقتصادية التى تأتى ثمرةً لها. وإذا استطعنا أن نتحرر من الهيمنة الغربية ونسترد استقلالنا الثقافى واعتزازنا بثقافتنا، فإن اللغة العربية سوف تسترد الأرض التى سُلِبتها فى عُقر دارها. وإلى أن يتم ذلك بعون الله، يجب تأخير دراسة اللغات الأجنبية إلى المرحلة الإعدادية. وفى مجال الإعلام يجب التزام الفصحى الميسرة، وقد تم هذا الالتزام فى بعض برامج الأطفال فنطق كثير منهم بالفصحى فى أثناء اللعب! والتزم البعض بالفصحى فى وصف المباريات الرياضية، فانتشرت المفردات الفصحى بين المشاهدين والمعلقين.

ولا يجب أن نخدع أنفسنا فى رؤيتنا لمستقبل اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن الكريم الذى وعد الله تعالى بحفظه، ونخلد إلى النوم فى هدوء! إن علينا أن نكون أدوات فعالة لحفظ الله تعالى لِلغتنا العربية. ويجب أن نتذكر دائماً أن حرْب الحداثيين ضد العربية هى حرب ضدها كَمَعْلَم لشخصيتنا الإسلامية، لا بوصفها أداة تعبير. وتاريخ تركيا العلمانية الحديث يشهد على صحة ذلك. وفى كل بلد عربى هناك أشباه للأتراك للكماليين، وإن كانوا منحدرين من أصلاب عرب أقحاح!

* * *

من تغريب إلى تغريب

التحول المذهبى من الضد إلى الضد فى مواقف المثقفين تجاه الإسلام، يشكل ظاهرة ملفتة للأنظار، حتى أن سيدة هندية مسلمة ألفت كتابا كاملا عنها. وقائمة "المتحولين" طويلة، وعليها أسماء كبيرة ولامعة. بعضها معروف لعامة المثقفين. وبعضها لا يُعْرَف إلاَّ للخاصة. ومن أشهر المتحولين من العلمانية إلى الإسلام من الأوربيين: محمد أسد (ليوبولد فايس سابقاً)، ومريم جميلة (مارجريت ماركس سابقاً) والدكتور سراج الدين (مارتن كنجز سابقاً)، وناصر الدين دينيه، ومحمد مارمادوك بكثل، ورجاء جارودى؛ وهؤلاء أصبحوا مفكرين إسلاميين مرموقين بما كتبوا وألفوا عن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا؛ وفى مصر على وجه الخصوص شهد الناس تحول الشهيد سيد قطب، والشيخ خالد محمد خالد، والدكتور مصطفى محمود، وأخيراً الأستاذ عادل حسين. وهناك مئات من الأسماء اللامعة فى مجال الفكر، والعلم، والأدب والفن، انضمت إلى القافلة منذ نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن.

وقد توقع بعض المشتغلين بالفلسفة فى مصر أن ينتهى التطور العقلى للدكتور زكى نجيب محمود إلى التحول الكامل إلى الإسلام، حين أعلن هو نفسه، حوالى سنة ١٩٦٣، أنه قد بدأ: "يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان" بعد أن كان يؤمن بأن الفكر الغربى الأوربى: "فى شكل ثقافة واحدة" يندمج فيها المنقول والأصيل فى نظرة واحـــدة".(١) ومنذ ذلك الإعلان ومقالاته وكتبه - بصفة عامة - تدور حول هذه القضية، وتحاول إنجاز هذا الهدف. وقال ذات مرة إنه: "ليأسف على فترة لم تكن قصيرة من حياته الواعية (من الثلاثينيات إلى الستينيات) قضاها نصيراً لتلك الفئة (من أنصار التغريب الكامل) على ظن خاطئ منه بأن"ما نجح" فى الغرب كل هذا النجاح، الذى أضفى عليه ما أضفى من قوة وعلم وثراء، ينجح معنا إذا نحن اصطنعناه. لكنه خطأ فى الرأى قد شاء الله لهذا الكاتب أن يراه فيهتدى"(١).

(١) تجديد الفكر العربى ؛ التقديم .

هذا هو ما حفزنى على إجراء هذه المحاولة للتعرف على المدى الذى قطعه الأستاذ على طريق تحوله من الخطأ -أى التغريب الكلى- إلى "التوفيق" الذى حدده هدفًا لجهاده الأدبى منذ ربع قرن أو يزيد .

ومن المؤسف حقًّا أن أقول أننى وجدت أن الأستاذ قد تحول من تغريب إلى تغريب! فقد كان يعمل للتغريب الكلى حتى عام ١٩٦٣؛ ثم اصطدم بالأساتذة والطلاب فى جامعة الكويت وتنسم هناك مناخًا آخر غير المناخ العلمانى اللادينى الذى كان سائداً فى قسم الفلسفة بجامعة القاهرة. وفى السطور التالية نحاول شرح هذه الحقيقة المؤسفة، استناداً إلى ما جاء فى مقالته عن "جمود الفكر ما معناه" (الأهرام يوم ٧ / ٢ / ١٩٨٩) على وجه الخصوص.

إن الدكتور زكى حاول أن يعرض لنا رأيه فى "النصوص الدينية" فى ذلك المقال، على شكل إشارات من على بعد. وصفوة القول عنده إن جمود الفكر معناه الوقوف عند "حروف" النصوص، أو عند مضامينها الجزئية. وتنشيط الفكر وفكه من عقاله.. .تبعًا لذلك – يستدعى تجاوز حروف النصوص إلى "روحها" أو التمسك بإطارها النظرى مع نبذ مضموناتها الجزئية.

وأول ما نأخذه على كلام الدكتور هنا هو "الإجمال" الذى يغفل التصنيف العلمى للنصوص، والتمييز بينها. وذلك خطأ منهجى فادح. فالنصوص القرآنية والحديثية أصناف؛ فمنها القطعى فى ثبوته ودلالته، كقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ ويتحتم الوقوف عند حروفه، وتطبيقه على كل حالة دون تغيير أو تبديل، ودون تأويل أو تفسير، ومنها القطعى فى ثبوته، الظنى فى دلالته، ويحتمل شيئًا من التأويل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾؛ ومنها الظنى فى ثبوته ودلالته، كبعض أفراد الحديث الشريف، "الضعيف" حسب تعريف المحدثين، ويمكن تجاوز نصوصها كلية بشروط خاصة حددها العلماء.

وأبعد من هذا فإن المنهج العلمى يحتم إجراء البحث على "أفراد" النصوص نصًّا نصًّا، لا صنفًا صنفاً، وكان على الدكتور زكى أن يسوق لقرائه نصوصًا معينة ويبين لهم الفرق بين روحها وحروفها، أو بين مضمونها وإطارها النظرى، وأيهما الأهم

والمهم، وكيف يستطيع فك جمود الفكر، وتنشيطه، وما ثمن ذلك، وكان عليه أن يحدد أسماء المفسرين أو الفقهاء الذين وقفوا عند الحروف أو المضامين الجزئية، ويكشف عن الخطأ في موقفهم.

ولقد أكد الأستاذ بنفسه وعلى الدوام أنه لا يزال حيث كان: على رأس كتائب التغريب، حين انفجر غاضبًا على المرأة المسلمة التي تحترم نصوصَ الكتابِ العزيز، وتحاول أن توفِّقَ بين طاعة ربها وبين الأخذ بنصيبها في العلم والعمل. حمل الأستاذ على الحجاب والاحتشام حملته الشعواء، ومجَّدَ السفور، وأعلى من قدر المتبرجات، شبه العاريات، على شواطئ الإسكندرية، واستبدت به الثورة حتى نَسَبَ الحجاب الشرعي إلى شياطين الظلام، وهو يعلم أنه التطبيق العملي لآيات من كتاب الله، وأحاديث صحيحة لرسوله ﷺ (الأهرام-٤ / ٩ / ١٩٨٤) فكانت كلماته في المسألة أشد نكارة من كل ما قال من قبل!

فهل "روح" النص تعنى المعصية؟ وهل إطاره النظرى يعنى رَده والتنكر له كما فعل هو؟!

ولقد أكد موقفه هذا قبل ذلك (في ٥ / ١٢ / ١٩٨٣) حين أنكر على الأمة العربية محاولاتها اقتباس العلم والصناعة من أوربا دون الثقافة الغربية المادية العلمانية اللادينية. وقال: "وليس من شك في أن مصر حين اصطدمت بحضارة الغرب الحديث وبشيء من ثقافته، اهتز بنيانها، لأنها وجدت نفسها أمام حياة تختلف عن حياتها اختلافًا شديدًا، وكان أن ردت الفعل بموقف شاذ، هو الموقف الذى نحياه اليوم، وأعنى به أنها أخذت من الشجرة الجديدة ثمارها ورفضت جذورها وجذوعها (يقصد: المادية والعلمانية)، أى أنها أخذت نتائج العلم ونتائج الصناعة ونتائج النشاط الفلسفي والفكري ومبدعات الأدب والفن والأشكال الخارجية للنظم كلها: سياسية وتعليمية واقتصادية وغيرها، أقول إنها أخذت "نتائج" هذا كله، ولكنها رفضت أن تحيا الحياة التى تعتمل فيها العوامل لتنتج لصاحبها تلك النتائج.

فهو ينقم على الأمة العربية أنها أخذت نتاج العلم والصناعة وأبت أن تحيا حياة غربية كاملة: أخذت ثمار المادية العلمانية ورفضت أن تأخذهما. هذه هى غلطتنا نحن العرب والصواب عند الأستاذ أن نأخذ الجذور والجذوع كما أخذنا النتائج.

وكان الدكتور طه حسين قد ذهب هذا المذهب في كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر" ودعا إلى أن: "نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقتهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة بخيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحَب منها وما يُكرَه، وما يُحمَد منها وما يُعاب".[1] لكن الدكتور طه استدرك الخطأ في هذا الرأي، وقال في الكتاب نفسه: "إننا إذا دعونا إلى الاتصال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين في سيرتهم التي انتهت بهم إلى الرقي والتفوق، فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما في سيرتهم ...لا ندعو إلى أن نكون صوراً طبق الأصل للأوربيين كما يقال، فذلك شيء لا سبيل إليه، ولا يدعو إليه عاقل".[2] أما كلام الدكتور زكي فيريدنا أن "نحيا الحياة الغربية" – وهي حياة علمانية لادينية؛ وهذا هو التغريب الكلي!

وأساس التغريب عند الدكتور زكي هو: الفلسفة النسبية، ونظرته إلى الثقافة ككل. فالثقافة عنده "أدوات عيش" لا فرق في ذلك بين الفأس والمغزل والعقيدة والشريعة!! وكل عناصر الثقافة يمكن أن تتغير ويحل محلها غيرها إذا ثبت أنها لا تؤدي إلى ما يراد لها من خدمة في "العيش"! وليس ثمة عنصر ثقافي مقدس عنده؛ فكل شيء قابل للتعديل والتغيير! وهذه هي الفلسفة النسبية المعادية لكل الثوابت، والتي تصادم "النصوص" الثابتة ويسعى فلاسفتها إلى تخطيها وهجرها، لكي يتمكنوا من ان يحيوا حياة أوربية كاملة، بجذورها وجذوعها وفروعها وأوراقها وثمارها جميعاً. فلا تغريب إذن بدون النسبية.

استمع إليه يقول: "إن مجمل الحياة الثقافية و بالمعنى الذي حددناه، إنما هو أداة عيش؛ وهو كأية أداة أخرى، إذا لم تؤد ما كان يراد لها أن تؤديه، وجب إصلاحها أو تغييرها بأداة أصح منها. وحتى "الثوابت" من العناصر الثقافية التي تدوم أكثر مما تدوم المتغيرات من تلك العناصر عصراً بعد عصر – وأعني الثوابت التي منها تتألف "الهوية" الوطنية أو القومية. أقول إنه حتى تلك "الثوابت" من عناصر الحياة الثقافية لشعب معين، لا ينبغي أن يكون لها من القداسة ما يمنعنا من تعديلها إذا وجد أنها

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر؛ ص ٤٨.

(٢) نفسه؛ ص ٦٣.

قد فقدت شيئًا من قدرتها على أن تهيئ لصاحبها فرصة الحفاظ على حياته قوية مزدهرة" (الأهرام٢٧ / ١٢ / ١٩٨٨).

فكل شيء متغير قابل للتعديل والإبدال والإحلال ولا شيء مقدس ولا شيء ثابت مطلق. كل ما فى الأمر أن التغير نسبى، يسرع فى أشياء ويبطئ فى أخرى. والحفاظ على الحياة القوية مزدهرة هو الهدف الأقصى لكل عناصر الثقافة؛ وكل ما يثبت أنه يقربنا من ذلك الهدف أكثر من غيره، يجب أن نأخذه وأن نستبدله بما هو أقل منه قدرة على إبلاغنا ذلك الهدف الأقصى.

والنصوص بحروفها،هى العدو اللدود لهذه الفلسفة النسبية السوفسطائية، إنها هى التى تقدم الثوابت والمطلقات الخالدة فى الفكر والتشريع والأخلاق والنظم. ومن هنا كثر الحديث حول "روحها" و"حروفها" بغية الالتفاف حولها بالتدريج، لكى يطاح بها فى نهاية المطاف!

والنسبية الجذرية الشاملة، التى يؤمن بها الدكتور زكى ويروج لها عبر مقالاته فى الأهرام وفى كتبه، تقوم على أساس من الخلط بين "الحقيقة" و"معرفة الإنسان بها". وهذا خطأ. "فالحقيقة" ثابتة مطلقة لا تتغير. لكن "معرفة" الإنسان تتغير وتتطور. والقول نفسه يصدق على العقائد الدينية والقيم التشريعية والأخلاقية. فالتوحيد، والعدل، والإيثار، كقانون الجاذبية وحقائق الهندسة، كلها ثابت مطلق خالد. سواء عرفها البشر أو جهلوها، وسواء التزموا بها أو انتهكوها.

وهذه الثوابت فى العقيدة والشريعة والأخلاق، وكذلك النصوص القطعية التى تنطوى عليها، لا تتصل بجمود الفكر من بعيد أو قريب، وإنما هى العواصم من عواصف الهوى والشهوات والرغبات الإنسانية، والدليل على ذلك أن أوربا حين تفلتت من ثوابت الدين استحلت الاستعمار ونهب الشعوب المستضعفة، واستباحت دماء البشر فى إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، بل فى أوربا نفسها، فقُتل ٦٠ مليون إنسان فى الحرب العالمية الثانية؛ وقد انتهت الفلسفات النسبية واللادينية إلى تركيع العالم كله لدولة واحدة ظالمة هي أمريكا، وانتهكت كل القيم حتى تزوج الرجلُ الرجلَ. وصار الشذوذ هو القاعدة والزواج هو الشذوذ، وصارت غالبية النشء لا يعرف أحد منها أباه أو أمه، وحُرمت الملايين من الأطفال غير الشرعيين من حق الحضانة

الأسرية، والأمومة والأبوة؛ وترتب على ذلك تضاعف أعداد الجانحين والمجرمين، والمختلين عقليًا ونفسيًا. وصرخ الجميع من "الإيدز" والسيلان والزهرى، وصارت معاقرة الخمر كابوسًا رهيبًا يفتك بأكباد الملايين؛ هذا فضلاً عن ظواهر الاغتراب والانتحار المفزعة!

فالثوابت والمطلقات فى الإسلام لا تعوق الفكر ولكنها تعصمه من التخبط والزلل والخضوع للأهواء والشهوات. ونحن نتمنى أن يفتح العلمانيون ملفات الجمود الفكرى من خلال أمثلة محددة يظن أنها تسبب الجمود. إنهم بذلك يخدمون قضايا الفكر الإسلامى والعربى. أما "التهويم" والرمز، والإغراق فى الإجمال، والخوف من التحديد، وتحاشى الأمثلة المعينة، فإنه لا يفيد فى شيء سوى إصابة الفكر بالغموض، والعقم تبعًا لذلك.

وصفوة القول، بعد هذه المحاولة، إن الدكتور زكى لم يغير هدفه البعيد، ولا هو تحول عن فلسفته القديمة، إنه بدأ بالعمل فى سبيل التغريب، ولا يزال يعمل فى هذه السبيل نفسها. كل ما فى الأمر أنه ترك التغريب الكلى، مؤقتًا، لكى يجاهد فى سبيل التغريب الجزئى، تحت شعار "التوفيق". ومن وجهة النظر الإسلامية الموقف الأول أهون خطرًا من الثانى، لأنه واضح، صريح فى حين أن الثانى غامض، ملتبس، خفى، ويرفع المصحف فى وجه المسلمين، ويغمد العلمانية اللادينية المسمومة فى قلوبهم!

* * *

عبد الرحمن بدوى
من الوجودية إلى الإسلام
حدث ثقافي كبير

إن التحول الذى طرأ على فكر الدكتور عبد الرحمن بدوى حدث ثقافى كبير، وكما أنه أسعد قلوب المؤمنين فإنه أثار حفيظة العلمانيين الذين حاولوا تفسير تحوله بتوجيه الاتهامات إلى ضميره مستخدمين لغة سوقية أقرب ما تكون إلى السباب!

ولقد وصف أحدهم مؤلفات بدوى الإسلامية بأنها ردة - ردة من العلمانية إلى الإسلام، أو من التنوير إلى الظلامية، أو من الحداثة وما بعد الحداثة إلى الماضوية! وقال أستاذ معروف من أساتذة الفلسفة فى الجامعات المصرية: "إن بدوى كتب إسلامياته الأخيرة طمعاً فى أموال الدول النفطية التى تغدق العطاء على مثل تلك المؤلفات" وقال آخر إن بدوى تقدمت به السن فخاف من اللقاء الأخير - بمعنى لقاء الله - فكتب دفاعه عن القرآن وعن نبى الإسلام تحت وطأة ذلك الخوف!

بهذا الأسلوب المبتذل فسر العلمانيون الكبار ذلك التحول الكبير فى فكر رائد مرموق من رواد الدراسات الفلسفية فى العالم العربى والإسلامى، فاستدعى الأمر وقفة مراجعة وتمحيص تعيد الحق إلى نصابه.

إن الدكتور عبد الرحمن بدوى ليس من ذلك الطراز الذى يغريه ذهب المعز أو يخيفه سيفه، ولم يكن بدوى فى أى يوم من الأيام بحاجة إلى المال، إذ ينتسب إلى أسرة واسعة الثراء، وحتى لو كان بدوى من أسرة معدمة، كبعض نقاده، لما ساوم النظم التى حكمت مصر على حرية فكره، كما فعلوا هُم. لم يكن بدوى من ذلك الطراز الذى يكتب للحكام، ويتحول ويتبدل حيث تحولوا وتبدلوا، من الليبرالية إلى الاشتراكية، أو الشيوعية، ومن الوطنية إلى القومية، وبالعكس؛ الأغلبية الساحقة كانت تتحول وتتبدل كالحرباء، وبدوى مقيم على الدرس والبحث، ثابت على مذهبه

الوجودى، العلمانى، عامل من أجل نصرته، رافض رفضاً باتًّا للفكر السائد، لا يساوم ولا يرتزق.

ثم تحول بدوى إلى الإسلام بعد غربة امتدت إلى ربع قرن فى فرنسا، ولا اظن أنه كان تحولاً مباغتًا، وبواعثه علمية بحتة، فقد قضى مرحلة النضج فى فرنسا، حيث الحرية الفكرية متاحة على أوسع نطاق، ولا يوجد باعث ضاغط سوى حب الحقيقة ورفض الخطأ والزيف، ولم يتردد بدوى فى التعبير عن الحقيقة التى آمن بها من خلال مؤلفاته الأخيرة التى دافع فيها عن القرآن وعن النبى الذى جاء به، فى مواجهة كبار المستشرقين الذين تورطوا فى التحامل على محمد ﷺ وعلى دينه تحت وطأة التعصب الأعمى الموروث، والجهل باللغة العربية والإسلام.

وكان بدوى شجاعاً بحق، فليس بوسع مفكر جبان أن يتحول من الكفر إلى الإيمان، ومن المعسكر القوى السائد، والحاكم، فى الجامعات ومراكز البحث، والإعلام والثقافة، إلى المعسكر الضعيف، المتهم بالتخلف والرجعية والماضوية والظلامية والأصولية والإرهاب! ولولا شجاعة بدوى لتردد كثيراً، وتلعثم، ووقف على الحدود، يقدم رجلا ويؤخر الأخرى، خشية العواقب، كما فعل بعض رواد الفلسفة الوضعية، مثلاً، فالكتاب الأول فى السلسلة الإسلامية الأخيرة عنوانه: "دفاع عن القرآن ضد منتقديه"، صدر سنة ١٩٨٦ . وهو حملة علمية هائلة على كبار المستشرقين، وهو ينزع عنهم الهالة العلمية التى أحاطت بهم؛ ويُسقِط صورتهم كمثل عليا للبحث الموضوعى الرصين. والكتاب الثانى عنوانه: "دفاع عن سيرة النبى محمد ضد المنتقصين منها"، صدر سنة ١٩٩٠، وأنا لم أطلع عليه بعد، ولكن بدوى صرح بأنه يسير فيه سيرته فى الكتاب الأول. والكتاب الثالث عنوانه "الإسلام كما فهمه فولتير وهيردر وجيبون وهيجل". وهو الحلقة الثالثة فى هذه السلسلة الإسلامية.

الثورة الروحية:

فى أول كتاب ألفه بدوى سنة ١٩٣٩ عن "نيتشه"، ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره، وضع لنفسه غاية كبرى سماها ثورة روحية، فقال: "فليس من شك فى أن هذا الوطن فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما ألف من قيم... فى أشد الحاجة إلى أن يطرح هذه النظرة القديمة فى الوجود والحياة، كى يضع مكانها

نظرة أخرى، كلها خصب وكلها قوة، وكلها حياة " . وهذا هو ما أُسميه أنا "الإحلال الثقافي الشامل" ، أى إحلال الثقافة الأوربية، الحديثة، محل الثقافة الإسلامية القديمة. ولم يكن بدوى مخترعًا لفكرة الإحلال الثقافي الكامل، فقد عرفتها دوائر عديدة، وأفراد أكثر عددًا، منذ الغزو الفرنسى لمصر سنة ١٧٩٨ م، وقد اجتهدوا لإنجازه، وهو ما عبر عنه الدكتور طه حسين فى كتابه: "مستقبل الثقافة فى مصر" حيث دعا إلى أن: "نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب" .(١)

ومن أجل إنجاز تلك الثورة الروحية خطط بدوى لنفسه مشروعا بحثيًّا كبيراً لتقديم "خلاصة الفكر الأوربى إلى أبناء هذا الجيل" ، وما يريده بدوى من مشروعه الضخم هو أن يحمل أبناء هذا الجيل: "على أن يفكروا فيما فكر فيه العقل الأوربى... كى يتخذوا من هذا النظر وذلك التأمل والتفكير دافعًا ومادة وأداة من أجل إيجاد هذه النظرة الجديدة.." (راجع: نيتشه، التصدير).

فالغاية النهائية للثورة الروحية هى: إيجاد نظرة جديدة فى الوجود والحياة لتحل محل النظرة القديمة التى هى النظرة الإسلامية، وعلى العقل العربى أن يفكر فيما فكر فيه العقل الأوربى، ولذلك بذل بدوى أقصى جهده لوضع ثمار العقل الأوربى أمام العقل العربى. فكتب عن أفلاطون وأرسطو والأبيقورية والرواقية، وعن فلاسفة العصور الوسطى الأوربيين. وعن الفلاسفة الأوربيين المحدثين والمعاصرين، وحقق مؤلفات ضخمة لأرسطو ولتلاميذه العرب، وترجم لأعلام الفلسفة الوجودية.

وبعد مضى ستين عامًا على ثورة بدوى الروحية وبعد مضى مائتى عام على بداية عملية الإحلال الثقافي، وبعد الجهود الجبارة التى بذلت لإنجازه، لم يتم منه إلا القليل، وظلت النظرة الإسلامية سائدة، وعاد الإسلام فى هيئة صحوة واسعة النطاق، وفى شكل حكم سياسى ودساتير وشرائع وقوانين، واحتاج العلمانيون إلى الاستبداد والقمع وتزوير الانتخابات للاحتفاظ بالنظم العلمانية.

---

(١) انظر: مجموعة أعماله الكاملة -المجلد التاسع ص ٤٨ .

ولم تتشكل نظرة جديدة في الوجود والحياة، وإنما وجدنا نظريات أوربية مادية يتبناها بعض أساتذة الجامعات مثل أحمد لطفى السيد الذى روج لعقلانية أرسطو، وطه حسين الذى بشّر بالديكارتية، وزكى نجيب محمود الذى تبنى الوضعية المنطقية وبدوى الذى اعتنق الوجودية، وعدد من أتباع دارسى الفلسفة اتبعوا "هيجل" وجدليته، وماركس وماديته، وأرتال من البراجماتيين "النفعيين" !

ثم كانت الحادثة التى رجت الوسط الثقافي العلمانى رجة شديدة، ألا وهى تحول الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى الدفاع عن القرآن ضد منتقديه من الفلاسفة والمستشرقين الأوربيين، وإلى تقديم السيرة النبوية العطرة إلى شعوب أوربا بالفرنسية، والدفاع عن صاحبها ﷺ، وتوكيده أن: "القرآن يخرج دائماً منتصراً على منتقديه".[١]

وجودية بدوى:

وكان بدوى قد أعلن عن خطوط عريضة لمذهبه الوجودى فى رسالته لنيل درجة الدكتوراه سنة ١٩٤٣م، وتحت تأثير نيتشه وكركجارد وهيدجر انتهى إلى القول بأن "الوجود زمانى" بمعنى أنه "لا وجود دون زمان".

"فإن كل ما يتصف بصفة الوجود لابد أن يتصف بالزمانية" بل علاوة على هذا فإن ما يدعونه "فوق الزمان" أو "خارج الزمان" هو أيضًا زمانى."[٢] وهو هنا يرفض العقيدة الإسلامية التى تقرر أن الله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (سورة الحديد: ٣). فالله خالق كل شيء، وهو موجود قبل وجود المخلوقات، ومنها الزمان والمكان.

إن بدوى يعارض النظرة القديمة، هو يعارض القرآن الذى عاد هذه الأيام إلى الدفاع عنه بحرارة ضد منتقديه!

وبعد إعلان مذهبه الوجودى سنة ١٩٤٤م، لم يواصل بدوى تطويره واستكماله. وقد كان رئيسًا لقسم الفلسفة فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٢م، حين

---

(١) راجع الترجمة العربية لكتابه: "دفاع عن القرآن ضد منتقديه" ص ١٦ .

(٢) راجع كتابه: الزمان الوجودى ؛ ص ٤٦ .

كنت أنا طالبًا بكلية الآداب فى جامعة عين شمس، ودرّس لنا بدوى المنطق ومناهج البحث والفلسفة الإسلامية، ولم يُدرّس الفلسفة الوجودية، لكنه كان يعمل فى دأب فى خدمة مشروعه الثقافي الكبير؛ أعنى إحلال النظرة الوجودية محل النظرة الإسلامية، عن طريق تقديم الفكر الأوربى القديم والحديث والمعاصر إلى أبناء العربية، بتحقيق العديد من المؤلفات، وبالتأليف والترجمة. وحتى كتاباته تحت عنوان "الدراسات الإسلامية"، كانت لخدمة ذلك المشروع، فلم يكن معظمها جديراً بأن يوضع تحت هذا العنوان، وكيف يكون "منطق أرسطو" و"المثل العقلية الأفلاطونية" و"فن الشعر لأرسطو" و"أفلوطين عند العرب" – مثلاً – مؤلفات أو دراسات إسلامية؟! إن هذه الكتب دراسات فى الفلسفة اليونانية القديمة التى تُرجمت إلى العربية وكانت المصدر الرئيسى للفلسفة العربية "التى تسمى أحياناً الفلسفة الإسلامية". لكن من المؤكد أن بعض دراساته الإسلامية استحق وصفه "بإسلامية"، مثل كتابه: "مؤلفات الغزالى" الذى يمثل قدرات بدوى الفائقة فى المثابرة والدقة وسعة الاستقصاء، تلك التى لا يضاهيه فيها أحد من المعاصرين. ولم يخطئ بدوى فى حق مشروعه الثقافي الكبير بأن يحقق كتابًا فى التفسير أو الفقه أو أصول الفقه مثلاً، إلى أن وقعت الواقعة الأخيرة فى تطوره الفكرى.

كان بدوى مولعًا بالفلسفة اليونانية القديمة، شديد الاهتمام بتجديدها، انظر إلى سطوره التالية فى مقدمة كتابه: "خريف الفكر اليونانى" الذى ألفه سنة ١٩٤٢م – وهو يومئذ، فى الخامسة والعشرين من عمره – لتعرف قدر ذلك الولع. يقول بدوى: "فوداعًا إذن أيتها الروح الإلهية الخالدة! وداعاً أيتها المعجزة الإنسانية الكبرى. وداعًا أيها الرمز الأعلى للنبل والحق والجمال. ها أنت قد حققت الصورة العليا للإنسانية، وتجسدْت كل القيم الأزلية، وهديت الإنسان سواء السبيل، وما على الأجيال المتلاحقة إلا أن تقيم لعبادتك المراسم والطقوس، صادرة فى كل نبيل من الفعَال عن وحيك، وما علينا نحن المؤمنين بقداستك، المستلهمين لروحك، إلا أن نحاول اليوم جهدنا أن نُجددك، وأن نخلق روحًا جديدة على غرارك، إن كان شيئاً من هذا فى الإمكان". (ص: و، ز)

ولم يكن هذا الكلام مجرد تعبير إنشائى انفعالى موقوت، وإنما تعبير جاد عن

المشروع الثقافي الكبير لبدوى، وعهد يقطعه على نفسه بالعمل والاجتهاد، لخلق روح جديدة، أو فلسفة جديدة، عقلانية، على منهج اليونان القدماء وأحفادهم الفلاسفة المعاصرين. وقد حقق بدوى - أو خيل إلينا أنه حقق - تلك الغاية حين أعلن عن مذهبه الوجودى فى رسالته الجامعية لنيل الدكتوراه.

القيمة العملية لوجودية بدوى:

فإذا تساءلنا: ما القيمة العملية لوجودية بدوى؟.. لم نجد للجواب سوى الدعم للمذاهب العلمانية التى عرفت فى أوربا، ونقلت إلى العربية، كالعقلانية، والوضعية المنطقية، والمادية، والبراجماتية. فهذه المذاهب تستبعد الدين - أو وحى السماء - وتقيم الحياة البشرية فى الجوانب الفكرية والعملية على العقل والتجربة، والخبرات البشرية عامة، وهذا هو ما اعتنقه بدوى، حين نفى كل وجود خارج الزمان، وبذلك نفى وجود الله، ونفى الوحى بنفى الألوهية، وهذا يقودنا إلى التساؤل عما إذا كان بدوى قد تخلى حقًا عن مذهبه الوجودى المناقض للإيمان الإسلامى؟

فى الجواب عن هذا التساؤل لا نجد جوابًا واضحًا، قاطعاً. حقًا إن كلام بدوى فى مؤلفاته الإسلامية الأخيرة يوحى بأنه نبذ الوجودية الملحدة، وعاد إلى الإيمان بالله وبالقرآن وبمحمد ﷺ. فمن التناقض أن يدافع بدوى عن القرآن الكريم، ذلك الدفاع الحار القوى، وعن النبى ﷺ وهو لا يؤمن بهما. فأنا أرجح أنه نبذ الوجودية الملحدة، ولكن الموضوعية تقتضى أن نستبقى شيئاً من التحفظ فلم يعلن بدوى حتى وفاته إعلاناً صريحًا أنه نبذ الوجودية بعد أن اكتشف زيفها.

وبعد، فلابد أن أخبر القارئ أننى إذا أثنيت على بدوى أو انتقدته فذلك مبرأ من المشاعر الشخصية والتحيز معه أو ضده. ولا ريب أننى سعدت بتحوله الفكرى الأخير، ولكن ليس إلى الحد الذى ينسينى الموضوعية الواجبة فى الدراسات العلمية. وقد كان بدوى أستاذًا لنا فى قسم الفلسفة، لكنه كان عديم الصلة بنا، ربما تطبيقًا لفلسفته![1] ولذلك يكذب كل تلميذ لبدوى يزعم أنه أقام معه علاقات إنسانية حميمة كتلك التى كنا نسمع أنها تسود فى علاقة الأساتذة بتلاميذهم. أما الاحترام والتقدير والإعجاب فله منا القدر الأوفى، رحمة الله عليه.

---

(١) راجع كتابه: دراسات فى الفلسفة الوجودية ط٢ سنة ١٩٦٦ ص ٢٤٠.

قراءة في كتاب
«دفاع عن القرآن ضد منتقديه»

هذا كتاب قيّم بالمعايير الإسلامية والعلمية والثقافية، وتتضاعف قيمته بقيمة مؤلفه الدكتور عبد الرحمن بدوى، الذى يتبوأ القمة السامقة فى مجال الدراسات الفلسفية فى العالم العربى، والذى يتمتع بالاستقلال الفكرى، ويرفض بكل صراحة ممالأة السلطة - أية سلطة - سواء سياسية أو أكاديمية أو ثقافية، وهو الذى لم يقبل المساومة على فكره، أو التكسب من قلمه، كما فعل غيره. وبذلك عاش فريداً، فذاً، فى استقلاليته وتحرره، إلا مما يوقن بأنه الحق والعدل، فكان بذلك قدوة رائدة لأجيال من الباحثين والكتاب والمفكرين.

ومن المؤكد أن الذين لا يعرفون الدكتور بدوى وخطه الفكرى الأول لن يندهشوا إذا قرأوا له كتاباً كهذا الذى بين أيدينا، حيث يدافع عن القرآن الكريم ضد منتقديه من المستشرقين. فمن الطبيعى أن يفعل ذلك أى أستاذ مسلم يقدر عليه، ولكن الذين يعرفون الدكتور بدوى ونزعته الفلسفية لابد أن تبلغ بهم الدهشة مداها فلا يكاد الواحد منهم يصدق ما يقرأ!

فلقد كان الدكتور بدوى باحثًا علمانيًّا منذ كتب رسالته لنيل الماجستير وفى مؤلفات الشباب، وفى رسالة الدكتوراه، وهى دراسة فى الفلسفة الوجودية الملحدة!

وكانت خطته المعلنة أن يواصل تطوير أفكاره الوجودية التى بلورها فى تلك الرسالة، وقد قطع شوطًا فى خطته تلك، تأليفًا وترجمة.

وترك الدكتور بدوى مصر، لينتهى به المطاف فى فرنسا، منذ حوالى ربع قرن. وفى فرنسا، ووسط مناخ ثقافى علمانى مادى يعادى الأديان، والإسلام خاصة، حدث تحوله الفكرى قليلاً قليلاً، حتى أصبح الفيلسوف الملحد - سابقاً - المحامى الأكبر عن القرآن، وعن الإسلام، وعن نبى الإسلام! وعلى يديه انتصر القرآن الكريم على كل منتقديه المتعصبين من المستشرقين اليهود والنصارى والملاحدة. وقد أودع دفاعه العلمى الرصين الموضوعى، فى هذا الكتاب، وواجههم به فى عقر دارهم وبلغتهم!

ولا ريب أن هذا الكتاب الوجيز (١٨٠ صفحة) لطمة قوية للاستشراق. فإذا كانت نظرة الكثيرين إليهم - قبل صدور هذا الكتاب - نظرة الثقة والتبجيل، فإن نظرتهم لابد أن تتبدل، فيحل الارتياب محل الثقة والاستخفاف محل التبجيل. وكيف لا بعد أن اثبت بدوى أن كثيرين منهم، بل من كبارهم، متعصبون، كذبة، وحاقدون مدلسون؟!

وكيف لا بعد أن أثبت بدوى أن التعصب ساق كثيرين من كبارهم إلى العمى والهذيان؟!

و الدكتور بدوى هو أقدر الباحثين العرب على إعادة تقويم أعمال المستشرقين، بسبب استقلاليته الفكرية، وسعة علمه، ومعرفته لأكثر من عشر لغات أجنبية، وتفرغه التام للبحث العلمي.

الترجمة العربية:

وقبل أن نعرض لمضمون الكتاب نقدم تقويمنا للترجمة العربية.

فنبدأ بشكر الدكتور جاد الله على ترجمته لهذا الكتاب الثمين، ومن المؤكد أنه عانى الكثير لإتمام ترجمته. والظاهر أن الترجمة لم تنل حظها من المراجعة والتدقيق، فوقعت أخطاء عديدة متنوعة نبيِّنها فيما يلي:

وأول خطأ يتمثل في الاضطراب في ترتيب اسم المؤلف واسم الكتاب واسم المترجم. فورد اسم المترجم ثلاث مرات، ووُضع قبل اسم المؤلف في إحداها، وورد خماسيًّا أخرى! ويظهر أن العنوان الفرنسي (ص٣ من الترجمة العربية) قد سقطت منه كلمة contre

ويشعر القارئ بأن المترجم أضاف من عند نفسه بعض الكلمات والعبارات دون أن يشير إلى ذلك، مثل كلمة: "سيدنا" (محمد) وعبارة "رضى الله عنه". ولا مانع من هذه الإضافات شريطة أن يبين ذلك، ويحصرها بين أقواس، ويذكر في الهوامش أنها من عنده.

وأورد المترجم آيات قرآنية دون أن يحصرها بين أقواس، فاختلطت بكلامه! هذا في أول الترجمة، لكنه تدارك الأمر بعد ذلك. وكان عليه أن يضع أقواسًا حول كل الآيات القرآنية بدون استثناء لكنه لم يفعل.

ويضطرب نص الترجمة أحيانًا بحيث يستحيل فهم المراد منه! مثال ذلك فقرات فى الصفحات أرقام ٨، ٩، ٤٩، ٦٠، ٧٨، ١٢٢ .

وأضاف إلى ذلك سوء الترقيم وسوء التبويب مما جلب صعوبات كثيرة تعرقل الفهم السديد للنص. فهناك نقص فى علامات الترقيم، وهناك أخطاء فى استعمالها. وقد كثر الترقيم وتعددت الأرقام والرموز وتداخلت بصورة مربكة للقارئ العربى (انظر ص ١٣٤ مثلاً).

ولم يورد المترجم الأسماء الأجنبية بالحروف اللاتينية، ثم إنه لم يثبت -أحياناً- على صيغة عربية لرسمها، من ذلك مثلاً أنه كتب اسم المستشرق "سبير" بثلاث طرق، فكان: إسباير، وسابير، وسبير! (ص ٥٨، ص ١٢٩).

وبالإضافة إلى هذا هناك أخطاء مطبعية وإملائية وأسلوبية.

وقد اقترح المترجم مراجعة المصادر العربية الكبرى، مثل تفسير الطبرى "حتى لا تظل هذه الكتب بحالتها قاعدة ينطلق منها الطاعنون على الإسلام" .(ص ١٠).

لكنه لم يوضح كيف تكون تلك المراجعة، فإذا تذكرنا أن تلك الكتب طبعت ونشرت مرات عديدة، ونسخها موجودة فى معظم مكتبات العالم، وفى أيدى آلاف الأفراد، لأدركنا أن العمل الوحيد الممكن هو العناية بالتعليق والشرح والتمحيص الدقيق لما ورد بها من أخبار وآراء، وإبراز الحقائق وتوكيدها، وتزييف الزائف منها، ثم إعادة نشرها. يضاف إلى هذا مواجهة الطاعنين على الإسلام المواجهة العلمية الموضوعية الرصينة، كما فعل أستاذنا الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه موضوع العرض هنا.

لماذا ينتقد المستشرقون القرآن الكريم؟

يعتقد المستشرقون ان محمداً ﷺ هو الذى ألف القرآن، ولإثبات اعتقادهم هذا حاولوا اكتشاف أية أخطاء فى القرآن؛ كما حاولوا إثبات ان محمداً ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة، وأنه قرأ التوراة والإنجيل والمزامير، واستفاد منها فى تأليف القرآن!

وقد عرض الدكتور عبد الرحمن بدوى بالبحث لحوالى اثنتى عشرة مسالة، تمثل

أمهات المسائل لدى المستشرقين. وأثبت زيف آرائهم جميعًا. وأكد أن القرآن الكريم يخرج منتصراً عليهم في كل تلك المسائل. فلا وجود لتلك الأخطاء والاقتباسات الوهمية المزعومة.

(١) أمية النبي ﷺ :

بذل المستشرقون جهوداً مضنية لإثبات أن النبي ﷺ نقل عن التوراة والأناجيل والمزامير. ولابد أن يكون النبي عارفًا للقراءة والكتابة لكي يتيسر له النقل والاقتباس. فكان لابد من نفي الأمية عنه، تلك التي أثبتها القرآن الكريم في أكثر من آية. ويعلق الدكتور بدوي على آرائهم في هذه القضية فيقول إنه: "لكي نفترض صحة هذا الزعم لابد أن نفترض أن محمداً كان يعرف اللغات العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان يملك مكتبة عظيمة تشتمل على كل الأدب التلمودي والأناجيل المسيحية"، لكن محمداً لم يعرف سوى العربية، ويستحيل إثبات معرفته لأية لغة أخرى. وسيرة النبي ﷺ تؤكد أنه لم يقرأ ولم يكتب، وإلا لما أملى آيات التنزيل على كتبة الوحي.

فمزاعم المستشرقين حول أمية النبي ﷺ "فروض زائفة"، وتفسيراتهم خاطئة وسخيفة وعابثة ودعواهم كاذبة (ص ٢٢، ٢٣).

(٢) وقد حاول المستشرق "هيرشفيلد" عقد مقارنات بين "سورتي الرحمن والنحل"، و "المزامير" للعثور على أوجه شبه تسوغ له الزعم بأن محمداً نقل عن المزامير!

وبعد الدراسة الدقيقة ينتهي الدكتور بدوي إلى القول إن محاولات "هيرشفيلد" عبث وادعاء وهذيان مرضي! (ص ٣٠، ٣٣، ٣٦). وأن دراساته الثلاث "ليس لها قيمة، لأنها قائمة على أوجه شبه افتراضية، وعلى آراء مبتسرة، ومقدمات لا أساس لها، وتفتقر إلى الفهم افتقاراً كاملاً. وتعويضًا ومكافأة له عن تلك الصفات (غير العلمية)، أصبح هيرشفيلد أستاذاً بجامعة لندن سنة ١٩٢٤م". (ص ٣٨)

والدكتور بدوي يشير هنا إلى حقيقة معروفة ومخجلة، وهي أن كثيراً من

الجامعات الأوربية والأمريكية لا تفسح مجال التدريس فيها – فى أقسام الدراسات الشرقية – إلا لأمثال "هيرشفيلد" من المتعصبين ضد الإسلام.

(٣) وحاول "جانو" – أيضًا – افتعال أوجه شبه بين الآية رقم ٣٥ من سورة النور، وفقرة من كتاب زكريا "العهد القديم". وينفى الدكتور بدوى وجود أى تشابه بين النصين. ويقول إن تشابه "جانو": "هذيان اختلقه من خياله هو"، (ص٤١) فلا وجود لأى تشابه فى الحقيقة.

(٤) ثم ينتقل الدكتور بدوى إلى مناقشة مزاعم "هوروفيتس" (١٨٧٤–١٩٣١) بأن عبارة "أيام الله" التى وردت فى القرآن الكريم مقتبسة من التراث اليهودى. وبعد فحص مزاعم "هوروفيتس" يصفها بدوى بأنها زيغ وضلال، ويقول إن صاحبها كان دائمًا: "أستاذ هذا الضلال" (ص٤٣).

وقد حاول "هوروفيتس" إثبات أن النبى ﷺ اقتبس ألفاظًا عديدة من التراث اليهودى، (مثل ألفاظ: عبادة – صدقة – أمانة!)، ويعلق بدوى على هذا الهراء قائلاً: إن اللغتين العربية والعبرية لغتان ساميتان، ومن ثمة وجدت فيهما ألفاظ متشابهة عديدة: "ومن المستحيل أن نحدد من اقتبس تلك الألفاظ من الآخر: العربية أم العبرية؟"، وعلى هذا يقرر الدكتور بدوى أنه: "ليس من الممكن أن نقول إن محمداً ﷺ اقتبس هذه الألفاظ المشتركة مباشرة من يهود عصره" (ص٤٤). وهذا منطق سديد لا يمكن رفضه.

(٥) وحاول "هنرى سبير" إثبات أن الآيات التى وردت فى سورة الكهف (رقم ٣٢–٤٤) مقتبسة من "مدراش رابال اللاوى". ويعقد بدوى مقارنات مفصلة بين النصين تنفى وجود اقتباس، "فليست هناك علاقة مطلقًا بين التشبيه القرآنى – الذى ورد فى هذه الآيات الكريمات – وهذه المدراش، لا فى التعبير ولا فى المحتوى، ولا فى الفائدة التى نخرج بها منها"، (ص٥٤). ويرد بدوى مزاعم "سبير" إلى التعصب الذى أعمى قلبه، ويقول إن: "حالته مثل حالة "هيرشفيلد" تحتاج إلى علاج نفسى" (ص٥٥). و"إن دراساته عبث وعار على العلم" (ص٥٧).

وعلى المنوال نفسه، وللغرض غير العلمى ذاته، حاول نفر من المستشرقين إثبات

أن لفظ "الفرقان" الذى جاء فى التنزيل الحكيم مقتبس من لفظ "فرقانة" السريانى، أو الكلمة اليهودية الآرامية "فرقان"، ومعناها "الإنقاذ" فى المسيحية. ويعلق بدوى على هذه الادعاءات قائلاً: "إنها سخف لا تشهد بصحته أية وثيقة أو أى مصدر"، (ص٦٣) ويبين أن لفظ "الفرقان" لفظ عربى، وهو اسم فعل أو اسم مصدر من الفعل "فرق".

(٦) وقد خصص الدكتور بدوى الفصل الرابع لمناقشة خرافات المستشرق "مارجوليوث" (١٨٥٨-١٩٤٠م) الذى عاش طيلة حياته عدواً لدوداً للإسلام". ودفعه تعصبه البغيض إلى أن يسوق أحكاماً بالغة الغرابة هاجم بها النبى ﷺ وأنكر رسالته، كما يقول بدوى بحق (ص٦٦-٦٧). ومن أمثلة هذيان "مارجوليوث" زعمه أن لفظ "مسلم" يعنى واحداً من أتباع مسيلمة !! وأن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن معروفًا للعرب فى مكة قبل بعثة النبى ﷺ وذلك هو الزعم الذى أخذه عنه طه حسين، وأثار ضجة كبيرة.

ويعلق بدوى على كلام هذا المستشرق فيقول: "إنه لو كان يعرف حدًّا أدنى من اللغة العربية لعلم أن النسبة إلى "مسيلمة" هى "مسيلمى" وليس "مسلم"! ولكن تعصبه أعماه" (ص٦٧). وعن المسألة الثانية: يذكر بدوى أن العرب فى مكة وفى الجزيرة العربية عرفوا اليهود والنصارى واختلطوا بهم. وإذا كان إبراهيم -عليه السلام- معروفاً يقيناً لليهود والنصارى، فهو معروف لدى خلطائهم من العرب دون شك.

ومن آراء المستشرق "مارجوليوث" المضحكة زعمه أن صلاة المسلمين وصيامهم وتحريم الخمر، كل ذلك مرتبط بالتدريبات العسكرية!! وهذا هراء لا تصح مناقشته أصلاً !

(٧) وأما "جولد تسيهر" (١٨٥٠-١٩٢٠) فيزعم أن عقيدة التوحيد فى الإسلام مقتبسة عن اليهودية، وينفى بدوى هذا الزعم مبينًا أن الإله فى اليهودية هو إله عنصرى لليهود وحدهم دون سائر البشر، فى حين أن الله فى الإسلام هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وحاول "جولد تسيهر" إثبات أن صيام رمضان والقبلة وتزكية الذبائح مقتبسة عن اليهودية.

ويأخذ عليه بدوى هنا الافتقار إلى الأدلة والشواهد، الأمر الذى يجعل مزاعمه زائفة (ص٧٤–٨٠). والحق أنه بغير أدلة وشواهد ومصادر علمية موثوق بها لا يجوز لأحد أن يقول بمثل تلك الآراء. فإذا تجاسر وانتهك أصول المناهج العلمية، سقط من زمرة العلماء ولم تعد لآرائه أدنى قيمة.

(٨) وقد أثار "أسبرنجر" و"هوروفيتس" و"كارادى فو" مسألة الصابئين، الذين ذكروا فى القرآن الكريم، وزعموا أن النبى ﷺ قد عرفهم عن طريق اليهود. وقد وعد الله الصابئين الذين يؤمنون بالإسلام القبول والجزاء الحسن شأنهم شأن اليهود والنصارى، فقال – عز وجل – ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولا يهمنا نحن المسلمين أن تكون ثمة مشكلة تتعلق بعقيدة الصابئة قبل الإسلام.

(٩) ويناقش بعد ذلك آراء "فنسنك" الخيالية فى مسألة "رسل الله" حيث يدعى أن الفكرة مأخوذة عن اليهود والنصارى! (ص٩٠) ويبين الدكتور بدوى أن الرسل فى الإسلام غير الرسل فى المسيحية. فكلمة "الشالوهط – أى الرسول – العبرية تعنى: المُرسَل (بفتح السين) إلى شخص معين. والرسل فى الأناجيل مرسلون من لدن المسيح. أما فى الإسلام: "فالرسول هو من أرسله الله بدين جديد وكتاب مقدس معبر عن هذا الدين. والنبى مهمته البشارة والإنذار فحسب". وينتهى بدوى إلى القول بأنه: "من العبث أن نعقد مقارنة فى هذا الموضوع بين المسيحية والإسلام! والأكثر عبثًا أن نزعم أن الرسول ﷺ استعار مصطلح "الرسل" من المسيحية"، (ص٩٠–٩١).

(١٠) وأما "نولدكه" فزعم أن البسملة مقتبسة من الإنجيل، ويؤكد بدوى أن هذا الزعم لا يقوم على أى برهان أو دليل، ولا يوجد مصدر يشهد له بالصحة. فهو مجرد فرض زائف. ويقول: "عبثًا بحثت فى العهد القديم فلم أجد شيئًا عن صيغة "بسم ياهوا" كصيغة للصلاة ومناجاة الله كمعنى البسملة فى القرآن الكريم". وقد جاء فى سفر الملوك الأول: "ثم تتضرعون باسم آلهتكم، وأنا أدعو باسم الرب إلهى".

(طبعة كتاب الحياة) فلا يوجد أى تشابه، فالمسألة مجرد مزاعم كاذبة لا دليل عليها (ص٩٥-٩٦).

(١١) وبحث المستشرقون مسألة ترتيب سور القرآن الكريم بحسب نزولها. وكان علماء المسلمين قد اعتنوا بذلك لمعرفة الناسخ، والمنسوخ. والمنسوخ هو الذى تنزل سابقًا. والناسخ هو الذى نزل بعد، ولكن المستشرقين أرادوا اكتشاف "تطور" في أسلوب محمد مؤلف القرآن وغرضهم هو هو: أعنى إثبات أن القرآن تأليف بشرى لا تنزيل من حكيم حميد. فيقول بدوى: "إنه من الشطط، إن لم يكن من الكذب، أن نزعم أن باستطاعتنا ترتيب السور تاريخيًا – فى الفترة المكية – حسب الأسلوب". ولذلك باءت محاولاتهم بالفشل، ويؤكد بدوى أن القرآن قد رتب فى كتاب واحد هو – المصحف الإمام– فى عهد النبى ﷺ (ص١١٣)، وينفى أن يكون لأى مستشرق فضل فى عملية ترتيب السور حسب نزولها.

(١٢) والتقط المستشرقون مسألة الألفاظ الأعجمية فى القرآن الكريم، وهى التى أثارها بعض الصحابة، وأدلى فيها الأئمة الكبار بآرائهم. فعبد الله بن عباس أثبت وجود كلمات غير عربية فى القرآن الكريم، وكذلك أبو موسى الأشعرى. وهناك من ينفى وجود مثل تلك الألفاظ، كالإمام الشافعى. **ويأخذ بدوى بمذهب ابن عطية الذى يقول إن تلك الألفاظ ليست عربية لكن العرب عربوها واستخدموها فأصبحت عربية قبل نزول القرآن الكريم.**

أما المستشرقون فكان غرضهم إثبات أن محمداً قد اقتبس من التوراة والأناجيل والمزامير.. ...إلخ!!

(١٣) وظن المستشرقون أنهم اكتشفوا خطأ فى القرآن الكريم، فى سورة مريم، حيث ورد النداء ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وقد توهموا أنه يعنى أن مريم– عليها السلام – هى أخت هارون وموسى! وهذا خطأ كبير، والحق أنهم هم الذين تورطوا فى خطأ كشف عن جهلهم باللغة العربية!

ويقول الدكتور بدوى إن المشكلة لم تثر فى حياة النبى ﷺ لسبب يسير هو أن يهود المدينة ومسيحييها لم يروا فى الآية ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، أية مشكلة لأنهم

فهموا أنها تعنى: "يا منحدرة من نسل هارون"، كما كانوا يفهمون تعبيرات مثل: "يا أخا بنى فلان بمعنى "يا منحدر من سلالة فلان". ويستشهد الدكتور بدوى بوجود مثل هذا التعبير في القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، فهو لا يعنى الأخوة، وإنما الانتساب إلى القبيلة أو القوم أو الذرية، وهذه حقيقة أسلوبية عربية معروفة لكل من له إلمام باللغة العربية، ولكن التعصب أعمى أبصار المستشرقين.

(١٤) وفى الفصل الأخير من كتابه يعرض الدكتور بدوى لجزئية من قضية الاقتباس المزعوم، الا وهى قضية "هامان" الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم، وبما أن "هامان" ذكر فى التوراة فلابد أن يكون محمد قد اقتبسه عنها!

ويعلق الدكتور بدوى على مزاعم المستشرقين حول "هامان" فيقول: "إن هامان المذكور فى الآيات القرآنية الست ليس اسم شخص، ولكنه لقب للكاهن الأكبر لفرعون"، ويضيف قوله: "إن اسم هامان فى القرآن موافق لاسم "آمون"، والتقارب بين الاسمين كبير جداً، لأن "آمون" ينطق أيضاً "آمانا". وينتهى إلى القول إن "كل الانتقادات–التى وجهها المستشرقون إلى القرآن الكريم بخصوص هذه المسألة–فاسدة ومغرضة" (ص ١٧٩).

وهذا هو للأسف الشديد نوع المعرفة التى ينتجها بعض المستشرقين الأوربيين والأمريكيين فى حقل الدراسات الإسلامية والتى يغذون بها شعوبهم.

وهذه مناهجهم، وتلك هى أغراضهم، بعد أن عرّاها الدكتور بدوى. وبهذا الكتاب المهم تتبدد تلك الأسطورة التى صورت المستشرقين بوصفهم المثل الأعلى الذى ينبغى أن يحتذى فى كل مجالات البحث العلمى.

والحق أن المستشرقين يتحلون بالموضوعية، بل والتعاطف، حين يبحثون فى أية ملة غير الإسلام. أما حين يتناولون الإسلام ونبيه وكتابه وتاريخه، فإن التعصب الموروث يستولى على عقولهم ويطمس عليها، فينسون مناهج العلم الموضوعى، ويسلمون أنفسهم للأحكام المسبقة الباطلة التى رأينا منها فى كتاب الدكتور بدوى الكثير، والشنيع.

وزاد الطين بلة أن الغرب - بعد سقوط المعسكر الشيوعي- بدأ يتخذ من الإسلام عدواً! وبدأت كتابات عديدة تصور المسلمين على أنهم إرهابيون معادون للحضارة الغربية، كما تصور العالم الإسلامي على أنه مملكة الشر ومصدر التهديد لأمن القرن الحادى والعشرين (كما قال كلينتون يوم ١٤ / ١١ /١٩٩٧)، فى أزمة مفتشي الأسلحة الأمريكيين الذين طردهم العراق.

ولم تعد الأحكام المسبقة والضلالات والأوهام التى ينتجها العقل الاستشراقى محصورة فى المجال الأكاديمى، فقد تلقفها الإعلام الجهنمي وأخذ ينشرها على أوسع نطاق، وتسرب الكثير منها أيضًا إلى المناهج الدراسية فى معظم البلاد الأوربية. وبهذا يربون الأجيال الجديدة على كراهية المسلمين، ويعدونهم لقبول أية قرارات بحصار الشعوب المسلمة، (كما هو الحال الآن مع السودان وأفغانستان وفلسطين)، والموافقة على أية تدخلات عسكرية "لحماية أمن القرن الحادى والعشرين".

• فماذا نحن فاعلون؟ إننا نسمع عن تحركات للتصدى لهذا الخطر تقوم بها جهات حكومية مصرية وعربية، ولكن المسألة تحتاج إلى تعبئة عامة: أكاديمية وإعلامية وثقافية، ودبلوماسية وسياسية. ولا جدوى من مؤتمرات الحوار التى ينظمها الموظفون، ولا تخطط لأى عمل جاد مؤثر.

ولا ريب عندى أن كتاب الدكتور بدوى له من الآثار ما يفوق كل المؤتمرات التى عقدت فى السنوات العشر الأخيرة. ولو كان الأمر بيدى لنشرته بكل لغات العالم، ووزعته مجانًا فى أوربا وأمريكا، خدمة للإسلام والقرآن والمعرفة الصحيحة.

* * *

فـؤاد زكـريـا

حقيقة انتمائه:

أجرى أحد المحررين الصحافيين حديثًا مع الدكتور فؤاد زكريا نشرته إحدى الصحف المصرية يوم ٨/ ١٢/ ١٩٨٨م، وقدم له بإيجاز فقال إنه: "لا ينتمى إلى تيار، ومن الصعب وضعه فى قالب فكرى محدد. فهو فى كل ما يقول ويكتب مفكر مستقل... "إلخ.

ولا ريب أن "المفكر المستقل" امنية وطنية وقومية نرتجيها جميعًا. لكن موقف الدكتور فؤاد زكريا للأسف الشديد هو على النقيض مما جاء فى تقديم الأستاذ المحرر!! ولقد بين الدكتور فؤاد بوضوح كبير انتماءاته الفكرية الحاسمة منذ الخمسينيات. فهو فى مقالاته ومحاضراته وبحوثه وكتبه يلتزم "اليسار"، ويؤكد اقتناعه بالتفسير المادى الاقتصادى الماركسى للفكر والثقافة والدين والقيم، وينافح بكل قوة عن الاشتراكية "المكتملة النمو" - أى الشيوعية - بوصفها الحل الأمثل لمشكلات مصر والعالم الثالث... ولذلك هو يقاتل كل فكر وكل دين، وكل ثقافة تعادى هذه الانتماءات!! ونحن نحاول فى السطور التالية أن نبين هذه الحقائق، مستندين إلى أقواله، وفى إيجاز أيضًا.

(١) الانتماء إلى اليسار:

إن الدكتور فؤاد زكريا يصنف الفلسفات الإنسانية إلى: "فلسفة يمينية" و"فلسفة يسارية"، وهو يصف الفلسفة اليمينية بالتعقيد والعُقم... فهى فى نظره لا تحقق شيئًا، ولا ترتبط بالمشكلات الحقيقية التى تواجهها الجموع الكبيرة من البشر فى حياتها الفعلية، ولا تسهم بأى دور فى تحقيق رغبة الإنسان الدائمة فى تغيير المجتمع المحيط به، والثورة على أى وضع ظالم يجد فيه نفسه... ومن المؤكد أن المذاهب اليسارية - هى وحدها - التى تتصدى لتحقيق هذه الغاية. [١]

---

(١) راجع كتابه: آراء نقدية؛ ص ٢٢٢، ٢٢٥.

ففى الفلسفة اليمينية: التعقيد، والعقم. وفى الفلسفة اليسارية: البساطة، والالتصاق بمشكلات الإنسان، والإسهام في القضاء على الظلم، والثورة عليه. ومن الواضح أن الإنسان الذى يقول هذا لابد أن يكون يساريًا. وهذا هو انتماء الدكتور فؤاد زكريا، وهو لا ينفيه عن نفسه. بل يعتز بذلك، ويجاهر به فى كل مكان!

(٢) الانتماء إلى الماركسية:

ويتأكد الانتماء الأول بالانتماء الثانى إلى "الماركسية"، وهى فلسفة مادية باتفاق الجميع، ومن أهم أصولها الزعم بأن التطور الآلى فى وسائل الإنتاج يفسر سائر مناحى الحياة. فيقول الدكتور فؤاد زكريا: "كل مظاهر التقدم فى حياة الإنسان الحديث – وحين نقول التقدم نعنى الثقافي والمادى منه فى آن واحد – لها ارتباط وثيق بالتطور الآلى فى حياته".[١] ثم يتبع هذا الحكم الكلى بحكم آخر أشد منه تطرفًا فيقول: **"إن كل مشاكل العصر تدور حول هذا المحور الواحد".**[٢]

وهذه هى وجهة النظر "الأحادية" الضيقة فى صورتها المتطرفة.. فهناك عامل واحد بعينه..هو العامل الأول، والوحيد، المؤثر فى كل ما عداه..هو العامل المادى، الآلى الذى سماه هو "المحور الواحد".. وهذه هى وجهة النظر الماركسية الشهيرة التى يتبناها الدكتور فؤاد!

وتغير شكل الإنتاج هو الذى أدى إلى التحول من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالى.

وكان من الطبيعى أن ينعكس تأثير هذه التغيرات الحاسمة على العادات العقلية، والنزعات الفكرية للإنسان فى العصر الرأسمالى.."[٣] فالاقتصاد هو الذى غيّر الفكر والعقل فى العصر الرأسمالى وشكّله!

والدين ذاته يتطور تبعًا لذلك "المحور الواحد". فتغير وسائل الإنتاج غيّر الدين المسيحى.

بل كان لابد للدين أن يتأثر بها، وأن يتلاءم مع الظروف الجديدة التى طرأت

---

(١) راجع كتابه: الإنسان والحضارة؛ ص ١٢٩

(٢) الموضع نفسه.

(٣) راجع كتابه: الجوانب الفكرية ؛ ص ٢٩ .

على حياة الأوربيين. . .وإذن فقد كان لابد أن يحدث انقلاب فى ميدان الدين يوازى الانقلاب في الميدان الاقتصادى والعلمي والفنى" .[١] وهو يفسر الإصلاح الدينى لدى "لوثر" على أنه: "من مظاهر حاجة الرأسمالية فى بداية نشأتها إلى عمال يمكن استغلالهم اقتصاديا على أساس من العقيدة" .[٢]

حتى التعصب، لم يعجبه إلا تفسير الماركسية له!![٣]

وبالمثل يفسر نهضة الفلسفة اليونانية على أيدى سقراط وأفلاطون وأرسطو بردها إلى العوامل الاقتصادية. "ومعنى ذلك أن النهضة العقلية والروحية فى اليونان القديمة كانت مرتبطة بالنهوض الاقتصادى الشامل" .[٤]

وأحسب أن هذا القدر يكفى لبيان انتمائه الثانى بوضوح. .فهو يتابع فروض الفلسفة الماركسية المادية التى أرادت أن تفسر كل شىء برده إلى الاقتصاد، ووسائل الإنتاج. وهو قد حشر نفسه برضاه، بل بحماس شديد داخل القوالب الضيقة الجامدة للماركسية وتفسيرها المادى الاقتصادى الأحادى لكل الظواهر المادية والاجتماعية. فكيف يجوز أن يقال إنه مستقل الفكر، ولا ينتمى إلى تيار، ومن الصعب وضعه فى قالب فكرى؟

(٣) الانتماء إلى الاشتراكية الشيوعية:

إذن، ينتمى الدكتور فؤاد بوضوح قاطع إلى الاشتراكية الكاملة. .أى الشيوعية. . وهو يرفض الاشتراكية "المعتدلة" التى طبقها عبد الناصر. وهو بهذا يؤكد انتماءه الأول ثم الثانى ويشرحهما. وفى هذا يقول: "إن حل المشكلات التى أسفرت عنها التطبيقات الاشتراكية فى العالم الثالث، وفى مقدمتها مصر، لن يكون بالالتجاء إلى أنصاف الحلول. بل بمزيد من الإصرار على السير فى الطريق الاشتراكى والتمسك به. وإذا كان من الشائع أن يقال إن الاشتراكية الوحيدة التى تصلح لبلاد العالم الثالث هى "الاشتراكية المعتدلة" فإن حالة التخلف التى تعانيها هذه البلاد تدعونا إلى التفكير مليًا قبل إصدار حكم كهذا. إذ أن "الاعتدال "إذا كان صفة مستحبة فى أمور

---

(١) انظر كتابه: الجوانب الفكرية؛ ص ٧٦، ٧٧ .
(٢) نفسه؛ ص ٣٤ .
(٣) انظر كتابه: آراء نقدية : ص ٥٤ .
(٤) نفسه؛ ص ١٢ .

كثيرة فإنه ليس بالشيء المرغوب فيه عندما يكون الأمر متعلقاً بمسيرة المجتمع نحو التقدم ونحو اللحاق بركب الحضارة العالمية" .(١)

فهو لا يوافق على الاشتراكية "المعتدلة" أو أنصاف الحلول! والحل الكامل فى نظره هو الاشتراكية غير المعتدلة . .أى الشيوعية!! فهى التى تضمن لنا التقدم واللحاق بركب الحضارة العالمية. وهو يتجنب لفظ "الشيوعية" لبشاعة وقعه على أسماع المصريين، ويعمد دائمًا إلى استعمال لفظ " الاشتراكية " ، ويعنى بها الشيوعية، وأحيانًا يستخدم عبارة "الاشتراكية المكتملة التحقيق" .(٢)

وقد أعلن الدكتور سنة ١٩٧١م أن المرحلة التالية فى تطورنا الاجتماعى: "نريدها أن تكون اشتراكية" .(٣) وقال: "إن الاشتراكية هى فى واقع الأمر نقطة بداية لتطورات هائلة لابد أن تتلوها.(٤) وقال أيضًا: "إن الانتماء إلى الاشتراكية على التحديد قد أثبت فى حالات كثيرة أنه هو الحل الأمثل لمشكلة التخلف بالنسبة إلى هذه المجتمعات" .(٥)

فهل ثمة دليل أوضح وأصرح من كلام الرجل نفسه عن انتمائه الحميم إلى "الاشتراكية المكتملة التحقيق" ، وعدم رضاه عن" الاشتراكية المعتدلة" ، وعن إيمانه الراسخ بأنها هى الحل الأمثل لتخلفنا؟! وهل يبقى بعد هذا أى مجال للتشكيك فى انتمائه وتبعيته للماركسية ونظامها الشيوعى؟! ولماذا ننفى عنه أشياء يحرص هو نفسه على إثباتها لنفسه؟!

وكما أن انتماءات الدكتور فؤاد مؤكدة فإن عداواته الفكرية مؤكدة بالقدر نفسه. فهو يقف فى جانب الرفض الصارم القاطع لكل الفلسفات العقلية والمثالية والدينية التى تقول بوجود أى كائن غير المادة، أو تساند الإيمان بالله من قريب أو بعيد. فهى عنده فلسفة يمينية رجعية. .جامدة متحجرة. . لاهوتية عقيم!! (فى سلسة طويلة من أمثال هذه الأوصاف الرديئة).

وإعجاب الدكتور فؤاد يستحوذ عليه الفلاسفة الماديون والملاحدة وحدهم، كما

---

(١) آراء نقدية؛ ص ١٥٠ .
(٢) نفسه؛ ص ١٢٣ .
(٣) نفسه؛ ص ٢٤ .
(٤) نفسه؛ ص ١٠١ .
(٥) نفسه؛ ص ١٥٤ .

أن لعناته تنصب على من تسول له نفسه إبداء أى قدر من التعاطف مع الإيمان بالله وبالملائكة والروح.. اللهم إلا الروح الشيوعية التى يتميز بها الكوبيون والفيتناميون والسوفيت!!

عداءً للإسلاميين لا حبًا فى الديموقراطيين:

وموقف الدكتور فؤاد زكريا من الحريات والديموقراطية يتغير ويتلون، وينقلب من الضد إلى الضد! فإذا شعر بأن الديموقراطية يمكن أن تتيح للإسلاميين الظهور، هاجمها بضراوة، وأيد الاستبداد والبطش، وفلسف مواقف العسكر، وروج لها فى كتبه ومقالاته!

فعندما أخذ الرئيس السادات يتحدث عن الحريات سنة ١٩٧٢، بعد طرد المجموعة الناصرية الماركسية من رفاق الدكتور فؤاد، حاضر طلابه فى الجامعة مؤيداً النظام الناصرى الشمولى العسكرى، وهاجم النظام الليبرالى الرأسمالى الذى أخذ يطل على مصر من جديد، وقال إن النظام الاشتراكى: "يحاول أن يكفل للإنسان حرية حقيقية، تنبع من الجذور، لا حرية تطفو على السطح. وهو حين لا يترك لشخص واحد أو مجموعة من الأشخاص حرية التحكم فى وسائل الإنتاج (بالتأميم والمصادرة الشيوعية) يضمن بذلك تحرر الجماهير العريضة من طغيان رأس المال ويرسى الأساس الحقيقى لسائر أنواع الحريات".(١)

ثم يشن حملة ضارية على الحريات الليبرالية ويصفها بأبغض الأوصاف فيقول إنها: "مؤذية لمعظم طبقات المجتمع"! وحرية تكوين الأحزاب فى الدول الغربية الكبرى: "أشبه ما تكون بلعبة مسلية تتغير فيها الوجوه دون أن يطرأ على السياسة ذاتها أى تغيير"!(٢)

فهذا موقف واضح تمام الوضوح لكاتب شيوعى مؤيد كل التأييد للنظام الاستبدادى الطاغوتى الذى كان سائداً فى الشرق الشيوعى وفى مصر والدول التى كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى البائد.

---

(١) الجوانب الفكرية؛ ص ٥٩.

(٢) نفسه؛ ص ٥٧ - ٥٨ (وانظر كتابى: أساطير المعاصرين؛ نشر دار الحكمة، سنة ١٤٠٩هـ؛ ص ١٠٦ - ١١٣).

وفي يوم ٢٨ / ١٠ / ١٩٩٥ نشرت جريدة الأهرام مقالاً للدكتور فؤاد يطالب فيه بإصدار قانون يحمي الديموقراطية من الإسلاميين الذين يمكن أن يفوزوا بالأغلبية فى الانتخابات البرلمانية التى كانت توشك أن تجرى فى مصر، كما فاز أقرانهم فى الجزائر، ولولا تحالف العسكر مع الغرب الاستعمارى لإسقاطهم، لصارت الجزائر دولة إسلامية بحق! فهو يخشى "احتمال" استبداد الإسلاميين، لكنه يرحب ويؤيد من كل قلبه استبداد العسكر الاشتراكيين فى العهد الناصرى وفى الجزائر ! فلا اعتبار عنده للحريات ، بل العداء للإسلاميين. فإذا كان النظام ضد الإسلاميين فهو معه، سواء كان استبداديًا أو عسكريًا. وهو ضد أى نظام يهادن الإسلاميين أو يسمح لهم بحرية العمل والتفكير والتجمع. فهو ليبرالى زائف بكل ما فى الكلمة من معنى!

وفى مقاله المشار إليه يطالب بأشياء مستحيلة. منها تأبيد الدستور الحالى خشية تعديله إذا فاز الإسلاميون! ومعروف أن الدساتير فى العالم أجمع يمكن أن تتغير وتتعدل بآلية دستورية معينة. وقد تم تعديل الدساتير الأوربية عشرات المرات، وكذلك الدستور الأمريكى.

وأسخف ما يطالب بتجريمه: "إقحام الدين فى الشعارات الانتخابية" . وهذا مطلب مستحيل لأن الشعب المصرى شعب مسلم، والدستور المصرى ينص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام. وهذا الدستور هو ما يطالب فؤاد زكريا بتأبيده!! وفى غمرة حماسه لهذا القانون – الذى لم يصدر،ولن يصدر، وإذا صدر لن يلق أدنى احترام!–يزعم بأن من يرفع شعارات دينية يدّع أنه "هو ممثل الإسلام" ! ولم يحدث قط أن زعم مرشح أنه "يمثل الإسلام " ؛ والحاصل أن جماعة الإخوان المسلمين ترفع شعار "الإسلام هو الحل"– يعنى أن تطبيق الإسلام تطبيقًا كاملاً – كفيل بحل المشكلات التى خلّفها النظام الاشتراكى، وهو ما يثير الذعر لدى فؤاد زكريا ورفاقه الشيوعيين والاشتراكيين.

ومن المثير للسخرية أن فؤاد زكريا حاول تسويغ موقفه بالقول إن: "طبيعة المبادئ الدينية لا تناقش ولا تقبل النقد والاعتراض. فإذا سُمح لأحد برفع شعارات دينية، فسوف تتعرض تلك المبادئ للنقد والاعتراض. فهو حريص على المبادئ الدينية أن تظل مصونة، كما انه حريص على صَوْن الديموقراطية! وتلك آراء تنم عن عجز تام

عن فهم الإسلام! فالمبادئ الدينية نُوقشت، واعترض المخالفون عليها أشد الاعتراضات، وتعرضت للنقد والرفض منذ أن ظهر الإسلام وإلى الآن. وقد سجل القرآن الكريم اعتراضات المشركين العرب بكل أمانة ودقة. من ذلك قولهم الذى أورده القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (سورة ص: ٥). فهم ينكرون مبدأ التوحيد الإسلامى نفسه! وهو المبدأ الذى ينكره الشيوعيون المعاصرون، رفاق الدكتور زكريا فى الداخل وأساتذته فى الخارج! بل هم ينكرون وجود الله - جل جلاله - فى حين أنكر المشركون الجاهليون توحيد الإله وآمنوا بآلهة عديدة، ومن ثمة كانوا خيراً من الشيوعيون والماديين المعاصرين!

و الشيوعيون والعلمانيون عامة ينكرون أن تكون للدين الإسلامى صلة بالحياة البشرية، العقلية والفكرية والتشريعية والأخلاقية. ولم يكفّوا عن الاعتراض على المطالبة بتطبيق الشريعة، ووصف الإسلام بالماضوية والظلامية والتخلف والتحجر، كما سبق أن رأينا فيما أوردناه من آراء زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا، وما سوف نورده من آراء غيرهما.

ثم إن نقد المبادئ الدينية لا يضيرها بشىء، وإنما يكشف عن قوتها وسلامتها وعن زيف المبادئ المخالفة لها. فزعم فؤاد زكريا بانه بقانونه المقترح ييسر للإسلاميين الحفاظ على قدسية مبادئهم هو زعم باطل. نحن نريد أن ننازل المبادئ المخالفة للإسلام فى حوار أكاديمى جاد. لكنهم يفرون من المعركة ويحتمون بالعسكر الانقلابيين الذين يكممون أفواه الإسلاميين، ليخلو الجو الثقافي والتربوى والإعلامى لأمثال فؤاد زكريا وحسن حنفى ومحمود أمين العالم وحسين أحمد أمين ورفعت السعيد وبقية الطغمة الشيوعية والعلمانية. فإذا خففت حكومة ما تلك القيود، وجاءت الانتخابات، وترددت أصوات الإسلاميين فى الأجواء، أصيب فؤاد زكريا وأقرانه بالذعر، وهبوا ينادون بحماية الديموقراطية بقوانين من قبيل قانون الدكتور فؤاد زكريا!!

موقفه من قضية العفة الجنسية:

إن قضية العفة الجنسية هى إحدى المشكلات الكبرى بيننا وبين أوروبا وأمريكا. وهى مثارة بقوة على المستوى العالمى كما حدث فى مؤتمر بكين، بعد أن "طُرحت فى مؤتمر السكان بالقاهرة. وهناك قوى جبارة تسعى إلى استصدار توصيات تبيح الزنا

واللواط والسحاق، وكل الممارسات الجنسية خارج إطار الزواج. وهنا قد نتساءل: هل ستفرض علينا هذه التوصيات؟ وكيف؟ وماموقف الدكتور فؤاد من ذلك؟

وجوابًا على هذا السؤال أقول: إن تلك التوصيات لن تفرض علينا بالقوة غداً أو بعد غد، وإنما ستبذل جهود متواصلة لإعداد شعوبنا المسلمة لنبذ العفة الجنسية أولا، ثم يجيء التشريع بعد ذلك ليقنن الواقع. وفى هذه الأثناء، سوف تستخدم الوثائق الدولية، ومنها توصيات بكين، للتنديد بالإسلام، وأخلاقيات العفة، والزواج التقليدى. ولأن أوربا استباحت الزنا منذ أمد بعيد، فإن المعجبين بها من أبناء المسلمين لم يدخروا وسعاً فى نقد العفة الجنسية والشريعة الإسلامية التى تفرضها. وسوف أعرض هنا لآراء الدكتور فؤاد زكريا، وأناقشها بموضوعية، لنرى كيف جرت المحاولات لإعداد جيل من أبنائنا يقبل التخلى عنها، وإحلال "الانفلات" محلها!

ويعيب الدكتور فؤاد زكريا على المجتمع المسلم نظرته إلى الأخلاق التى: "تجعل للسلوك الجنسى مكانة رئيسية! إن هذا السلوك فى نظر الإنسان المسلم – العادى – يكاد يكون مرادفًا للأخلاق. فالأخلاق الصحيحة – تعنى قبل كل شىء – "العفة الجنسية" . وهو يريد من رجل الدين أن يدع قضية العفة جانباً، أو يقلل من اهتمامه بها" . و"أن يتخذ مواقف واضحة فى أمور مثل استغلال النفوذ والمضاربة والتهرب من الضرائب، وجمع الثروات الفاحشة بلا مجهود؛ وهو يسمى هذه الأمور "الجانب الاجتماعى العام" من سلوك الناس" .(١)

ولكن الدكتور فؤاد لم يذكر لنا كيف عرف أن المجتمع المسلم ينظر تلك النظرة إلى السلوك الجنسى!

فهو لم يجر بحثًا علميًّا يؤيد دعواه. ولا نقل عن عالم شيئاً يؤيدها. وكان عليه أن يجرى "استبانة" علمية منهجية أو يستشهد بنتائج "استبانة" أجراها غيره، لكنه لم يفعل!

وعلى هذا يفقد كلامه كل قيمة علمية. ولا يشفع له لقبه العلمى، ولا مركزه الجامعى؛ بل هما يضاعفان من مسؤليته، ويعظمان إدانته!

---

(١) راجع كتابه: الصحوة الإسلامية؛ ص ١٤٤ .

إن الدكتور فؤاد زكريا بهذا الكلام الطائش لا يعبر إلا عن هوى نفسه وخصام قلبه لكل ما هو إسلامى، لا عن علم ولا معرفة!

والخطيئة العلمية الثانية فى كلام الدكتور فؤاد هى توهمه أن "المجتمع الإسلامى" هو الذى يقرر نظرته إلى السلوك الجنسى! كأن المجتمع الإسلامى مجتمع علمانى يسير فى نظراته بحسب شهواته! إن المجتمع المسلم، كما يعلم الصغير والكبير، ملتزم بحكم دينه، بنظرة شرعية، إلى السلوك الجنسى وعلاقة الذكر والأنثى بعامة - نظرة يفرضها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة؛ وليس بوسع المجتمع كله ولا أى فرد من أفراده أن يغير شيئًا فى هذه النظرة. فالزواج بشروطه الشرعية هو الطريق الوحيد لاتصال الرجال والنساء؛ والقرآن هو الذى حرّم النظرة، وأمر بغض البصر.

والنبى الكريم ﷺ هو الذى نهى عن الخلوة بين الرجل والمرأة الغريبة، وهو الذى نهى عن الاختلاط السائب، وشرع الإسلام شرائع لزينة النساء وملابسهن؛ إلى آخر ما هو معروف من هذه الشرائع العظيمة الثابتة.

وهذا الثبات المطلق لشرائع الإسلام هو الذى حاول الدكتور فؤاد أن ينكره ناقلاً - دون تحوير - كلام المستشرق المشهور "جرينباوم" الذى زعم أن الإسلام يمكن أن "يساير أى نظام، وأن يتشكل بحسب رغبة المجتمع، أو شهوة الحاكم"! وهنا نواجه جانبًا من شريعتنا الخالدة، يُظهر بكل وضوح سقوط هذا النقد المجهول الذى تقيأه مستشرق موتور، وردده الدكتور فؤاد دون وعى أو تمحيص، ظانًا أنه به يوجه نقداً للإسلام لا نقض له! فهو كلام مستشرق كبير، هو عند الدكتور فؤاد فوق الخطأ والنقد؟!

ثم وجه الدكتور فؤاد علماء الإسلام الوجهة الاجتماعية الصائبة التى يرى هو أنها أجدر من أخلاقيات العفة بالاهتمام! وهى أمور اقتصادية، ومظاهر فساد فى المجتمع العلمانى، ويبدو أن الدكتور فؤاد يجهل شريعة الإسلام وأخلاقياته التى توجه العلماء والتى تُدين غصب الأموال وسرقتها، بالمخاتلة، أو بالقوة أو التاميم والمصادرة الظالمة. ولو عرف حرص الإسلام على تنقية الأموال من الحرام، وإنفاقها فى الحلال لانعقد لسانه دهشة! وليس هذا فحسب، وإنما هناك الواجبات الإيجابية التى تفرض ضروبًا من البذل والعطاء والتضحية للقضاء على كل مظاهر العوز والحاجة !

وأخلاق الإسلام كلها تقوم على العطاء بلا مقابل ولا يجوز وصف عمل بأنه أخلاقي إلا إذا اتسم بهذه الخاصية الجوهرية (أعنى أن يكون نوعاً من العطاء بلا مقابل).

وما العفة الجنسية إلا فضيلة "سالبة"، أو هى فضيلة صيانة للنفس وكف للشهوات؛ وموقعها على سلم القيم الأخلاقية متواضع جداً. وهذه المبادئ هى التى تحدد واجبات العلماء لا الدكتور فؤاد!

إن الدكتور فؤاد كاتب ماركسى، آمن بالشيوعية، ودعا إلى الاشتراكية على مضض، فى العهد الاشتراكى، على أمل أن تتطور الأمور إلى إعلان الشيوعية فى مصر. وهل مصر أقل من اليمن الجنوبى – وقتها – الذى طبق الشيوعية فى الجزيرة العربية مهد الإسلام وقاعدته الأساسية؟ لكن الأمور سارت فى وجهة لم يكن يشتهيها، فاندثرت الشيوعية، وطمست معالمها، حتى فى الصين التى مازالت تتمسك نظريًا بالشيوعية، وتطبق الرأسمالية فى الواقع. وانتهت الشيوعية فى اليمن إلى مصير أليم.

ولهذا كان الدكتور فؤاد حريصًا جدًا على حقوق "البروليتاريا" !وعلى التصدى للمستغلين من أصحاب الأعمال؛ ويريد من علماء الإسلام أن يُدينوهم بالقوة نفسها التى يُدينون بها الزناة، وأن يكافحوا التاجر الذى يُضارب فى أقوات الناس بقوة لا تقل عن مكافحتهم لملابس المرأة القصيرة.(١)

ولا ريب أن من واجب العلماء أن يدينوا المظالم الاجتماعية كلها وأن يقاوموها؛ فالظلم محرم تحريمًا باتًا فى الإسلام، ولا يجوز اقترافه فى أية ظروف استثنائية؛ والعلماء مطالبون بمقاومته وإدانته؛ وهم يقومون بهذا الواجب كل بحسب إمكاناته، ولا يمكن أن ننكر دورهم الفعّال فى إقامة العدل الذى أرسل الله تعالى رسله لإقامته.

وفى ذلك يقول جل جلاله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وتقصير بعضهم فى هذا الواجب

---

(١) انظر كتابه: الصحوة الإسلامية: ص ١٤٥ .

خطا؛ لكنه لا يسوغ إنكار جهادهم التاريخى، فى كل العصور، ضد الظلمة والفاسدين. والإسلام هو الذى يوجب عليهم ذلك، لا كلمات الدكتور فؤاد.

أما شدة إدانة الزنا، وإدانة كل انتهاك للتدابير الوقائية ضده، فترجع أساساً إلى شدة إدانة الكتاب والسنة له؛ وهذا هو ما يبدو أن الدكتور فؤاد يجهله كلية. وبالإضافة إلى ذلك، اشتدت إدانة المسلمين للزنا فى مواجهة استباحة العلمانيين له، ودعوتهم المتواصلة لتهديم التدابير الوقائية كالاحتشام، وتحريم الخلوة؛ ولقد بلغت استباحتهم حد الفجور حين أعلن الدكتور حسن حنفى، توأم الدكتور فؤاد، أنه يحسد الأوربيين على ما عندهم من الحريات الجنسية! هذه الاستباحة أشعلت المقاومة الإسلامية، صيانة للمجتمع من التردى فى مهاوى الاستباحة، كما حدث فى أوربا وأمريكا؛ وصيانة للأمة من نتائج الاستباحة التى يجأر الأوربيون والأمريكيون بالشكوى منها؛ فهى التى نشرت "الإيدز" (طاعون العصر). وهى التى فرّخت الملايين من أبناء السفاح؛ ومن هؤلاء خرج الألوف من عتاة المجرمين! وهذه الاستباحة هى التى تهدد مكانة أمريكا القيادية فى العالم اليوم، كما يبين ذلك بوضوح "برجنسكى" مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى الأسبق فى كتابه "الانفلات".

هذه الحقائق الثابتة تبدو غائبة عن الدكتور فؤاد، وتوأمه حسن حنفى، حين كتبا عن العفة الجنسية. فيقول الدكتور فؤاد – مثلاً –: "إن الجنس بطبيعته فردى، لا يؤثر إلا فى فرد بعينه من حيث علاقته بفرد آخر، أو بمجموعة ضيقة من الأفراد".[1] وهذا الكلام خطأ جسيم ويكفى أن نتذكر أن أعداد أبناء السفاح تصاعدت فى المجتمعات المتحللة من قواعد الزواج والعفة، حتى بلغت أكثر من خمسين فى المائة من المواليد!! وهؤلاء الأولاد البؤساء يحرمون من حياة الأسرة الحاضنة الطبيعية، ومن دفء العواطف الأبوية، وربما من عواطف الأمومة أيضاً، حين تقذف الأم بوليدها فى مؤسسة ما لرعايته. فمعظم حقوق الطفل تقريباً يحرم منها أولئك المنكوبون. ويكفى أن نتذكر أن العلاقات الإباحية هى السبب فى انتشار مرض الإيدز بنسبة ٨٣٪! أفبعد هذا يمكن أن نقبل زعماً يقول إن الجنس بطبيعته فردى لا يؤثر إلا فى فرد كما قال الدكتور فؤاد؟!

---

(١) راجع كتابه: آراء نقدية؛ ص ١٧٧.

إن شدة إدانة الإسلام للزنا بوصفه فاحشة، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢) معجزة إسلامية بحق، وشدة العلماء فى مقاومته واجب وفرض، خصوصاً فى مواجهة العلمانيين الذين يروجون للاستباحة الجنسية الانحلالية، والعلماء المسلمون يقدمون لشعوبنا المسلمة - عمالاً وفلاحين وأصحاب أعمال ومهنيين وحكامًا - أعظم خدمة، وحماية، وصيانة، ضد الفحشاء وسبيلها السيئ، ونتائجها المدمرة. وهذا للأسف لم يخطر ببال الدكتور فؤاد، حين تناول قضية العفة الجنسية فى المجتمع المسلم من وجهة نظره العلمانية.

وأما الحرص على حقوق الطبقة العاملة فشأننا نحن المسلمين لا شأن الشيوعيين الذين أذاقوا الطبقات العاملة أقسى مرارات الحرمان والظلم والبطش والكبت، حتى انهارت مجتمعاتهم فوق رؤوسهم. وكان حظ الأموات الذاهبين خيراً من حظ الأحياء الباقين.

كيف يفسر الدكتور فؤاد اهتمام المسلمين بالعفة الجنسية ؟

إنه ينتقد هذا الاهتمام، كما ذكرنا، ويرفض شريعة الحجاب، وشريعة منع الخلوة، وفصل الطلبة عن الطالبات فى المدارس والجامعات، ويقرر أن الاهتمام بهذه: "الأمور الشكلية" أمر غير مفهوم.[1] ثم يفسر الموقف الإسلامى بقوله: "من المؤكد أن أى محلل نفسانى قادر على أن يكتشف الكثير من العقد وراء هذا التصور المبالغ فيه لدور الجنس فى حياة الإنسان".[2]

فالرجل لا يفهم لماذا الحجاب، لأنه لم يعلم أن القرآن الكريم يفرضه بقول الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١) ويجهل أن رسول الله ﷺ قد نهى عن خلوة المرأة المسلمة بأى رجل أجنبى عنها، أى ليس بمحرم، فى أكثر من حديث صحيح. ولو علم بهذه الشرائع الإسلامية، لما قال إنها غير مفهومة، أو أنها أمور شكلية. ولن نعيد هنا ما ذكرناه عن أهمية وحيوية العفة

---

(١) الصحوة الإسلامية؛ ص ٢٠ . (٢) نفسه؛ ص ٢١ .

الجنسية، وكل التدابير الوقائية التى شرعها الإسلام حتى لا يقترب المسلم من الزنا مجرد اقتراب.

غير أن وصفه للشريعة الإسلامية بأنها تعبير عن "عقد نفسية" يستحق وقفة متانية. وأول ما نلاحظه فى كلام الدكتور فؤاد هو نزعته غير العلمية إلى التوكيد والقطع فى أحكام لا تحتمل ذلك. فهو يبدأ جملته بقوله: "من المؤكد"! وماذا يؤكد؟.. إنه يؤكد احتمال أن أى محلل نفسانى قادر على أن يكشف الكثير من "العقد"! فهو نفسه لم يكشف شيئًا، ولم يبحث فى شىء، ولا هو وصل إلى ظن ولا يقين. وهو لم يلجأ إلى محلل نفسانى، ولم يقتبس رأى محلل نفسانى فى المسألة. فما الذى يؤكده إذن؟! لا شىء فى الحقيقة سوى هوى فى نفسه وتحيزاته غير العلمية.

ومصطلح "العقد" مصطلح نفسانى، و الدكتور فؤاد يوهم القارئ أنه يستخدمه فى موضعه الصحيح، فى حين أنه يستعمله استعمالاً طائشًا، كاستعمال العوام! إن لفظ "عقدة" هو من مخلفات "فرويد" ومدرسته السيكولوجية، مدرسة التحليل النفسى. وقد كان "فرويد" يستعمله فى وصف المرض النفسى لمريض فرد ولم ينتقل به من المستوى الفردى إلى مجالات العلوم الاجتماعية لتطبيقه على المستوى الجمعى. لكن الدكتور فؤاد يعتبر الأمة المسلمة المتدينة شخصًا عُصابيًا واحداً، كأى مريض عُصابى فى عيادة "فرويد" ويطبق عليها مصطلح "العقدة" السيكولوجى. وليس لدى الدكتور فؤاد أية مسوغات لهذا العمل، فليس هناك عالم نفسى فعل هذا، ولا هو قدم المسوغات العلمية التى تُبيح له ذلك، لذلك قلت إنه استخدام "عامى" للمصطلح، يريد لأمتنا المسلمة أن ترقد على "كنبة" فرويد البالية!

وقد يقال إن الدكتور فؤاد أراد بذلك شرح كيفية ظهور هذه الشريعة التى تبالغ فى تقدير دور الجنس، حسب زعمه.

و قد يقال إنه يقصد أن رسول الله ﷺ (الفرد) هو الذى وضع الشريعة. وهو الذى ألف القرآن، وأن الاتهامات بـ"العقد" موجهة إليه ﷺ. والحق أن كلام فؤاد زكريا فى مجموع كتاباته يشهد "بإمكان" هذا التفسير المنكر للنبوة، وللدين تبعاً لذلك. لكن يظل كلامه المحدد الذى اقتبسناه عنه بخصوص العفة الجنسية قاصراً عن

أن "يؤكد" هذا أو يرجحه، وبوسعه أن ينكر هذا التفسير، وعندئذ لابد أن يتحمل تبعة التفسير الأول، أعنى النقل غير العلمى لمصطلح "العقد" من المستوى الفردى السيكولوجى، إلى المستوى الجمعى. وتلك خطيئة كبرى من أستاذ كبير كان ذات يوم رئيسًا لقسم الفلسفة بجامعة عين شمس، ومستشاراً ثقافيًا لدولة الكويت، وحاملاً لقب "المفكر العربى"!

ولقد حاول فؤاد زكريا فى كتابه عن الصحوة الإسلامية مرة أخرى أن يفسر موقف الإسلام من العفة الجنسية فرده إلى: "ازدواجية الحرمان من الجنس الآخر، وتحريمه؛ والرغبة العارمة فى الجنس مستترة وراء قناع من "العفة المتطرفة"، ووصف نظرات المسلمين إلى النساء بأنها "نظرات جائعة" فى أغلب الأحيان، والحجاب يُضفى على المرأة ضمانة ترضى غرور الرجل الشرقى، وتهدئ مخاوفه الدائمة وعدم ثقته الأزلية فى الجنس الآخر".(١)

وكلام الدكتور فؤاد زكريا هنا هو مجرد تعبير عن آرائه هو، أعنى أنه ليس تفسيراً علميًا يستند إلى منهج بحثى معترف به، أو إلى تجارب، أو إحصاءات أو "استبيانات". ولذلك يعجز عن مساندته عجزاً مُشينًا إذا قلنا له - مثلاً - أين الدليل؟! فلا دليل لديه من أى نوع؛ ولا وثاقة لكلامه، ولا قيمة تبعًا لذلك. وهذه دون ريب كارثة علمية، لأن فؤاد زكريا ليس كاتبًا مبتدئاً، ولا هو طالب فى مرحلة الماجستير أو الدكتوراه حتى يرتكب هذه الخطيئة!

وعلى الرغم من هذا سوف أحاول أن أبين فى إيجاز مقدار الخطأ فى آرائه. فالمسلمون لا يعانون من الحرمان الجنسى، ولا يحرمون الجنس لا على مستوى المرجعية ولا على مستوى الواقع. والقرآن الكريم يحث على الزواج، ويبيح تعدد الزوجات وكذلك فعل النبى الكريم ﷺ.

أخطاء علمية وانحرافات فكرية:

قرر الدكتور فؤاد زكريا أن لدى المسلمين رغبة جنسية عارمة، ليست لدى سواهم من البشر، دون أن يقدم أى دليل من أى نوع على صحة هذا الزعم. وما كان

---

(١) الصحوة الإسلامية؛ ص ٢٢.

له بحال أن يجد دليلاً، والرغبة الجنسية فطرة عامة بين البشر، والمسلمون العرب والأتراك والهنود بشر من البشر، لديهم الرغبة الجنسية كما لدى غيرهم. وهذه بدهية لا يسع أحد أن يناطحها مهما أوتى من قدرة على المراوغة والمغالطة والتضليل.

والإسلام يعتبر قوة الرغبة الجنسية فتوة، ودليل كمال فى الخلقة، لا دليل خلل أو نقص أو عيب. وقد كان النبى الكريم ﷺ كامل الخلقة والخُلق، وكان يتمتع بقوة جنسية فائقة، وقد قالها صريحة واضحة: "حُبب إلى من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجُعلت قرة عينى فى الصلاة" (أخرجه النسائى وأحمد).

إن حديث الأستاذ عن "الرغبة العارمة فى الجنس"، وعن "النظرات الجائعة" باعتبارها خصيصة للمسلمين دون سواهم هو إذن حديث خرافة. إنه يتحدث عن المجتمع الراهن حيث تخرج المرأة شبه عارية، وحيث لا يجد الشباب سبيلاً للزواج، وحيث يعانى بعض الشباب - فى شرائح معينة من المجتمع - من الحرمان، ويتورطون - من ثم - في النظر إلى النساء، وليس هذا هو المجتمع الإسلامى الملتزم بالشريعة التزامًا كاملاً شاملاً، بل هو المجتمع العلمانى الذى يحاول أن يتستر على عوراته بأوراق توت إسلامية. وبذلك يشكل نماذج شائهة مضطربة، منقسمة على نفسها، من المجتمعات.

ويظن الدكتور فؤاد زكريا أن الرجل الشرقى المغرور، الشكاك هو الذى فرض الحجاب على النساء، ومضمون كلامه يدل على أن الرجل الغربى، الأوربى، هو المثل الأعلى الذى يجب احتذاؤه، إنه الرجل الذى يرى أمه أو أخته أو زوجته تمارس الزنا أو البغاء ولا يثور، ولا يلوم! والمجتمع الأوربى هو المثالى بحق، ففيه - مثلاً - ٤٩٪ من الزوجات الألمانيات يخن أزواجهن، وفيه أيضًا ٩٨٪ من نساء كندا يتعرضن للاغتصاب. (ولم ينظر إليهن الرجال الأوربيون المهذبون الذين اغتصبوهن نظرات جائعات مثل المسلمين الأشرار!) وفيه زادت معدلات الاغتصاب ٥٩٪ سنة١٩٩١ فى أمريكا. وللعلم، هذه كلها إحصائيات رسمية، لا مجرد آراء وتحيزات، كما هى الحال فى كتابات الدكتور فؤاد زكريا، أما فى مجتمعاتنا الإسلامية الملتزمة جزئيًا فقط فالخيانة شذوذ، والاغتصاب استثناء، والبغاء محرم والزنا جريمة.

الإسلام لا يدعو إلى الحرمان الجنسي:

وفى تفسير ثالث لاهتمام المسلمين بصون العفة كفضيلة أخلاقية مهمة، قال الدكتور فؤاد زكريا إنه يرجع إلى: "قسوة الحرمان، وصرامة القيود التى يفرضها المجتمع الشرقى" وهذا تكرار لما سبق من أخطائه، فلا حرمان من الإشباع الجنسى فى الإسلام، ولا تبتل ولا رهبنة. والزواج، فى المجتمع المسلم الذى يطبق شريعة الله تطبيقاً كاملاً شاملا، ميسور للغنى والفقير. وكلام الأستاذ هنا لا يصح إلا على بعض شرائح من المجتمع المصرى الراهن، الذى هو "هجين" مركب، متنافر من عناصر إسلامية وعناصر أوروبية، الأمر الذى أدى إلى تأخير الزواج إلى سن الثلاثين وما بعد الثلاثين لنسبة كبيرة من الرجال والنساء. وكانت مشكلات الإسكان، وتدنى مستوى المعيشة هى الأسباب الأساسية لذلك؛ ولا دخل لشرائع الزواج وأخلاقيات العفة وتقاليد المجتمع الشرقى فى ذلك؛ بل إن تأخير الزواج يتنافى مع هذه الشرائع والأخلاقيات والتقاليد. وهكذا نرى أن النظم العلمانية، والاشتراكية خاصة، التى طبقت فى بلادنا، هى سبب مظاهر الحرمان من الزواج التى أراد فؤاد زكريا أن يلصقها بالمجتمع المسلم ظلماً وبهتاناً. وأما القيود التى أشار إليها فهى قيود على الزنا، لا على الإشباع الجنسى المشروع، وهى ليست قيداً، بل تدابير وقائية تفتح كل الأبواب للإشباع الحلال وتغلق كل الأبواب فى وجه الفحشاء. وهذا هو ما يغيظ العلمانيين الذين يحسدون الأوربيين على ما عندهم من استباحة جنسية، ويحاولون استيرادها لبلادنا المسلمة، بعد تحطيم شرائع الزواج وأخلاقيات الشرف والطهارة.

ونلاحظ مرة أخرى أن فؤاد زكريا يجهل، أو يتجاهل أن "القيود" على الفحشاء هى من إملاء الكتاب والسنة، لا من فرض المجتمع الشرقى، اللهم إلا أن يكون قصده أن القرآن والسنة من إملاء المجتمع الجاهلى – أو بصراحة تامة، وكما ذكرنا سلفاً – أن النبى الكريم ﷺ هو الذي ألف القرآن! وتلك فرية رددها الجاهليون العرب وقالوا – كما سجل القرآن الكريم –: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر:٢٥) ثم زخرفها المستشرقون بحواشى من علم النفس الحديث، وعلم الاجتماع والإنسان، ثم رددها العلمانيون وراءهم كالببغاوات.

ونمضى مع تفسيرات الدكتور فؤاد زكريا فنجده يقرر أن شرائع الزواج والعفة،

الصارمة، تعبر عن شدة حب المسلمين للجنس؛ "ومن المعروف أن الإنسان كثيراً ما يميل إلى تحريم أحب الأشياء إلى نفسه، أو على الأقل فرض قيود شديدة عليها" ويقول: "وكثير من المتزمتين لا يبدون هذه الصرامة إلا لأنهم محرومون، بحيث تكون قسوتهم وصرامتهم مجرد مظهر سلبى للرغبة العارمة فى ارتكاب كل ما يحرمونه على الغير".(١)

ومرة أخرى، نقابل الخرافة التى يروج لها فؤاد زكريا، والتى تقول إن المسلمين من العرب والأتراك والأمريكيين والأوربيين، يحبون الجنس أكثر من مواطنيهم غير المسلمين، من اليهود والنصارى والبوذيين والملاحدة! و فؤاد زكريا يزعم أن هذه الخرافة "من المعروف"! ولم يقل لنا إنها معروفة فى علم معين كعلوم الإنسان، أو الطب أو علوم الحياة، أو غيرها. **فهى إذن خرافة معروفة لفؤاد زكريا وحده، وأما العلم والعلماء، وأما الثقافة والمثقفون، فيعرفون أن الجنس غريزة بشرية، يستوى فيها الناس من كل جنس ودين، مع اختلافات بين الأفراد. وكما قلنا من قبل إن قوتها لدى فرد دليل سلامة وصحة وكمال.**

وبعد هذه الخرافة تأتى أختها، وتستند إليها. فنظراً لحب المسلمين الشديد للجنس، كان تحريمهم الشديد له على أنفسهم، لأن الإنسان يميل إلى تحريم أحب الأشياء إلى نفسه! والرجل هنا يغالط نفسه، فالمسلمون لا يحرمون إلا الجنس الحرام، أى الفحشاء بكل ضروبها، أما الجنس الحلال فيحثون على ممارسته من خلال الزواج، ويبيح الإسلام تعدد الزوجات، وييسر الزواج، ثم إن التحريم والتحليل لله تعالى، لا للإنسان، إلا أن يكون فؤاد زكريا كافراً بالنبوة، كما سبق أن أشرنا، والعبارات تتوالى فى كتاباته لترجح ذلك.

ولم يبقَ فى كلامه جديد اللهم إلا توهمه الخيالى العجيب أن بعض المسلمين محرومون من الجنس، ولديهم رغبة عارمة فيه، وفى ارتكاب الفحشاء التى يحرمونها على غيرهم! فها هنا خلط فظيع. فمن يا ترى أولئك المحرومون من الجنس من المسلمين؟ ولماذا؟ أهو حرمان بسبب التبتل والرهبنة، أو الفقر؟ وكيف لمثل هؤلاء المحرومين أن يحرموا "الجنس" الذى أحله الله تعالى؟! إننا هنا بإزاء كائنات خرافية

(١) آراء نقدية؛ ص ١٧٦ .

كالغول والعنقاء، كأن الرجل يؤلف حدوتة أو أسطورة أو كأنه أسير لثورة من الغضب عاتية ملكت عليه قواه الفكرية، فراح يتوهم هذه المخلوقات! ولقد يرجع ذلك إلى المرارات التى تملأ أفواه العلمانيين من فشل جهودهم على امتداد مائتى عام لطمس شخصية مصر الإسلامية، وإحلال الثقافة العلمانية محل الثقافة الإسلامية. ويضاف إلى ذلك فشل الشيوعية بالنسبة للدكتور فؤاد زكريا وتبديد أمله فى نشرها فى مصر، "شاءت الأمة المسلمة أم أبت"! الأمر الذى بدد معظم جهوده وكتاباته واضطره إلى أن يلتحق بالمعسكر الليبرالى الأمريكى الذى طالما هاجمه وشنع عليه وتنبأ باندحاره واندثاره؛ وذلك عبء نفسى مهول تنوء به الجبال.

وهكذا وجدنا نقده للعفة الإسلامية خليطًا من الأخطاء والأوهام والخرافات التى لا تنتسب إلى النقد ولا إلى العلم بأية وشائج.

موقفه من المعجزات:

ثم ننتقل إلى موقفه من المعجزات، فنسأل: هل الإيمان بالله تعالى الخالق المدبر يتعارض مع مبدأ السببية الذى يحكم الظواهر الطبيعية والاجتماعية ؟ وهل الإيمان بأن الله تعالى أعطى الأنبياء معجزات خارقة لمبدأ السببية، هو تفكير أُسطورى؟ وهل الإعلام الغربى لا يهاجم الإسلام إلا لأنه يعلّم المسلمين عدم الثقة فى مبدأ السببية. وإذا نحن تبنا ورجعنا إلى الإيمان المطلق بالسببية، هل سيكف الإعلام الغربى عن مهاجمتنا؟

هذه الأسئلة يثيرها الدكتور فؤاد زكريا فى رسالته التى نشرها "رجب البنا" ضمن مقاله فى الأهرام يوم ٣٠/ ١/ ١٩٩٤ عن "الإسلام والإعلام". وكنت أتمنى أن يكون كلام الدكتور فؤاد زكريا أكثر وضوحاً وتحديداً، ولكنه للأسف أطلق كلامه وجزأه، لكى يفلت من النقد! وهذا الأسلوب تعلمه من الفيلسوف اليهودى المرتد "اسبينوزا" وهو أسلوب المراوغة فى طرح الأفكار المضادة لعقيدة المجتمع! ومن المؤسف أن جريدة الأهرام ترفض نشر التعقيبات على مقالات كبار الكتاب العلمانيين لكى يستقر التشكيك فى عقول القراء، ويظل الكاتب العلمانى فى نظرهم مصدراً للحقائق العلمية التى تعلو على كل نقد، وتبرأ من كل خطأ. والحق أن كلام الدكتور

فؤاد زكريا فى المسائل الإسلامية عامر بالأخطاء؛ وهذه الرسالة نموذج لكتاباته حول الإسلام وقضاياه، وصدق المثل القائل: قتلت أرض جاهلها!

فليس فى العقائد الإسلامية أى تشكيك فى مبدأ السببية. والقرآن الكريم يؤكد وجود القوانين، أو "السنن" الحاكمة للظواهر الاجتماعية، وليس الطبيعية فقط، وذلك هو تدبير العليم الحكيم، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى فى شأن ظاهرة الصدام بين كل دين جديد وبين أنصار القديم من المشركين والمنافقين: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٢) فتلك ظاهرة اجتماعية إنسانية ولها قانون ينظمها. وكما انتصر التوحيد من قبل سوف ينتصر دائمًا، ولن يتبدل القانون، لأنه مطرد وصارم.

ويستنكر القرآن الكريم موقف المشركين الذين ظنوا أن من الممكن أن تتبدل قوانين الاجتماع الإنسانى فينتصر شركهم على التوحيد فيقول جل شأنه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾(فاطر: ٤٣).

ولولا هذه الآيات الواضحات الحاسمات التى تقرر بكل وضوح خضوع الظواهر الاجتماعية لسنن الله المطردة، لما استطاع ابن خلدون أن ينشئ "علم العمران" أو "علم الاجتماع". ولقد كرر الآيات السابقة ثلاث عشرة مرة فى مقدمته! الأمر الذى يقطع قطعًا لا مدخل فيه لأية شكوك بأنه نقل نقلاً فكرة قانونية الظواهر الاجتماعية عن القرآن الكريم. وفضلاً عن ذلك اقتبس ابن خلدون قانون قيام الدول، وقوانين التجمع البشرى وكذلك قوانين انهيار المجتمعات، من القرآن الكريم، فكيف يزعم الدكتور فؤاد زكريا أن هناك عدم ثقة فى مبدأ السببية فى الإسلام أو عند المسلمين؟

ووقوع المعجزات والخوارق على أيدى الأنبياء لا يمس مبدأ السببية. فالمعجزات ليست نظامًا بل هى استثناءات يجريها الخالق المدبر على أيدى الأنبياء كأدلة على صدقهم، والنبى الكريم ﷺ الذى أُسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فى معجزة خارقة للسببية، لم يسافر بعدها إلا على جمل أو حصان، أو سيرًا على الأقدام،

وكان يسعى كما يسعى سائر خلق الله لكسب الرزق، وكان يقاتل بيده، وبجنوده، ويسأل الله النصر فيمده بالملائكة، ولم يجلس فى بيته ويسأل الله أن يرزقه عن طريق الخوارق. وقد طلب إليه المشركون أن يفجر لهم ينابيع فى مكة، أو يكون له بيت من ذهب، أو يُلقي إليه كنز عن طريق الخوارق، فعلمه ربه أن: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٣).

ومن جهة أخرى، السببية لا تنفى إيمان المسلمين بالمشيئة الإلهية المطلقة، فالله تعالى هو الذى خلق الوجود كله وهو الذى يدبره، وهو الذى أراد له أن يسير بحسب سنن، وهو الذى أراد خرق تلك السنن فى حالات معينة ولحظات محددة، وهو الذى يقدر الأرزاق والآجال وكل ما يصيب الإنسان من خير أو شر. وهذا كله لا يتعارض بحال من الأحوال مع إيمان المسلمين بالسببية واحترامهم لها، ولذلك نشأ العلم التجريبى والمنهج التجريبى فى أحضانهم.

ونحن نعلم يقينًا أن الإعلام الغربى لن يكف عن هجماته على الإسلام والمسلمين إلا إذا تركوا الإسلام واعتنقوا الفلسفة المادية الملحدة، وتبعًا لذلك يفقدون استقلالهم الفكرى وهويتهم المتميزة، ويصبحون ذيولاً للغرب، تابعين خانعين له كالهنود الحمر! وبذلك يستمر استغلال الغرب لنا ماديًا، وتتواصل هيمنته على بلادنا إلى أجل غير مسمى. هذه هى الحقائق، وتلك هى الافتراءات، وللناس عقول تفهم وتدرك وتقدر، وتميز بين الحقائق والافتراءات.

أسلوبه فى الحوار:

وبعد هذا كله أتساءل: ماذا يعرف الناس عن الدكتور فؤاد زكريا وأسلوبه فى الحوار وطريقته فى الجدال؟

من المفيد أن نجيب على هذا السؤال من خلال دراسة كتبه ومقالاته. ولسوف يفاجأ القراء، حين يعلمون حقيقة الرجل. ولسوف يدهشون حين يرون أن كتابات الدكتور فؤاد زكريا بصفة عامة سلسلة من الأخطاء والأحكام السابقة، والمجازفات!

إننا إذا فحصنا "منهجه" واجهتنا منذ البداية، مناقص عديدة، لا يتصور أن يتعاطاها أستاذ فى الفلسفة. وأول تلك المناقص، وإن لم تكن أخطرها أو أهمها، البناء على مقدمات باطلة.

وتبعًا لذلك تجيء النتائج وقد اخترمها البطلان من أساسها ذاته!

خذ مثلاً: حديثه عن شخصيتنا المصرية. إنه يقرر أن "سمة الحزن من السمات المميزة للشخصية الشعبية"، ثم إنه يصف تقريره هذا بأنه "حقيقة علمية".[1]

فما هي المقدمة التي بنى عليها تقريره، أو "حقيقته العلمية"؟

إنها مقدمة تقول إن: "ألحان الناى حزينة. والناى آلة موسيقية مصرية شعبية، فلابد أن تتسم الشخصية المصرية بطابع الحزن بتأثير الناى وألحانه الحزينة!

ولكن، هل ألحان الناى حزينة حقًّا، ودائمًا؟ ألا يؤدى الناى ألحانًا مرحة، مبهجة، راقصة؟ وهل الناى هو الآلة الموسيقية الوحيدة المنتشرة بين الشعب؟

فالباطل اخترم مقدمته من ناحيتين:

الأولى: افتراضه الوهمى أن كل ألحان الناى حزينة، وهى ليست كذلك.

الثانية: تغافله عن تعدد الآلات الموسيقية الشعبية فى مصر.

ويقول الموسيقيون من أهل الصناعة أن الموسيقى المصرية الشعبية، وهى موسيقى عربية شرقية، يغلب عليها الطابع اللحنى، والإيقاع، وهى تُعزف فى الأفراح والأعياد والمناسبات السعيدة. فهل تُعزف الألحان الحزينة فى هذه المناسبات؟ وهل الضجيج العنيف الذى نسمعه فى أفراحنا وأعيادنا يعبر عن سمة حزينة فى شخصيتنا؟! ومتى يحب المصرى من أبناء الشعب أن يستمع إلى الموسيقى والغناء؟

أيحبها فى الجنائز والمآتم؟! وهل عندنا موسيقى جنائزية شعبية فى مصر؟! وما السمات القومية الأخرى التى يمكن أن يثبتها الدكتور فؤاد زكريا استناداً إلى: الطبل البلدى والنقرزان والمزمار والأرغول والربابة؟! لماذا اكتفى بالناى دون سائر الآلات الشعبية؟!

أسئلة كثيرة لابد أن تثور، ولكن فؤاد زكريا الذي لا يحترم المنطق ولا يعرف المنهج، غض طرفه عنها، لكى ينتهى بنا (من مقدمته الباطلة) إلى نتيجته الزائفة، التى يسميها "حقيقة علمية"!!

---

(١) آراء نقدية: ص ١٦٦-١٦٧.

وهناك مثال آخر، لمقدمة باطلة أخرى، شيد فوقها نتيجة خاطئة.

فيقول أستاذ الفلسفة: "إن التفاخر بالأصل والحسب صفة مميزة لشعوب هذه المنطقة من العالم". أى العالم العربى والإسلامى.(١)

ولا احد ينكر شيوع عادة التفاخر بالأصل والحسب. ولكننا ننكر أنه يشكل خاصية مميزة للشخصية العربية أو الإسلامية. إن التفاخر نقيصة خلقية، أدانها القرآن الكريم، وأدانتها السنة النبوية، إنها كتعاطى الحشيش، فهل تدخين الحشيش يسوغ القول بأنه خاصية مميزة لشعوب العالم العربى؟!

إن شخصيتنا السوية تُدين التفاخر بالأصل والحسب ونعده من آثار الجاهلية. وكتاب ربنا يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. ورسولنا ﷺ يقول: "لَيَدَعُنَّ قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً فى جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان (الجعارين) التى تدفع بآنافها القذر". والقرآن الكريم يدين الفخر إدانة منكرة فى آيات عديدات، كقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقد تحقق مثلنا الأعلى القرآنى هذا فى الواقع العينى المشهود، وتمثل (بوضوح باهر عبر تاريخنا كله) فى شخصيتنا الإسلامية. وهو الذى رفع بلالاً العبد الحبشى فوق أبى سفيان بن حرب "القرشى"، سيد كنانة وزعيم قريش، لأنه كان الأتقى، ولأنه كان الأسبق إلى الإسلام. ولا يزال المسلمون إلى اليوم يقدرون الأتقياء، العاملين المجاهدين، بصرف النظر عن أحسابهم وأنسابهم وأصولهم العرقية. وهذه هى الصفة العامة الحقيقية لشعوب هذه المنطقة. بعكس الشعوب الأوربية العنصرية التى تؤمن باستعلاء الرجل الأبيض والجنس الآرى، على سائر خلق الله، وبعكس العنجهية الصهيونية العنصرية. وكل بحث موضوعى محايد لابد أن ينتهى بنا إلى تأكيد هذه الحقيقة المناقضة لمزاعم الدكتور فؤاد. فهو يقلب الحقائق رأساً على عقب استناداً إلى ملاحظة عارضة، أو رذيلة شائعة، لهدف شخصى مبيَّت عنده!

واستناداً إلى هذا الباطل يبنى أستاذ الفلسفة "آراءه النقدية". فيزعم أننا نتخذ من السلف – أو الأصل والحسب – صورة البديل الخيالى عن الحاضر، أو العزاء عما نحن فيه من تخلف.(٢)

(١، ٢) آراء نقدية؛ ص ١٧٠.

فالثقافة التى تتصدى لنقيصة التفاخر بالأصل والحسب بوصفها معصية لله – عز وجل –، وتدينها فى كل لحظة تطل فيها برأسها، هى الجديرة بالإدانة عند هذا "الناقد"، وهى التى تعلم أبناءها التفاخر بأصولهم وأحسابهم، ونسبهم بديلاً عن تخلفهم الراهن!

إن الدكتور فؤاد يتعمد إساءة فهم الموقف الإسلامى لمجرد التشنيع. فهو يفهم الاعتزاز بتاريخنا الإسلامى ومثله العليا على أنه تفاخر بالأصل والحسب! وهو يفزع فزعًا شديداً من ذكر أبى بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ. إنه يريدنا أن ننسى تاريخنا ونهيل عليه التراب. والدكتور فؤاد بالذات يقرر دون وجل أن الرفاق الحمر فى كوبا والصين أقرب إلينا من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى! فإذا أبينا عليه ذلك، قذفنا "بآرائه النقدية " التى هى مجرد أباطيل بناها فوق أباطيل.

أنموذج للحوار مع فؤاد زكريا:

وفيما يلى أنموذج للحوار الذى يفترض فيه أن يكون علميًّا، لأنه يناقش مسائل علمية. لكن الدكتور فؤاد – كعادته –! يقلبه إلى سباب وشتائم واتهامات مخيفة!

ذلك أن دار "قدمى" للنشر والتوزيع فى دمشق اشترت حق الترجمة العربية لكتاب THE INVENTION OF ANCIET ISRAEL أى "اختراع إسرائيل القديمة" لمؤلفه: كيث وايتلام. لكن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت أصدر ترجمة عربية أخرى للكتاب نفسه. وكان الدكتور فؤاد هو المستشار الثقافي للمجلس، وهو الذى اختار المترجمة الدكتورة سحر الهنيدى لإنجاز الترجمة، كما قام بالتعليق عليها.

وكان من الطبيعى أن تعترض "دار قدمى" على الترجمة الكويتية، صيانة لحقوق الملكية الفكرية التى تحميها القوانين والاتفاقات الدولية. وقد وجد السيد (زياد منى) أن من واجبه بيان الأخطاء العديدة فى الترجمة، وفى ملاحظات الدكتور فؤاد عليها، لأنها تحاول: "**إضفاء تغطية شرعية علمية لعمل مقصر تمامًا**". وكان الرجل يتوقع أن يتعامل الدكتور فؤاد مع ملاحظاته النقدية بروح رياضية، وأن ينظر إليها بروح أخوى. لكن الدكتور فؤاد لا يرضى بغير الإطراء والمديح، ولا يقبل أى نقد

مهما كان سنده العلمي، فكتب ردًا، احتوى على "كمّ من المغالطات والاتهامات والتحريضات والتجريحات" .

وهذا في الحقيقة هو منهج الدكتور فؤاد في الحوار. إنه لا يقبل النقد أو المعارضة، وتأخذه العزة بالإثم، فيضيف السباب والردح البلدى إلى أخطائه العلمية الفادحة!

ماذا كان رده "العلمي" على انتقادات "زياد منى" ؟

قال الدكتور فؤاد إن الكاتب: "أمسك قلمه بإحدى يديه بينما يده الأخرى تتحسس حافظة نقوده" !

وقال إن: "سوء النية كان غالبًا على السيد زياد منى عندما كتب مقاله النقدى" !

وقال أيضًا: "إن السيد زياد منى لا يفكر إلا فى مصالحه الشخصية ويطرح جانباً كل اعتبار متعلق بخدمة قضيتنا القومية" !

وقال - أخيرًا - إنه يتبين أن المحاولات المستميتة التى يبذلها السيد "زياد منى" للتشويش على هذه الطبعة - الكويتية - ومنع انتشارها، تقف موضوعيًا فى الخط نفسه الذى يقف فيه العدو الأكبر للقضية الفلسطينية" !

وهكذا صار الكاتب الفلسطينى "زياد منى" خائنًا لوطنه، متحالفًا مع الصهاينة، لأنه تجرأ وبين أخطاء فؤاد زكريا!! **وردت "دار قدمي" أحسن رد حين قررت نشر غسيل الدكتور فؤاد على أوسع نطاق بين القراء العرب: "كبطاقة تعريف بالدكتور فؤاد الذى قاده تعاليه الواهى إلى التمسك برذيلة الدفاع عن الغلط !"**

ولم تنس اللجوء للقضاء لملاحقة الدكتور فؤاد بتهمة القذف، وملاحقة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت لحفظ حقوقها الفكرية والمادية التي اعتدى عليها بمشورة المستشار الثقافي الدكتور فؤاد زكريا.

حواره مع الإسلاميين!

ولعل من أهم انتقاداته في حواراته ضد الإسلاميين هو أنهم يؤمنون بأن هناك حقيقة واحدة هم المالكون لها وبأن "كل ما عداها باطل"! والحق أن كلامه هذا تعميم خاطئ وغير علمي. فالثقافة الإسلامية كسائر الثقافات تنطوى على عقائد وشرائع

وقيم أخلاقية وتقاليد خاصة وأعراف وآداب وفنون وعلوم، ولا يجوز تبعًا لهذا أن نصدر عليها حكمًا واحداً باتًا! فالتوحيد الذي هو جوهر الثقافة الإسلامية حقيقة مطلقة أزلية. ونحن نؤمن بأن كل ماعداه باطل، الإلحاد والفلسفات المادية العلمانية كلها عندنا باطل فى باطل لأنها تكفر بأن للكون خالقًا. وفى التشريع: العدل مبدأ أزلى مطلق وكل ما سواه باطل لأن ما سواه ظلم وكل تشريع لا يبتغى إعطاء كل إنسان - مسلم أو غير مسلم - ثمرة جهده هو تشريع باطل. وفى الأخلاق: الإيثار مبدأ أزلى مطلق وكل عمل لا يبتغى خير الآخرين لا يستحق صفة "أخلاقى". وعلى الرغم من هذه الحقائق المطلقة لم يمنع الإسلام المسلمين من الاجتهاد فى فهمها وتفسيرها على أنحاء مختلفة، ومن هنا ظهرت الفرق الإسلامية فى العقيدة والمذاهب الفقهية فى المجالات العملية.

وفضلاً عن هذا هناك مجالات واسعة لم تحكمها نصوص من القرآن أو السنة لأنها من الجوانب المتغيرة المتطورة فى حياة الإنسان والحاكم فى تنظيمها هو المصالح (المرسلة). وقد استفاد المسلمون فى تنظيم هذه المجالات من الجاهليين العرب، ومن الهنود والفرس واليونان، والأوربيين المعاصرين. والله تعالى يقول: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ والنبى ﷺ يقول: "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها". هذه الحقائق تبين بجلاء بطلان ادعاء الدكتور فؤاد، **فالمسلمون يسلّمون بأن لديهم حقائق مطلقة، ويعترفون بأن غيرهم من الأمم لديهم معارف صحيحة وخبرات نافعة، والإسلام يحثهم على قبول الحقائق بصرف النظر عن مصدرها.**

وهذا يقودنا إلى المسألة الثانية المهمة وهى زعمه بأن الإسلاميين "مغلقون"! والحق أن العيب فى الدكتور فؤاد لأنه اختار أضعف المذاهب الفلسفية فاعتنقه ودافع عنه وروج له، وهو المذهب المادى الماركسى الشيوعى بالذات. ولذلك لم ينجح الدكتور فؤاد فى إقناع أحد به. فالمثقفون قارنوا بين الإلحاد والتوحيد، ولم يكن هناك مجال للتردد فى نبذ المادية الملحدة على الرغم من كل الزخارف التى أحاطت بها! وفى الاتحاد السوفيتى البائد، بعد ٧٤ سنة من الترويج للإلحاد بكل قوة وبكل وسيلة، لم يعتنقه من المسلمين إلا عدد قليل جداً. ولو أعطينا كل وسائل الإعلام والثقافة والتعليم للدكتور فؤاد، لن يكون مصيره أحسن من البلاشفة الشيوعيين!

ومـرة أخرى يقـودنا الحـديث إلى النقطة الثالثة وهى نبوءته بأن الإسلام مهزوم لا محالة أمام الثقافة العلمانية المتفتحة! ولقد سبق أن تنبأ الدكتور فؤاد بانهيار الغرب الرأسمالى المستغِل وخلود الجناح المادى الشيوعى! وأحسب أن هذه النبوءة الجديدة سوف تكون كأختها! لأن أكثر المفكرين الغربيين يتوقعون انهيار الثقافة العلمانية الغربية، كما كان الدكتور فؤاد يتوقع زمان! والآن تتعلق آماله بانتصار الرأسمالية ! ولعله لا يزال يحلم ببعث الشيوعية !والمهم عنده أن ينهزم الإسلام، ربما لاعتقاده بأن الإسلام هو الذى قتل الحبيبة الراحلة!

ويصف الدكتور فؤاد ثقافتنا بأنها "ماضوية" ومرد هذا إلى إيمانه بالنسبية السوفسطائية. ونحن نؤمن بأن هناك حقائق مطلقة كما بينا فى السطور السابقة. والفلسفة المعاصرة نبذت النسبية لأنها خطأ، وأقرّت بوجود القيم التى تعلو على الزمان ولا تتقادم بمرور الأيام كالعدل والصدق والوفاء بالعهد. فكلامه خاطئ علميًا وفلسفيًا ودينيًا. وتلك نكبة فى حق أستاذ مثله!

وهو يتهم الإسلاميين بأنهم لا يعرفون العلمانية ولا يقبلون منها شيئًا. وهذا وهْم. فنحن الإسلاميين درسنا العلمانية وأخذنا منها وتركنا. وهو أخذ السوفسطائية المتشككة وأيد فكر "نيتشه" و "اسبينوزا" و "ماركس" ورفض أفلاطون وديكارت وكانط! ونحن نستفيد من المواقف الأساسية لدى "سقراط" و "ديكارت" و "كانط"، بمعاييرنا الإسلامية، ونرفض السفسطة والمادية والإلحاد عند أى مفكر.

ونحن أخيراً نرحب بالإبداع فى العلوم والفنون والآداب التى ترتقى بالإنسان جسماً وروحاً وإحساساً وأخلاقًا ونرفض الانحلال المتدثر بعباءة الإبداع! فكيف يزعم أن كل إبداع عندنا بدعة ؟ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾.

* * *

الدكتور حسن حنفى

مذهبه و منهجه:

الدكتور حسن حنفى أستاذ الفلسفة الإسلامية فى كلية الآداب، بجامعة القاهرة، ألّف عدداً من الكتب، فعرفه المثقفون ككاتب علمانى ماركسى، ولكن تحت عنوانات إسلامية!

وبهذه العنوانات استطاع أن يخدع بعض الناس، إذ وجدناه يتحدث عبر إذاعة القرآن الكريم عن القرآن الكريم، على الرغم من أنه يُنكر أن القرآن وحْي منزل من عند الله! ووجدناه يحاضر فى كلية أصول الدين فى جامعة الأزهر، عن الشيخ شلتوت، ويعلن أن الشيخ شلتوت أنكر حد الردة. والمؤسف أن أحداً من المشايخ الحاضرين لم يرد عليه! (ليس بسبب الجهل طبعاً).

والشيخ شلتوت ليس حجة على الإسلام؛ وإنكاره لحد الردة لا قيمة له، إن كان قد أنكره حقًّا، والأصول العلمية تقتضى من المحاضر أن يزن كلام الشيخ شلتوت بموازين الكتاب والسُّنة، لتُعْلم قيمته الحقيقية. لكن الأستاذ المذكور يهمه أشياء أخرى غير الأصول العلمية؛ وقد حقق ما أراد وأعلن أمام الشيوخ، وفى عقر دارهم، أنه لا وجود لحد الردة، تأييداً لرفاقه الحمر فى حزب التجمع الذين أعلنوا أن حد الردة لن يحكم مصر!

وإزاء هذا "التسلل الثقافى" – إن جاز التعبير – شعرت أن من واجبى، بحكم التخصص، أن أُعرّف الناس بحقيقة مذهب ذلك الأستاذ. فهو يفتقر إلى الصراحة، ويجيد المراوغة، ويكتب ضد الإسلام باسم الإسلام وتحت شعارات الإسلام!! ولو كان على قدر من الصراحة والاستقامة، لما كانت هناك حاجة لدراسة أفكاره، إذ هى فى ذاتها مجرد نُقُول وترجمات واقتباسات مضطربة، غير موثقة، وخليط متنافر من تراث الباطنية والشيعة الغُلاة، مع إضافات من النظريات الفلسفية الأوربية، والماركسية خاصة، وجرعات من البراجماتية الأمريكية. **ومثل هذا الفكر لا يستحق القراءة، فضلاً عن الدراسة!**

حقيقة انتمائه :

وأحسب أن معرفة حقيقة انتمائه تُيَسر لنا عملنا هنا . فنبدأ بها .

ولقد عرّف هو نفسه بنفسه فقال : "أنا فقيه من فقهاء المسلمين، أُجدد لهم دينهم وأرْعَى مصالح الناس، ليس لنا ألقاب، بل من علماء الأمة، ورثة الأنبياء، والمحافظون على الشرع كما كان فقهاء الأمة من قبل." ثم يضيف إلى ذلك قوله : "إنما نحن أحد علماء الأمة، وواحد من المجتهدين."[1]

والطريف هنا قوله إنه ليس له ألقاب!

وقد ذكر عن نفسه أنه وُلد سنة ١٩٣٥م . وحين تخرج في الجامعة سنة ١٩٥٦م سافر إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه، فمكث فيها عشر سنوات كاملات، واتصل بالتشكيل الناصرى للطلاب المبتعثين.

وقد اعتبر عهد السادات "ردة" - يعنى ردة عن الناصرية والاشتراكية العربية - لذلك ترك مصر إلى أمريكا غاضبًا، ومكث هناك خمس سنوات؛ وقد رتبوا له ليعمل أستاذًا زائرًا فى أمريكا (أية جهة يا ترى رتبت له ذلك؟).

وكانت رسالته لنيل الدكتوراه فى "مناهج التفسير" . وقد أراد تطبيقها على علم أصول الفقه الإسلامى، بأن يعيد تفسيره ليساير الاشتراكية الناصرية، بخلفيتها الماركسية!

والماركسية تزعم أن الإنسان هو الذى خلق فكرة "الله" ؛ فلا إله ولا سماء، ولا تنزيل ولا جبريل، بل كل شىء نبت من طين الأرض، ومن المجتمع البشرى! وسنجد أن هذه الفكرة الماركسية ثاوية وراء أفكاره، فضلاً عن فروض (نظرية سوسيولوجية المعرفة عند "ماركوز") تلك التى تُنَظِّرُ لتلك الأفكار الإلحادية.

وقد قاده انتماؤه إلى الماركسية إلى مزاعم فَجّة . من ذلك مثلاً قوله : "إن الثورة الاشتراكية الكبرى - أى الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ - ثورة إسلامية فى أهدافها، تخرج من الإسلام، ولا تكون ضده، أو بديلاً عنه".[2] ومن ذلك أيضًا

---

(١) انظر كتابه : المقدمات النظرية ؛ ص ٤٢ .

(٢) انظر كتابه : الحركات الدينية المعاصرة؛ ص ٦١ .

استشهاده بآيات قرآنية على صواب المبادئ الشيوعية؛ فهو يقول: "ولا يمكن تركيز المال في أيدى قلة، والأغلبية مُعْدمة: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾. (الحشر:٧) لا يمكن أن يظهر في المجتمع الواحد أغنياء وفقراء، فما فاض عن الحاجة أصبح لصالح الأمة: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج:٢٤، ٢٥) [١]

وهكذا صارت المبادئ الشيوعية مبادئ إسلامية، أو المبادئ الإسلامية مبادئ شيوعية، واتضح أن النبى ﷺ قد طبق الشيوعية فى الدولة الإسلامية الأولى قبل "لينين" بألف وثلاثمائة وخمسين عامًا تقريبًا!!

كان انتماؤه إلى الماركسية و الشيوعية – إذن – من القوة بحيث قاده إلى مثل هذه المزاعم الضحلة. والحق أن الإسلام هدفه الأول إقامة التوحيد فى الأرض، وتعبيد الخلائق لخالقهم – جل جلاله –. وشريعة الإسلام تسبغ الحماية على الملكية الفردية التى حازها المسلم بالطرق المشروعة. وقد وُجد الفقراء والأغنياء فى العهد النبوى وعهد الراشدين، إلى جانب الأغنياء، كما وُجد هؤلاء وأولئك فى كل مجتمع بشرى، بسبب التفاوت الطبيعي بين الأفراد. ولذلك أوجَبَ الإسلام نفقات الأقارب، والزكاة، وندب إلى الصدقات، وفَرَضَ سد الخلات. وآية سورة الحشر التى استشهد بها تتحدث عن توزيع الغنائم بين المهاجرين والأنصار، ولا صلة لها بالتأميم أو المصادرة الشيوعية. وآية سورة المعارج تمتدح المؤمنين الأغنياء الذين يؤدون الزكاة التى هى حق للسائل والمحروم؛ أى أنها تنطق بضد مزاعمه !![٢]

فهذه بعض العينات "لمناهج التفسير" التي تعلمها فى فرنسا، وأراد أن يطبقها على الإسلام ليثبت أن مذهبه الشيوعى الذى ينتمى إليه صواب بأدلة قرآنية !! وكما ترى، ليس فى ذلك تفسير من أى نوع، بل تعسف وعبث واستهانة شنيعة بآيات القرآن الكريم. (ويلاحظ أنه حين يورد نص آية لا يُسبقها بعبارة "قال الله تعالى"؛ وسنرى أن لهذا تفسيراً) وهو بكل جسارة يُغفل كل الحقائق المعروفة عن عهد النبوة،

---

(١) انظر كتابه: الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ١٥٦ .

(٢) راجع تفاصيل القضية فى كتابى: موقف الإسلام من الدنيا .

فيزعم، كما تزعم الشيوعية، أنه: "لا توجد في المجتمع الإسلامي مِلكية خاصة لأدوات الإنتاج، بل هي ملك الأمة."[1] والحق أنه لم يكن هناك قطاع عام بالمرة، بل امتلك الأفراد كل شيء، من الأرض، والعقارات، والآبار، والبساتين، والتجارات؛ وحتى الكلأ والماء والنار التي اعتبرت ملكًا للجماعة كلها، كانت تنقلب إلى مِلكية فردية بمجرد حيازتها لدى فَرْد ما، بجهد يبذله في ذلك. وحتى أسلحة القتال من الخيل والنبل والحراب كانت ملكية فردية!

وكان انتماؤه للماركسية سببًا في إنكاره لوحي السماء، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وكما سنفصِّل القول فيه فيما يلي من هذه الدراسة.

فعند ماركس: أن المادة هي التي تطورت وأفرزت العقل أو الروح؛ وأن الإنسان هو الذي اخترع فكرة الألوهية. وتبعًا لهذا يزعم صاحبنا أن الفكر ينشأ من الواقع.[2] والعقائد من ضمن الفكر الذي ينشأ من الواقع، من طين الأرض ومن المجتمع الإنساني.

وهو يهاجم اليمين – الذي يضم الإسلاميين والرأسماليين في المصطلح الشيوعي العربي– فيقول: "اليمين بطبعه تابع للسلطة ومُبرِّر لقراراتها، لأنه السلطة تتحدث عن نفسها. أما اليسار– فهو الرقيب على السلطة، والناقد للأوضاع والموجِّه للواقع. وإذا برر، فإنه يتخلى عن وضعه كيسار، ويلحق باليمين."[3]

وهذا الكلام باطل بُطْلانًا شنيعًا. وهو قلب للحقائق. فاليسار هو الذي عانى – ويعاني اليوم في الصين وكوريا الشمالية – من هذه الآفات التي ينسبها صاحبنا إلى اليمين الرأسمالي. وقد كانت تبعية الأحزاب اليسارية للسلطة في بلادها، وعجزها عن النقد والرقابة والتوجيه، سببًا في انهيار الدول الشيوعية الواحدة تلو الأخرى. وكانت الأحزاب اليمينية في الغرب تملك الحرية والنقد والتوجيه، وتُسقط الحكومات، وتتداول السلطة، مما أدّى إلى ازدهار المجتمعات الليبرالية وتقدمها. وكان الإسلاميون على امتداد التاريخ نُقّاداً للسلطة حين تنحرف؛ وهم الذين قاوموا الطغاة ولا يزالون؛

---

(١) الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ١٥٧ .

(٢) نفسه؛ ص ٦٣ .

(٣) نفسه؛ ص ٦٩-٧٠ .

وهم الذين قاتلوا المستعمر الأجنبى. والآن، لننظر إلى العالم الإسلامى، ولَسَوف نجد الإسلاميين هم الذين يواجهون السلطات حين تنحرف أو تتغوّل أو تظلم أو تتهاون فى الاستقلال؛ وسنجد اليسار هو الذى عاش ويعيش تابعًا للسلطات الحاكمة، وفى حجْرها، طالما أظهرت العداء للإسلام كنظام شامل للحياة. ونحن لم ننسَ بعدُ المنظر الفكاهى المضحك لمجلس السوفيت الأعلى حين كان يُعلن موافقته على قرارت السلطة بالإجماع، ودائماً!

هذه إذن هى حقيقة انتماء الدكتور حسن حنفى: إنه ماركسى شيوعى، وإن أنكر ذلك! وإن أصر على أنه يسارى إشتراكى إسلامى! ومن موقفه الماركسى الشيوعى كتب ما كتب عن الإسلام. وفَهْمُنا لمواقفه، ومراوغاته لا يتم إلا إذا نحن وضعنا حقيقة انتمائه، كما تشهد بها كتبه، فى أذهاننا. فإذا زعم أنه فقيه، فَاعْلم أنه فقيه فى الشيوعية؛ وإذا زعم أنه مُجدد، فَاعْلم أن تجديده يتمثل فى العبث بنصوص الإسلام لتشهد بصواب الشيوعية. وإذا زعم أنه مجتهد، فَاعْلم أن اجتهاده لا غاية له إلا الانتصار لشيوعيته. وأما وراثته للنبوة فهى أشنع أباطيله!

منهجه: الانتقاء والنبذ، وإعادة التفسير:

ولقد اتبع الأستاذ المذكور فى كتاباته منهجًا معروفًا، يفتقر إلى الموضوعية، لكى يخدم انتماءه الاشتراكى الماركسى. والخطوة الأولى فى ذلك المنهج هى: انتقاء بعض النصوص القرآنية والحديثية، ونبذ ما سواها! ومعيار الانتقاء والنبذ هو المبادئ الشيوعية. والخطوة الثانية هى: إعادة تفسير النصوص المنتقاة لتشهد بصحة المبادئ الشيوعية. وسنرى، فضلاً عما سبق، أن إعادة التفسير هى عبث مفضوح بالنصوص!

ويرفض المذكور الموقف الإسلامى السديد الذى يصر على الأخذ الكامل الشامل بالكتاب والسنّة، ويدافع عن "الانتقاء والنبذ" ! وهو يزعم أن الأخذ الكامل الشامل بالإسلام "أسطورة"، لأنه – فى وهمه – يُغفل الواقع من أجل المبدأ. وهو يزج بالتحرر من الاستعمار فى سياق تسويقه للانتقاء والنبذ، فيقول: "فإذا كان الهدف القومى الأول هو التحرر من الاستعمار، فله، (أى للمثقف) أن يختار من العقائد ما يساعده على ذلك، مثل تلك التى تؤكد علاقة الله بالأرض، وليس تلك التى تفصل

بينهما ."[1] فالعقائد عنده وسيلة لا غاية.[2] (وسنرى أنه يرفض كل العقائد الدينية!) وهذه "الانتقائية" عنده ترجع إلى نظرته البراجماتية النفعية للعقائد الدينية؛ فعنده أن هذه العقائد لا يُقال إنها صواب أو خطأ، حق أو باطل، لأن الصدق عنده: "هو مقدار الإنجاز الذى يتم."[3] وطبقاً لهذه البراجماتية المستعارة من الأمريكيين، يمكن أن يكون الشرك عقيدة مقبولة إذا كانت مفيدة فى الحياة العملية، ويمكن أن يكون التوحيد عقيدة غير مقبولة إذا كانت غير نافعة، والمنفعة والفائدة والإنجاز بمعايير الشيوعية المادية الملحدة. ومن المؤكد أن التوحيد ليس مفيداً بتلك المعايير .

والحق أن "الانتقاء والنبذ" يُخرج المسلم من الملة، لأنهما يحتمان إنكار الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة؛ وهذا ما فعله المذكور؛ وسوف نعرض عينات من الآيات والأحاديث التى أنكرها أو ردها. ولذلك أقول: إن "الانتقاء والنبذ" هما الأسطورة، لأنهما يتناقضان مع الشهادتين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. فكيف أشهد بالتوحيد والرسالة، ثم أُكذب الله ورسوله، وأزعم أن أقوال ماركس أو غيره خير من كلام الله وأحاديث رسوله؟! ولا مخْرج من هذه الأسطورة إلا بالأخذ الشامل الكامل للإسلام عقيدة وشريعة. عندئذ يتسق الفكر، وينصلح الواقع، ويبرأ من الثنائية المهلكة التى كانت سببًا رئيسًا فى تخلفنا وضعفنا. وعندئذ نتحرر من الاستعمار الفكرى ومن كل مظاهر التبعية السياسية والاقتصادية. وبعد تحرير الأرض والعقل، وكل شيء فى حياة المسلمين، يظل الأخذ الكامل بالإسلام هو الضمانة الكبرى لوحدة الأمة، وقوتها وكرامتها، ورُقيها، وهو المذهب الوحيد المؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وليس فى الإسلام عقائد تفصل بين الله تعالى وبين الأرض أو تربط بينهما ! فتلك هرطقة لا تصدر إلا عن كاتب مستهتر لا يحترم الدين ولا العلم ولا الأدب. فإن علاقة الله تعالى بمخلوقاته جميعًا هى علاقة الإله الخالق المعبود بعبيده. فإذا عرفوا ذلك، وأخلصوا العبادة لربهم، ضمنوا السعادة فى الدنيا والآخرة، وتحرروا كلية من الخوف والعبودية لغير الله جل جلاله .

(١، ٢، ٣) الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ٣٢ - ٣٣ .

ويلوم صاحبنا أساتذته الناصريين، ويتجنى عليهم لجهلهم بهذا "المنهج المزدوج أى: "الانتقاء والنبذ"، ثم العبث بالمنتقى من النصوص القرآنية!" : "فظلت الجماهير مسلمة من جانب، وتسمع خطبًا فى الاشتراكية من جانب، دون أن يحدث تأويل لعقيدتها الدينية، بحيث تكون الاشتراكية مضمونًا لها، ودون أن تتحول الاشتراكية إلى مضمون لعقيدتها."(١)

هنا يتناسى المذكور أن أساتذته الناصريين كانوا انتقائيين مثله، يأخذون ببعض الإسلام وينبذون بعضه. ولقد حاولوا تسخير بعض الشيوخ "لإعادة تفسير" الإسلام لكى يثبتوا أن الاشتراكية نظام إسلامى أو شبيه بالإسلامى. ولكنهم فشلوا لأن الاشتراكية تتناقض مع الإسلام من حيث أصولها المادية الإلحادية، ومن حيث مبادئها الاقتصادية التى تقوم على التأميم والمصادرة للملكية الخاصة، مما يُعتبر فى الشريعة اغتصاباً للأموال وأكلا لأموال الناس بالباطل. وظلت الجماهير المسلمة رافضة للاشتراكية، قابضة على دينها. وها نحن اليوم لا نزال نعانى أشد العناء من آثار قوانين الإيجار التى خالفت الشريعة، وانتهكت مبدأ الرضا الشرعى الذى تقوم عليه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلها.

هذا الفشل الاشتراكي الناصرى يُغضب المذكور؛ وهو يتوهم أن بوسعه، بالكتب التى ألفها، أن ينجح فيما فشل فيه أساتذته وهم فى الحكم، فيحوّل المسلمين عن دينهم، بإعادة تفسيره، لتحل الفكرة الاشتراكية محل الإسلام، تحت غطاء لفظى إسلامى. فثورة ناصر الاشتراكية أخطأت لأنها: "لم تستثمر كل طاقات العقيدة كحامل، أو مَدّ، لمشروع الثورة القومى". ولذلك ظلت العقيدة على ما كانت عليه، "تقليدية سُنّية، أشعرية، صوفية، تقوم على سلطوية التصور، وحرفية التفسير، وإطلاق الإرادة الإلهية، وفناء العالم، وتبعية الجسد".(٢)

إذن، مشروعه يبتغى تلاشى تلك الأخطاء (بحيث يتحول المسلمون عن دينهم) واستعمال العقائد الإسلامية كحامل لمشروع الثورة القومى؛ والاشتراكية هى أهم عنصر فى ذلك المشروع. ومنهجه: العبث بالنصوص، وتقييد سلطان الله تعالى (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)، وإلغاء عقيدة القيامة أو فكرة فناء العالم؛ وتبعية

(١، ٢) الحركات الدينية المعاصرة؛ ص ١١٠، ١١١.

الجسد للروح. وهذا هو التجديد المطلوب عنده ! ولا يكف الأستاذ المذكور عن ترديد قوله إن ذلك العبث بالإسلام، وهو ما يسميه "إعادة التفسير" إنما هدفه إشباع متطلبات العصر، أو إنجاز أهداف الثورة، وهي: تحرير الأرض من الاحتلال الأجنبى، وتحرير الإنسان من الطغيان السياسى، وإقامة الوحدة القومية وتحقيق العدالة الاجتماعية.[1] لكنه يعجز عجزًا تامًا عن بيان الصلات السببية بين: "الانتقاء والنبذ، وإعادة التفسير" وبين هذه الأهداف. وبدلاً من ذلك البيان يقفز على حين بغتة إلى ذكر الشيوعية، والمطالبة: "بحق الدولة فى التأميم والمصادرة، وملكية وسائل الإنتاج."[2] وبذلك يُشعرك بأنه لا يذكر هذه الأهداف إلا كمدخل لإقناعك بالشيوعية، ولا يحمل على الصهيونية إلا للترويج للاشتراكية!

وإذا نحن عدنا إلى الواقع المعاصر وجدنا أن الثورة الناصرية الاشتراكية هى التى باعدت بين الأمة وبين تلك الأهداف، فقهرت الشعب وانتهكت الحريات، وأضاعت فلسطين وثلث أرض مصر والجولان السورية، ورقعة هائلة من أراضى الأردن، فضلاً عن الضفة الغربية. ثم إنهم مَزّقُوا العرب شر ممزق؛ بل قسّموا الشعب المصرى نفسه إلى أمتين: أمة علمانية، هى الأقلية الحاكمة، المتغرّبة، وأمة مسلمة. فالواقع يشهد بضد ما يزعمه ذلك الكاتب الماركسي فى هذا الصدد.

ولم يقم بدور مؤثر لتحقيق الأهداف القومية غير الإسلاميين؛ فهم الذين جاهدوا ضد الاحتلال الأجنبى، ولا يزالون، إلى هذه الساعة: قاتل الأزهريون ضد بونابرت فى مصر، وقاتل عبد القادر الجزائرى ضد فرنسا فى الجزائر، وقاتل عبد الكريم الخطابى ضد أسبانيا فى المغرب، وقاتل المهدى ضد بريطانيا فى السودان. ولا يزال الإسلاميون هم القوة الفعالة ضد الطغيان السياسى الذى رسّخته النظم الاشتراكية، وضد العدوان الخارجي؛ وهم الذين أنجدوا إخوانهم المسلمين فى أفغانستان والبوسنة والشيشان.

إذن، هذا هو انتماء حسن حنفى الحقيقى، وهذا هو منهجه. وبهذا المنهج غير العلمى، وغير الموضوعى، ومن موقف الفلسفة المادية والماركسية الملحدة، نظر فى

---

(١) راجع كتابه: المقدمات؛ ص ٣٠ - ٣١.

(٢) راجع كتابه: الحركات الدينية المعاصرة؛ ص ١١٢.

الإسلام ودَرَسَهُ، عقيدةً ونظامًا للحياة. ولسوف تظهر شناعاته حين يتحدث عن القرآن الكريم من ذلك الموقع وبذلك المنهج. ولسوف يُعرف أى فقيه هو، وأى مجتهد، وأى مُجدِّد، بأوضح من كل ما سبق أن قلناه فى هذا الجزء الأول من الدراسة.

ماذا يقول عن القرآن الكريم؟

لا ريب أن بيان موقف أى كاتب من القرآن الكريم كفيل بالكشف عن موقفه من الإسلام جملة وتفصيلاً. وهاهنا نحاول بعون الله تعالى بيان موقف حسن حنفى من القرآن الكريم، لنعرف رأيه فى الإسلام معرفة واضحة.

وأول ما نلاحظه أنه يُكَذِّب النبى ﷺ تكذيبًا غير مباشر بقوله عن العقائد الإسلامية (التى جاءت فى آيات كثيرة جدًا فى القرآن الكريم) إنها من تاليف الطبقات المحرومة! فهو يقول عن الجنة والنار إنهما: "إفرازات للطبقات المحرومة، حيث تجد فيه تعويضًا عن حرمانها وإشباعاً لحاجاتها. ويتضح ذلك فى العقائد عندما تم خلْق عوالم الجنة والنار، وأهوال القبر، وأهوال القيامة، ومشاهد الإسراء والمعراج، عن طريق الخيال الشعبى، وبأدق التفصيلات."[١] وواضح أن صاحبنا هنا يُكذِّب كل الآيات التى تتحدث عن الجنة والنار، ويرى أنها من إنتاج الخيال الشعبى للطبقات المحرومة، وليست تنزيلاً من السماء! أى أن محمداً بن عبد الله لم يَتَلَقَّ وحيًا، ولم ير ملكًا، بل ألف تلك الآيات تعبيراً عن الخيال الشعبى للطبقات المحرومة فى العصر الجاهلى!

وللمذكور عبارات أخرى تؤكد تكذيبه للقرآن الكريم. من ذلك قوله إن القرآن تعبير عن الشخصية العربية: "وما القرآن إلا أحد مراحل صياغتها الثقافية، وما الإسلام إلا أحد أشكال تعبيرها".[٢]

فالقرآن الكريم عنده ليس تنزيلاً من السماء بل كتاب صاغ فيه مؤلفه العربى ثقافة أمته فى عصره، وكان أحد التعبيرات عن الشخصية العربية فى ذلك العصر.

ومن أقواله (فى القرآن الكريم) إن "مناهج التفسير"عنده تكشف عن البيئة

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٣٧.
(٢) نفسه؛ ص ١٤٣.

الثقافية: "التي خرج منها النص (القرآني) نشأة وتكوينًا، وصياغة وتقنينًا، والتي يعود إليها قراءةً وتأويلاً، فهمًا وتفسيراً. فلا يُفهم الإنجيل إلا بالرجوع إلى البيئات الثقافية اليهودية واليونانية في فلسطين. ولا يُفهم نص القرآن الكريم إلاّ بالرجوع إلى الثقافات العربية في شبه الجزيرة."[1] فالقرآن الكريم في رأيه ليس تنزيلاً من عند الله، بل تعبير بشرى عن البيئة الثقافية لمؤلفه. وهذا الهراء هو ما زعمه المستشرقون الصليبيون، وردده من بعدهم العلمانيون!

وبناء على هذا يجب ألاّ نسمح له بأن يخدعنا، وهو يجيد الخداع، ويتقن المراوغة، بعبارات وأساليب ملتوية، فنصدق أنه يصدق حرفًا واحداً من كتاب الله تعالى. (ويلاحظ أنه يصف القرآن بـ "الكريم" ضمن السياق الذي ينكر فيه أنه مُنَزّل!)

والرد على تكذيبه للقرآن الكريم هو نفسه الرد الذى واجه به القرآن الكريم تكذيب العرب الجاهليين واليهود والنصارى. ولقد زعم المشركون العرب أن القرآن الكريم من تأليف البشر، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر:٢٥)؛ ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا...﴾ (الفرقان:٥) وقد تحداهم القرآن الكريم بإعجازه البلاغى والعقدى والتشريعى والأخلاقى؛ وأضيف الإعجاز العلمى فى هذا العصر الحديث. وقد كُتبت عشرات الكتب فى إعجاز القرآن الكريم؛ **وثبت ثبوتًا لا يرتاب فيه منصف أن القرآن الكريم يستحيل أن يؤلفه إنسان فى ذلك العصر، ولا فى أى عصر آخر. فكل البشر، أممًا وأفرادًا، يعجزون عن الإتيان بمثله.** وكل ادعاءات الجاهليين التى رددها حسن حنفى وراء زمرة المستشرقين والملحدين هى ادعاءات ودعاوى زائفة. فبعد أربعة عشر قرنًا لم يستطع أحد تأليف آية واحدة!

ولقد نسف القرآن الكريم أسس الثقافة العربية الجاهلية، ومحا الشخصية العربية الجاهلية، وأعاد بناء الفرد والأمة بناءً جديداً، فى الفكر، وفى العمل، وفى النظم الاجتماعية: هدم الوثنية والشرك وأقام التوحيد، وأزال الظلم ووَطّدَ العدل، وخَضّدَ الأنانية وغرس الإيثار، وقاتل العصبية وشيّد الأخوة الإسلامية، وأدان القبلية وأسس

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٢٦.

الأمة، وقضى على التشرذم وأقام الوحدة؛ ولهذا قاومته الشخصية العربية الجاهلية أعنف مقاومة، وقالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا...﴾ (الفرقان: ٤٢) ولذلك ظل عدد المهتدين فى مكة قليلاً، بعد جهاد النبى ﷺ ثلاثة عشر عامًا فى الدعوة إلى الله، وعلى الرغم من تهافت الوثنية إزاء التوحيد!

هل النبوة متطورة ؟

– ولأنه يعتقد أن الأرض أو البيئة هى مَنْبت كل العقائد، وأن البيئة تتطور، فقد زعم أن النبوة تتطور وتتطابق مراحلها مع ظروف كل عصر. ولفظ "النبوة" هنا معناه الوحي المادى أى الكتب التى يُقال إنها سماوية والتى هى عنده من تأليف البشر، وليست النبوة بالمعنى الإسلامى السديد؛[١] فهو يجعل النبوة، أو الوحي، أو رسالات السماء، تابعة ومسايرة لظروف العصر، لأنها من تأليف بشر يعيشون فى بيئة معينة فى عصر معين، ويعبّرون عنه. فإذا حدث تطور فى البيئة، تطورت النبوة!

وهذه مغالطة مفضوحة. فالنبوة من آدم – عليه السلام – إلى محمد ﷺ عند المؤمنين بأنها وحي من السماء، وفى واقعها الحقيقى، كانت هى التى تهدم الواقع، وتزيله، لتبنى مكانه واقعًا جديداً، فى الفكر والاعتقاد، وفى العمل والتطبيق. وظلت هذه هى وظيفة النبوة والرسالات السماوية، وستظل، إلى يوم القيامة. فكلما انحرف المجتمع، وابتعدت ظروف العصر عن توحيد الله، وعن الاستسلام لأمره، كانت الرسالة، كما هى فى الكتاب والسنة، هى البوصلة الهادية إلى النجاة. وما المعارك المتواصلة بين الإسلاميين والعلمانيين فى العصر الحديث، إلا تعبيرات عن تلك الحقيقة الإسلامية. ولو كان الواقع فى حقيقته كما وصفه صاحبنا، لما بقى من الإسلام شيء بعد عصر الراشدين، وكثرة الأسباب الداعية إلى تغيير ظروف العصر. ولو كان الواقع كما توهمه لزال الإسلام من الوجود بسبب التغيرات العصرية الراهنة العميقة الواسعة الشاملة لكثير من جوانب الحياة.

ويظن المذكور أن ظاهرة "النَسْخ" تشهد له بأن الرسالات السماوية، أو النبوة حسب تعبيره، تتطور تبعًا لتطور ظروف العصر. والحقيقة التى يعرفها دارسو الإسلام

---

(١) راجع هامش كتابه: المقدمات ص ٦٠ .

تقول إن: "النَسْخ" -أولاً- لا يمتد إلى الثوابت المطلقة الخالدة في دين الله- الإسلام- من آدم - عليه السلام - إلى محمد ﷺ. و"النَسْخ" - ثانياً - هو توجيه الواقع وتطويره بالتدريج. فالأمر المهيمن دائماً هو الرسالة؛ والخاضع التابع هو الواقع. وتلك رحمة من الله تعالى بخلقه، أن يتدرج بهم نحو الكمال المنشود، ولا يكلفهم فوق طاقتهم بالقفز بهم من حضيض الشهوات إلى سماء الالتزام والطاعة.

وأسباب النزول أيضًا لا تشهد له بما زعم. فقد نزل القرآن الكريم مُنَجّما، سورة فسورة، وأحيانًا آية فآية، أو بضع آيات؛ وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، وذلك ردًا على الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢) فكلما استشكل أمر، نزل القرآن، فصحح عقيدة، أو قوم وضعًا خاطئا، أو أيد عرفًا سديداً، أو أدان عادة سيئة كانت مألوفة. وفى هذا كله، كان التنزيل هو الآمر، والموجه، والواقع هو الخاضع. لكن المجتهد الماركسى يريد أن يقلب الحقائق، ويشوش عليها، ليصل إلى غايته الخاطئة.

رفض القرآن الكريم كمرجعية للفكر :

ونتيجة لاعتبار القرآن الكريم عملاً بشريًا، معبراً عن ثقافة عصره؛ والعصور تتطور؛ فإنه لا يصلح ان يكون مرجعاً للفكر اليوم. ولذلك وجدناه يقرر أن أخطر الأخطار على فكرنا اليوم هو منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، ذلك: "الذى يعتمد على سلطة الكتاب (أى القرآن الكريم)، أو سلطة الموروث، (أى الحديث الشريف). يقوم هذا المنهج (منهج: "قال الله" و"قال الرسول") على افتراض أن جميع الحقائق والمعارف قد وُضعت مسبقًا فى مصدرها، أُعْطِي للبشر أو لم يُعْطَ، فى صورة علم إلهى، أو لَوْحٍ محفوظ، أو قَدر مكتوب. وعلى الإنسان أن ينتقى منه صورة لواقعه. هو مصدر حَوَى كل شيء: ما حدث، وما يحدث، وما سيحدث."(١)

وهو يدين الحركة السلفية لاعتمادها على الأدلة من الكتاب والسنة - على منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، واستشهادها بالحجج النقلية - (يعنى القرآنية والحديثية) - وحدها دون إعْمال للحس أو العقل.."(٢)

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٨١-٨٢. (٢) المقدمات؛ ص ٣٩٠-٣٩١.

فهو يرفض اللوح المحفوظ الذى أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج: ٢١، ٢٢) وهو عقيدة قرآنية إسلامية لا ريب فيها!

والحركة السلفية حين تخاطب المسلمين (المؤمنين بأن القرآن تنزيل من ربٍّ العالمين) تخطئ فى رأى الأستاذ المذكور، لأنها لا تعتمد على العقل والحس. وهذا جهل فاضح منه؛ إذ كيف يطلب منا- مثلاً- أن نبرهن على وجوب المسح بالرأس فى الوضوء استناداً إلى العقل؟! ما دخل العقل والحس فى مثل هذه الأمور؟ نعم، إذا جادلنا الكفار بالإسلام لا يجوز الاستناد إلى منهج: "قال الله" و"قال الرسول"؛ ولكن إذا خاطبنا المؤمنين كان ذلك منهجًا مشروعًا، عقلاً وشرعًا. فالذين آمنوا بالقرآن الكريم يتحتم عليهم منطقيًّا أن ينصاعوا لأوامره وأن يستسلموا لمقرراته فى الاعتقاد والعمل. وفى مجال الدين الإسلامى وعلومه، المنهج الأساسى، السائد، والحاكم، هو منهج: "قال الله" و"قال الرسول". وليس لأحد أن يفرض على المسلمين واجبًا، أو يعفيهم من واجب إلا بهذا المنهج. وأما فى المجالات العلمية، فلكل علم مرجعيته الخاصة: فالعلوم الطبيعية تجارب؛ والتاريخ وثائق ... إلخ؛ ولكن إذا وَرَدَ فى القرآن شىء يتصل بأى مجال علمى، كالفلك - مثلاً- وجب على المسلم الأخْذ به واحترامه. وإذا حدث تعارض بين الدليليْن واستحال التوفيق بينهما كانت الهيمنة للدليل القرآنى.

وصاحبنا يريد أن يَدْرَأ تلك الأخطار عن فكرنا المعاصر، وذلك بالاعتماد على العقل. **وسنرى أن العقل عنده هو العقل المادى الذى قوامه مجموعة الفروض التى قامت عليها المادية عامة والماركسية خاصة؛ العقل عنده مجموعة أحكام مسبقة، وتحيزات، وأهواء طبقية وشخصية.**

وعنده أيضًا أن ابتلاءنا بالدكتاتورية قد نتج عن منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، وعن عقيدة التوحيد، لأن الطاغية السياسى يشبه الإله الواحد![1] (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.)

وهو يزعم هذه المزاعم دون أن يقدم أى دليل علمى أو دينى على صواب

---

(١) الدين والثقافة الوطنية، ص ٨٢.

مزاعمه. فكلامه مجرد مجازفات عديمة القيمة. وتاريخ الإسلام يشهد بأن المسلمين لم يعرفوا الطغيان السياسى إلا حين تخلوا عن منهج: "قال الله" و"قال الرسول"، ذلك المنهج الذى يقيم الحياة السياسية كلها على أساس من رضا الأمة، والشورى، والبيعة الحرة، ويقيّد الحاكم بعقد وشروط، كأجير، وتكون الشريعة هى المُطاعة، وهى الحكم، "ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق"، كما قال رسول الله ﷺ، لا فرق فى هذا بين الخليفة وعامة الناس. ولم يظهر الطغيان فى العصر الأموى ثم العباسى إلا بسبب هجر ذلك المنهج الإلهى العظيم.

وحتى فى مجال الفقه الإسلامى يرفض المذكور أن تكون المرجعية للقرآن الكريم، ويريد أن يقلب منظومة أصول الفقه لكيلا تكون الكلمة العليا للقرآن الكريم! يريد أن يكون القياس هو المصدر الأعلى للتشريع، يليه الإجماع، ثم السُّنّة، وأخيراً القرآن الكريم؛ وهو يعلم يقينًا أن القياس، والإجماع، لا مشروعية لهما إلا من القرآن؛ وكذلك السُّنّة؛ فالقرآن الكريم هو مصدر المشروعية لكل المصادر الأخرى، لكن الرجل لا يعير الحقائق الكبرى أدنى احترام!

والحق أن كلامه هنا ضرب من الهلوسة! وهو مستحيل التطبيق. وإنى لأتمنّى أن يقدّم لنا مسألة فقهية واحدة، يشرّع فيها استناداً إلى ذلك الفقه المقلوب! فإذا أخذ مسألة "مما لا نص فيه" - مثلاً - وأراد إعمال القياس، إلى أصل يقيس عليه؛ وهذا الأصل لن يكون سوى آيات القرآن الكريم أو أحاديث النبى ﷺ والإجماع، بصرف النظر عن كل التحفظات عليه، هو إجماع على نص من الكتاب أو السُّنّة، أو على اجتهاد. وفى كل الحالات يكون الكتاب والسُّنّة هما المصدريْن الأساسيين، والقرآن هو المانح للمشروعية لكل المصادر.(١)

وعلى النقيض مما صنعه الفقهاء المجتهدون، والمجددون، والعلماء، ورثة النبوة الحقيقيون، يقترح هذا المجدد المزوّر: "مقاومة النّص بالنّص، حتى لا تكون شرعية النص أحادية الطرف." فهذا فى وهمه يحقق له الهدف، الا وهو: "أن تكون المنفعة والضرر أساسًا للتحليل والتحريم."(٢) كان العلماء المسلمون المخلصون لدينهم

---

(١) المستصفى للغزالى ؛ ص ١٩٩ وما بعدها . وبخصوص القياس ص ٣٩٤ وما بعدها .

(٢) الحركات الدينية المعاصرة ؛ ص ١٣٥ .

يجتهدون للتوفيق بين النصوص التى تبدو متعارضة فى ظاهرها؛ وتراكمت خبراتهم العلمية، واتخذت شكل مناهج وأساليب علمية أصولية فى غاية الدقة والعمق؛ [١] لكن المجدد الشيوعى يبتغى عرقلة الرجوع إلى القرآن الكريم، وذلك بتضخيم ظواهر التعارض، واختراعها، وبذلك يقاوم القرآن بالقرآن، والسُّنَّة بالسُّنَّة، أو أحدهما بالآخر. وغايته القصوى: أن تكون المصالح هى مصدر التشريع؛ والمصالح عنده هى تطبيق الشيوعية؛ وهذا هو التجديد الفقهى الذى يبتغيه!

وهو يتخذ "العقل" مَطّية لبلوغ أهدافه الشيوعية. وفى هذا يقول إنه: "بدلاً من الاعتماد على سلطة النص (يعنى نص القرآن الكريم، والسُّنَّة المشرفة) يمكن الاعتماد على سلطة العقل، والثقة بمناهجه واستدلالاته ومنطقه. وعلى هذا النحو تتحول السلطة فى المجتمع من سلطة الأشخاص والكتب والنصوص، إلى سلطة العقل."[٢] وهذا هو الوصف الدقيق للسلطة فى المجتمع العلمانى. فهو يريد إحلال النظام العلمانى محل النظام الإسلامى؛ ويستبدل العقل بالكتاب والسُّنَّة، وبذلك يجدد للأمة دينها!

والعقل الذى يتبرقع به ويتشدق بمصطلحاته هو فى الحقيقة تحيزات ماركسية، وأهواء طبقية وفردية، وشهوات ومصالح مادية، وليس العقل العلمى الموضوعى الرصين، المحايد، الذى نفهمه من كلمة "عقل"؛ هو يريد ذلك "العقل المصلحى"، الذى سَادَ فى المجتمعات العلمانية الشيوعية والرأسمالية، وجَلَبَ عليها الخراب، وقد انهارت المجتمعات الشيوعية واندثرت؛ وما بقى منها يتحول عن الشيوعية، ويُرقّع قمصانه الحمر بكل الألوان، وإن تمسك باسم الشيوعية! ومع ذلك فإن الخراب والسقوط يهددها، فى كوريا الشمالية وكوبا والصين. وأما المجتمعات الغربية فقد نجحت ماديًّا، وفشلت معنويًّا؛ أعنى أنها لم تستطع أن تحقق السعادة لشعوبها، وابتُليت بمصائب وأوبئة فتاكة مثل: الجريمة المنظمة وغير المنظمة، والأمراض النفسية، والعصبية، والقلق، والاغتراب، وتدهور الأسرة، وانتشار "الإيدز" بسبب انتشار الفحشاء، وميلاد الملايين من أبناء السفاح، والتفرقة العنصرية، والإرهاب، والمخدرات والمسكرات، وما لا يحصى من المنغصات الفردية والجماعية.

---

(١) المستصفى ؛ للغزالى؛ ص ٥٢٢ وما بعدها .
(٢) الدين والثقافة الوطنية ؛ ص ٣٩ .

فليس صحيحًا أنه يمكن الثقة في العقل على النحو الذى أطلقه الأستاذ المذكور. فالعلوم الحديثة نفسها لا تدّعى لنفسها اليقين، وتقف عند حدود الاحتمال. وأما الفكر الفلسفى فهو آراء شخصية، ومنازعات مذهبية؛ هكذا كان منذ اليونان القدماء، وإلى اليوم. وقد أدى الاعتماد على العقل دون هداية الوحي إلى ظهور نظريات فى غاية الشذوذ، مثل نظرية المُثُل الأفلاطونية، ونظرية شيوعية النساء فى مدينة أفلاطون الفاضلة الخرافية، ونظرية الرِّق، ونظرية عقول الأفلاك، والعنصرية عند "نيتشه"، والغاية تبرر الوسيلة عند مكيافيللى، واستباحة اللواط والفحشاء وتقنينها فى الفكر المعاصر، واستباحة نَهْب إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، واستباحة إبادة الهنود الحمر؛ وأخيرًا استباحة تعذيب المعتقلين السياسيين العرب فى إسرائيل بحكم قضائى، وهدم منازل الأبرياء منهم فوق رؤوسهم انتقامًا من أبنائهم المجاهدين ضد الصهيونية! و"العقل المصلحى" الأوروبى والأمريكى يجيز هذا كله، ويراه "معقولاً!" لأن العقلانية هى المصالح، والمصالح المادية، القومية الأنانية! وحتى الحريات والديموقراطية يستعملها "العقل المصلحى" كأدوات ضغط ووسائل ابتزاز، ولا يراها رسالة إنسانية تستحق التضحية بالمصالح!

وكانت حصيلة تطبيق "العقل المصلحى" فى هذا القرن العشرين (١٧٠ مائة وسبعين مليون قتيل!) بحسب إحصاءات "برجنسكى" الموضوعية، فسمّاه بحق "قرن المذابح المليونية"!

رفض الثوابت القرآنية:

وعنده أن: "الخطر الأساسى فى فكرنا القومى هو ثباته وعدم ارتباطه بحركة التاريخ."[١] وهذا تعبير عن "النسبية" التى تزعم أن كل الحقائق والعقائد والقيم لابد أن تتغير بتغير الزمان ومرور الأيام. وتلك هى الفلسفة السوفسطائية القديمة، التى تَلَقّفها العلمانيون العرب عن أساتذتهم الغربيين لكى يقاوموا بها ثوابت الإسلام المطلقة الخالدة التى نَصّت عليها آيات القرآن الكريم. وعندما اكتشف الغربيون زيفها، أصر العلمانيون العرب على صوابها!

---

(١) الدين والثقافة الوطنية، ص ٩٠.

فعند العلمانيين، بحسب هذه الفلسفة، والمذكور واحد منهم، أن كل جيل لابد أن يكون أفضل من سابقه، لأنه يكون أكثر تطوراً. وعلى هذا يستنكر المذكور قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ...﴾ (مريم: ٥٩) ويصف مضمون هذه الآية – بعد أن أساء فهمه له أشنع إساءة!– بأنه: "تصور" يقوم على احتقار الذات، وعلى يأس من الحاضر، وعلى جهل بقدرات الجماعة، وعلى العجز التام، وعلى اليأس المطلق."[١] لقد فهم الآية الكريمة خطأ أنها تحكم بعجز الأمة المسلمة عن تجاوز السلف فى أية ناحية من نواحى الحياة! ولكن الآية الكريمة تتحدث عن بعض ذرية آدم ونوح وإبراهيم –عليهم السلام– وتخبرنا بأنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات. والآية التالية تشهد بأن بعض تلك الذرية كانوا من الصالحين، وتقول: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٠)

وغيرةً على النسبية ينكر المذكور الحديث الشريف القائل: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها –كتاب الله وسُنّتى." فمبادئ الإصلاح – إذن – ثابتة! وهذا يغيظ العلمانيين المشغوفين بالنسبية السوفسطائية. ولذلك وجدنا صاحبنا يطلق لنفسه العنان بسيل من الألفاظ البذيئة القاسية التى لا مكان لها فى سياق يُفترض فيه أنه علمى.

والحديث الشريف يتحدث عن المبادئ الثابتة المطلقة الخالدة فى العقيدة والشريعة، التى جاءت بها الرسالة، وأصلحت بها شؤون الأمة المسلمة: مبادئ التوحيد المنزه، البرىء من الشوائب الوثنية والتثليث، والتشبيه، والتجسيد والحلول؛ ومبادئ العدل الذى ينفى كل ظلم، لا فرق فى ذلك بين مسلم وكتابى؛ ومبادئ الإيثار التى محت الأنانية الجاهلية؛ ومبادئ الأخوة الإسلامية التى حلّت محل القَبَليّة؛ ومبادئ الوحدة التى أنشأت أعظم أمة وأقوى أمة وأرقى أمة عرفها التاريخ. ولا يتحدث الحديث الشريف عن الصناعة والتقنية؛ فمما لا ريب فيه أن الصناعة اليوم قد تقدمت تقدمًا هائلاً لا يمكن أن يُقارن بالصناعة البدائية فى بلاد الحجاز فى عصر النبوة.

---

(١) الدين والثقافة الوطنية، ص ٩٠.

ولا أحـد فـهـم أن المجـالات المادية، ومـجـالات الوسـائل، ثابتـة أو مطلقـة؛ فـتلك هى مجالات الإبداع والتطور الذى لا يتوقف. والحديث السالف لا ينفى قدرة الأمة على التقدم والتطور، كما فهم المذكور منه خطأً دون أدنى مسوّغ. والفلسفة المعاصرة تُقر بوجود الحقائق والقيم الثابتة المطلقة؛ ولذلك رفض النسبية عدد من كبار الفلاسفة الغربيين، منهم "هسرل" Husserl و"شـيللر" Schiller و"هـارتمـن" Hartmann ولكن عـداء العلمـانيين العـرب للإسـلام، ورّطهم فى الإصـرار على النسبيـة ورفض المذاهب المضادة لها عند أساتذتهم أنفسهم!

إنكار آيات الصفات :

ويمعن الفقيه الشيوعى فى رفضه للقرآن الكريم فيستنكر وَصْفه لله تعالى بأنه سميع وبصير. وهو يصرح بأننا نحن الذين ألّفْنا تلك الآيات، فيقول : "تصورنا الله على أنه شخص.. وأعطينا الله صفات الإنسان، وجعلنا له سمعًا وبصرًا، ويدًا وجنبًا وساقًا، ينزل ويصعد، يغضب ويفرح."(١)

"والحق أن تسمية الله تعالى توقيفية-أى يتوقف إطلاقها على الإذن فيه، وذلك للاحتياط، احترازًا عما يُوهم باطلاً، لعِظَم الخطر فى ذلك." (٢)

هنا يوضح اعتقاده أننا نحن المسلمين (والنبى محمد على وجه التحديد) الذين ألّفوا تلك الآيات التى تصف الله تعالى بهذه الصفات، وليس الله تعالى هو الذى وصف نفسه بها؛ فالقرآن – إذن مرة أخرى – تأليف لا تنزيل. وتلك عقيدة مشركى مكة الجاهليين!

والمسلمون جميعًا يؤمنون بهذه الصفات الإلهية التى وردت فى القرآن الكريم؛ وهم يعلمون أنها لا تُشخّص ولا تُشبّه، كما قد توحى ألفاظ اللغة البشرية الناقصة (القاصرة). فالله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وكل من ينكرها ليس بمسلم يقينًا، وبلا خلاف بين أهل القبلة؛ وليس بعالم، بل جاهل؛ وليس بمجدد، بل مخرب؛ وليس وريث أنبياء الله تعالى، بل وريث مسيلمة الكذاب والأسود العنسى!

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص٨٦ .

(٢) المواقف ؛ للإيجى؛ ص ٣٣٣ .

إنكار آيات العقائد :

وبمنتهى النزق قرر المذكور: "أن العقائد أهواء. والنصوص تقنين لهذه الأهواء، وتشريع لها."(١) وهكذا بخبطة واحدة، ودون تمييز أو تصنيف للعقائد والشرائع يقرر أنها أهواء؛ وهي أهواء للقائلين بها. ومعنى هذا أن القرآن الكريم، والآيات الكثيرة التي تتضمن عقائد الدين الإسلامي، هي– عنده – تقنين لأهواء حمد بن عبد الله. ولذلك قُلتُ فيما سبق إنه ينكر كل عقائد الإسلام، ولا يجتزئ منها–أي أنه لا ينتقي أية عقيدة أو يؤمن بأية عقيدة، بل ينبذ كل العقائد....، وإن كان الاجتزاء أسوأ من النبذ الكامل، ومن الكفر الصريح، لأنه أداة خداع وغش للمسلمين. وهنا يتأكد ما سبق أن قلناه من أنه يُكذّب النبي ﷺ.

وهو يفسر الإيمان بالله، وعقائد الدين عامة، فيقول إنها: "تنشأ نشأة تجريبية خالصة، نتيجة لظروف اجتماعية معينة، عندما يبدو الإنسان خائفاً من عدة أشياء، فيتحول الخوف إلى عجز وعدم قدرة على المواجهة، ثم يتحول الخوف والعجز إلى تقديس لدَرْءِ الخطر، أو لجلب النفع، وفي النهاية يتحول المقدَّس إلى مُحرَّم."(٢)

وهو لا يبيّن للقارئ مصادر هذا التفسير لنشأة عقائد الدين، فيظن أن المذكور هو مخترعه؛ والحق أنه ناقل غير أمين عن علماء الاجتماع الأوروبيين الملاحدة الذين يكنّون عداءً شديداً للمسيحية والكنيسة، وردّدوا هذا التفسير الإلحادي في كثير من كتبهم.

والواقع المعاصر يبطل هذا التفسير. فالإنسان الآن يملك قدرات هائلة، ويتحكم في عالمه إلى حد بعيد، بعد التقدم العلمي والتقني المذهل؛ ومع تقدمه يزداد الإيمان الديني انتشاراً. وصَدَقَ العقاد حين قال إن القرن التاسع عشر كان عصر الإلحاد، في حين أن القرن العشرين هو قرن الإيمان.

النسبية :

ولأنه لا يستطيع إعلان إنكاره للعقائد بصراحة تامة، ومباشرة، لا هو ولا رفاقه الشيوعيون فإنه يعتقد أن من الممكن القضاء عليها عن طريق إعادة تفسيرها على نحو

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ٣٥.

(٢) نفسه؛ ص ٧٩ – ٨٠.

يلبى مطالب العصر، وهى عنده المطالب الشيوعية؛ فهو يزعم أن: "كل التفسيرات ممكنة إذا كان فيها تلبية لمطالب العصر، فلا توجد صحة نظرية بقدر ما هناك من فائدة عملية."(١)

وهذا الكلام يفترض أن آيات القرآن الكريم وأحاديث النبىﷺ تتسم بعدم التحديد، أو أنها "مرنة"، أو حتى "صلصالية"، بحيث يمكن تفسيرها بحسب رغبة المفسر؛ ومن المؤسف أن معظم العلمانيين العرب نقلوا هذا الفرض عن المستشرق "جوستاف جرونباوم"؛ فالإسلام عنده مجموعة من النصوص الغامضة بدرجات متفاوتة، ويمكن أن تُفسر على نحو يجعلها توافق أية ثقافة! (٢) ومن هنا ظن المذكور أن بوسعه إنطاق القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية بمبادئ ماركس ولينين، وتيتو وعبد الناصر!

وحين حاول "إعادة التفسير" اصطدم بالحقيقة القرآنية، وعَجَزَ عن تفسير أية آية تفسيراً علميًّا موضوعيًّا منضبطًا بما يخدم الشيوعية أو مطالب العصر؛ فراح يُلقى الكلام على عواهنه، ويُنكر آيات العقائد، ويُكَذِّب النبىﷺ ويتورط فى كل خطأ ممكن. ولم تسعفه الماركسية، ولا علوم الاجتماع، ولا نظرية سوسيولوجية المعرفة، ولا النسبية السوفسطائية، ولا المستشرقون، **وظلت آراؤه مجرد مجازفات لا أساس لها ولا سند، تشبه أن تكون صراخًا أو هُتافًا بسقوط الإسلام وانتصار الشيوعية ولا تشبه العلم ولا الفكر ولا الأدب!**

أمثلـــة :

والأمثلة على مجازفاته عديدة. من ذلك قوله إن: "العقائد لها معنى نمطى فى تاريخ الأديان، وهى أنها ضد العقل، فوق العقل، سر لا يمكن إدراكه بالعقل، بل إنها على نقيض العقل، بل وربما أيضًا على نقيض الأخلاق، وضد الطبيعة، ولهذا يؤمن بها الناس."(٣)

---

(١) المقدمات؛ ص ٤٥.
(٢) راجع مريم جميلة؛ الإسلام والتحديث؛ الإسلام حضارة؛ (بالإنجليزية) P.205
(٣) المقدمات؛ ص ٧١.

وإذا كانت العقائد هكذا،وكان هو مُصراً على الاعتماد على العقل، فالنتيجة هى استحالة بحث أية عقيدة بالعقل. لكنه بَحَثَ وكَتَبَ عن عقائد الإسلام معظم كتبه. وكتابه الكبير عنوانه: "من العقيدة إلى الثورة"؛ فَلَعَلّه كتبها بغير عقل. وهذا هو الأرجح؛ فمضمونها هلوسات!

وقد زعم أن عقائد الدين تناقض الأخلاق؛ لكنه لم يعرفنا بمفهومه للأخلاق، ولم يقل كلمة واحدة لشرح ذلك التناقض المزعوم بين الأخلاق والعقائد الدينية!

ولم يبين كيف تكون العقائد الدينية ضد الطبيعة !وكيف يؤمن الناس بعقائد الدين وهى معيبة بكل هذه المعايب؟! إن الإنسان العاقل لابد أن يرفضها!

ولكن الواقع يشهد بأن أعاظم الفلاسفة والمفكرين كانوا مؤمنين؛ وقد أنفق بعضهم حياته كلها فى سبيل عقائد الدين. ومع التقدم العلمى يزداد الإيمان بعقائد الدين انتشاراً.

وعلى الرغم من أخبار العودة العالمية إلى الدين، وبخاصة فى العالم الإسلامى، فإنه يزعم أن ثبات العقائد الدينية: "أدّى إلى رفضها-كليةً ! ..."[1]

لذلك أقول إن المذكور يصرخ، ولا يفكر. وآراؤه أقرب إلى الهوس منها إلى الفكر والعلم !ويبدو أنه يعيش فى عالم خاص، وهو يُجرى فيه ما يشاء!

إنكار وجود الله :

ومن مجازفاته أنه بدأ من بحث حول لفظ "الوجود"، لكى ينتهى إلى القول إن: "الإنسان وحده هو الموجود حقيقة، وكل ما سواه موجود بالمجاز ... سواء العالَم أم الله."[2] والفلسفة القديمة والحديثة أثبتت وجود الله تعالى بمناهج عديدة. وكُتُبْ علم التوحيد التى رجع إليها زاخرة بالبراهين على وجوده تعالى. لكن سطوة الفلسفة المادية، والماركسية الملحدة، أعْمتْه عن كل تلك الكنوز، فلم يخرج منها إلا بالتراب والحصى!

وهو يزعم أنه معتزلى. وهو مبطل فى زعمه. فالمعتزلة كانوا مؤمنين. لكنه أعرض عن براهينهم كلها، ولم يعجبه إلا لفظ "الوجود" وتحليله لكى يخرج منه

(١) المقدمات؛ ص ٧١-٧٢.

(٢) نفسه؛ ص ٤٥-٥١.

بإنكار وجود الله! بل وإنكار وجود العالم أيضاً! فالإنسان، الموجود الوحيد – عنده – وهو الذى خلق نفسه بنفسه! وهو يعيش فى غير عالَم، وبلا أرض ولا سماء ولا هواء ولا ماء!

ولْنرْجع إلى كتاب "المواقف" لعبد الرحمن الإيجى، ولْنبحث عن براهين وجود الصانع، جل جلاله، وسنجد عدة براهين، فيها بساطة ووضوح وكفاية: "فالعالَم مخلوق؛ ولم يكن موجوداً، ثم وُجد؛ وكل مخلوق له خالق. هذا برهان. وبرهان آخر يقول: العالَم ممكن الوجود، لأنه مركب وكثير. وكل ممكن لابد له من علة مؤثرة أخرجته من الإمكان إلى التحقيق. وذلك هو الله الخالق الصانع. وبرهان ثالث. فنحن نشاهد النطفة تنقلب إلى عَلَقَة، ثم مُضْغَة، ثم لحما ودماً، ولابد لحدوث ذلك كله من وجود الصانع الحكيم المدبر".

ولاشك أن هذه البراهين تثير قضايا نظرية عميقة وواسعة. لكن الفطرة البشرية، وطبيعة العقل نفسها تشهد بسلامتها، وتقْبلها، وترفض ما سواها كقول صاحبنا إن الله والعالَم موجودان وجوداً مجازيًّا، غير حقيقى!!

لكن الانحياز المسبق للماركسية الملحدة يدفعه دون وعى إلى العزوف عن الحقائق والجرى وراء الشكوك، والاندفاع إلى تقريرات متهوسة عن العالَم وخالقه جل جلاله. ويزيد مجازفاته فُحشاً إصراره على وصف نفسه بأنه فقيه عالم مجتهد مجدد!!!

إنكار الآيات التى تثبت وجود الجن والشياطين :

وهو ينكر الآيات العديدة التى أثبتت وجود الجن والشياطين، ولا يعيد تفسيرها كما فعل بعض العلماء لإسباغ المعقولية عليها. فهو يتساءل: "هل هناك جن وشياطين؟" ثم يُعْرب عن استنكاره لإثبات العلماء المسلمين لوجودهما ويقول: "ولكن العجيب أنه بعد هذا الحديث كله عن العلم والفيْض والمعقولات تنتهى نظرية الوجود (عند علماء التوحيد) بل والمقدمات النظرية كلها بخاتمة عن "الجن والشياطين"، وهو ما ترسّب فى وجداننا القومى عندما غاب العقل وحضر الجن والشياطين!" (١)

---

(١) المقدمات؛ ص ٦٢٢.

فإثبات وجود الجن والشياطين استناداً إلى الآيات القرآنية العديدة التى أثبتت وجودهما، وَوَصَفَتْهما، يتنافى في وَهْمه مع العقل والعقلانية. (ورد لفظ الجن فى القرآن الكريم ٤٠ مرة، وورد لفظ الشيطان ٦٨ مرة) [١]

العلماء المسلمون آمنوا بالقرآن الكريم ككتاب منزل "لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه". وآمنوا بوجود الجن والشياطين كما وصفهما القرآن الكريم. وهذا هو الموقف العلمي الوحيد المتسق. ولا بأس بعد ذلك فى الاختلاف حول الآيات المذكورة تأويلاً وتفسيراً، ضمن قوانين التأويل وأصوله. أما صاحبنا فيعلن أنه وريث النبوة، ثم ينكر كل الآيات القرآنية التى جاءت بها تلك النبوة، لأن عقله المادى لا يستسيغها اوتفسير موقفه فى ضوء الحقائق السابقة هو أنه لا يؤمن بالقرآن الكريم أصلاً ككتاب منزل، ولا يصدّق بنبوة محمد ﷺ. وهو يشير إلى أن تلك الآيات تعبير عن قوى الشر وتشخيص لها فى صورة فنية .[٢] وهو يرد ذلك إلى غيبة التفكير العقلى لدى العرب، الذين اخترعوا القرآن والجن والشياطين! وهكذا تتسق مواقفه كلها مع عقيدته الماركسية المادية المعادية لكل الأديان والنافية لوجود الله تعالى، ولكل العقائد القرآنية، من بعث وحساب وجنة ونار، وجن وشياطين وملائكة ورُسل وأنبياء ورسالات سماوية ونُبُوّات، وكل العقائد الدينية. وهذا الاتساق يؤكد صحة تفسيرنا لكلامه وآرائه.

إنكار آيات الخَلْق من عدم، وإنكار القيامة :

وهو ينكر الآيات القرآنية التى تقرر أن الله تعالى خلق كل شىء من لا شىء؛ وهو يُسمّى "عقيدة الخلق القرآنية" : "نظرية الخلق من العدم"، المشهورة فى الفكر الكونى التى تشير إلى البداية الجديدة المطلقة، وإلى خروج الشىء من اللاشىء.."[٣] ولفْظُ "نظرية" يشير إلى الافتقار إلى اليقين، وهو بعد ذلك يقرر أن عقيدة خلق الله تعالى لكل وجود تمثل تطوراً سلبيًا لعقيدة التوحيد. فهو يقول إنه عندما انهارت الحضارة الإسلامية: "تحول التوحيد إلى عقيدة خَلْق العالَم على أسس تشبيهية

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٢) المقدمات ؛ص ٦٢٣ .

(٣) الدين والثقافة الوطنية ؛ص ١٤٧ .

(يعني: تشبيه الله بالإنسان)، فأصبح الله صانعًا، يخلق من عدم، ويُخرج الشيء من الشيء كما يفعل السحرة والحواة... ثم تصورنا العالَم على أنه فانٍ، زائل، هُراء، هباء منثور..."(١)

بهذا الأسلوب المُسف الهابط كتب عن عقيدة الخلق، والقيامة. فهذه العقائد اخترعها العرب، أو المصريون والعرب، في عصور الانحطاط، وليست مُنزّلة في آيات من السماء. وهذا يعني ضمنيًا أن العالَم عنده ليس مخلوقًا، بل ليس موجودًا أصلاً إلاّ مجازيًا! (كما سبق أن بينا). وبهذا ينكر عشرات الآيات التي أثبتت خَلْق الله تعالى لكل المخلوقات، و: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص: ٨٨) وهو ينكر القرآن كله من أوله إلى آخره؛ وإنكار آية واحدة كفر؛ ولذلك نكتفي بما أوردنا من النصوص القرآنية التي ينكرها.

رفض عبادة الله تعالى:

ومن الطبيعي والمنطقي أن يرفض المذكور عبادة الله تعالى. وكيف لا وهو يرفض الدين كله، بأصوله وفروعه؟!

وهو يدين علماء الإسلام الذين يحمدون الله تعالى ويثنون عليه سبحانه، ويدْعُونه، ويتضرعون إليه، والدعاء مخ العبادة، ويقول: "فالإنسان - من أولئك العلماء - يحمد الله على نعمه، ويشكره على فضله، مما يجعل العلاقة أحادية الطرف: من واهب إلى موهوب، ومن مُعْطِي إلى مُعْطَى إليه، وتجعل الإنسان مجرد وعاء للنّعم، ومُستقبل للعطايا، ومنتظر للجود والإحسان." ثم يقول إن: "حالنا لا يتطلب حَمْداً ولا ثناءً على أحد، بل يقتضي رفضاً واعتراضًا، مطالبة وثورة؛ نحن لا نحمد بل نتضجر، ولا نرضى بل نغضب، ولانثني بل ننقد، ولا نشكر فلا شكر على واجب، بل نثور ونطالب.."(٢)

ويقول أيضًا: "فإذا طلب الإنسان (المسلم) شيئًا فإنه يدعو كي يُستجاب له، ويسأل كي يُعطى له، فتكوينه النفسي قد تعود على السؤال والاستجداء، واعتاد على

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ١٤٨.
(٢) المقدمات؛ ص ١٠-١١.

الشحاذة والتسوّل. ولن يتغير الواقع عن طريق الدعاء، ولن يطعم جائع عن طريق الاستجداء، ولن يُنصر مظلوم عن طريق البكاء! الدعاء تعبير عن أمانٍ ورغبات، وليس تحقيقًا لها. هو حيلة العاجز، وفعل القاعد، وأسلوب القعيد." ويقول أيضًا: "إن الحصول على القوة لا يأتى بالدعاء للقوى، وباستجداء واهب القوة، بل يحصل عليها بالاستعداد، والحصول على القوة بالفعل."(١)

هكذا يرفض الدعاء، والثناء على الله، وحمده، وشكره، ويعتبر الدعاء لله تعالى تسوّلاً وشحاذة!

بل يعتبر الدعاء تملقًا لسلطان الله تعالى، ويرفضه! وفى هذا يقول: "وجيلنا جيل تغيير وثورة - الثورة الناصرية - وكُتّابه لا يتملقون السلطان الإلهى أو السلطان السياسى، بل يدافعون عن مصالح الشعوب ضد جميع السلاطين."(٢)

فهو يردّ الآيات العديدات التى تأمر بالدعاء لله، وحمده وشكره؛ وما أكثرها فى القرآن الكريم ! وهذا هو تجديده فى الدين: كان العلماء المسلمون يحمدون الله تعالى، ويدعونه ويتضرعون إليه، ويشكرونه؛ وأما هو فيرفض كل ذلك! وهذا هو "الإبداع" الذى يفخر به!!

ولم يقل أحد من المسلمين إن تغيير الواقع يتحقق بالدعاء دون عمل، كما يوحى كلامه. والدعاء تعبير عن رغبات وأمانٍ حقًا، لكنه ليس حيلة العاجز، بل منهج المؤمن الذى يعمل، ويجتهد لبلوغ أمانيه، وفى الوقت نفسه، يدعو الله تعالى أن يوفقه. وكذلك القوة، تكتسب بالجهاد والمثابرة والصبر، ومع ذلك كله، يدعو المسلم ربه، واهب كل قوة، وخالق كل قوة، أن يحقق له القوة التى يرجوها لنفسه ولبلاده وأمته. لكن المذكور يخلط الحقائق بالأباطيل، ويبتر الحقائق ويشوهها، ليشنع على الإسلام وعقائده وتشريعاته.

وهو يحذف بعض الألفاظ من جُمَله ليُدلّس على القارئ، ويراوغ الناقد، ويفلت من الحساب. فإذا قال: "نحن لا نحمد.." فإنه يحذف لفظ الجلالة، وفى الوقت نفسه يدرك القارئ حقيقة مراده، لأنه وضع نفسه فى تضادٍ مع علماء الإسلام

---

(١) المقدمات؛ ص ١٢.

(٢) نفسه؛ ص ٣٠.

الذين يحمدون الله تعالى، فيكون معنى الجملة: "نحن لا نحمد الله"! وإذا قال إن الإنسان: "يسأل كى يعطى"، فالجملة فى الحقيقة هى: "يسأل الله كى يعطيه الله"؛ وهذا عنده شحاذة وتسول. وهكذا تتسم بقية الجُمل بالحذف لألفاظ مُقدّرة فى السياق.

وهذا هو أحد التطبيقات العلمانية لما يسمونه: "البلاغة المقموعة"، أى القدرة على بيان رفضهم للإسلام دون التورط فى الرفض الصريح الذى يحرك الجبهة الإسلامية من العلماء والجماهير ضدهم. ولكن هذا الكاتب يندفع أحيانًا إلى الصراحة ويجازف بالمواجهة؛ من ذلك قوله إنه وزملاءه الناصريين "لا يتملقون السلطان الإلهى." فهذه العبارة واضحة الخطأ ولا يمكن أن يتلفظ بها مسلم، ناهيك عن الفقيه المجتهد المجدد وريث النبوة (الكاذب)! **والحق أنه وزملاءه لا يتملقون سلطان الله تعالى، لأنهم لا يؤمنون به أصلاً لكنهم تملقوا عبد الناصر وزُمرة العسكر الانقلابيين الذين حكموا البلاد بالحديد والنار، وتاجروا بالمواقف، وباعوا الضمائر، وألَّهوا الطاغوت، وخذلوا الوطن والأمة، وقادوا البلاد إلى الخراب والإفلاس والهزائم التى لا مثيل لها فى تاريخ الحروب.** وكان المذكور عضواً فى التنظيمات الناصرية، وكان يحرّض السلطات ضد الأحرار، لعزلهم، بحيث لا يبقى على الساحة سوى المنافقين المتملّقين للنظام العسكرى المستبد." ففى سنة ١٩٦٦، كَتَبَ فى أول مقال يخُطه بيمينه عن: "الإصلاح الجامعى"، طالب فيه السلطات بتكوين "طليعة المثقفين الثوريين"، و"عزل" جميع العناصر غير الناصرية، من الإسلاميين والرأسماليين والليبراليين، ليحتكر الماركسيون كل شىء فى الجامعات.(١) ولولا هذا التملق لما ابتعثته الثورة إلى فرنسا، ولولاه لما سمح له بالبقاء هناك عشر سنوات، حتى لو كان حاصلاً على ١٠٠٪ فى الليسانس!

● وبعد، فهذا هو علم حسن حنفى، وهذا هو فقهه وتجديده، وهذه هى أدلة وراثته للنبوة، وهذا هو إبداعه الذى فاق به الأولين والآخرين: إنه لا شىء سوى إنكار الإسلام عقيدة وشريعة، من منطلق التحيز لفروض الماركسية المادية الملحدة. وهو إنكار المنافقين الذين يُعلنون الإسلام ويُبطنون غيره، ثم يدورون ويراوغون ويحتالون

---

(١) الدين والثقافة الوطنية؛ ص ٢٢١.

ويخادعون للفرار من المواجهة الشجاعة مع الجبهة الإسلامية، ثم اختراقها وهدمها من داخلها. وقد نجح حسن حنفى فى ذلك، وحاضر فى كلية أصول الدين، وأعلن على لسان الشيخ شلتوت أنه لا وجود لحد الردة، وأمسك بميكرفون إذاعة القرآن الكريم ليتحدث عن كتاب حول القرآن الكريم! وحين أرادت اليابان أن تعّرف دبلوماسييها بالإسلام اختارت لهم "جهة رسمية ما" حسن حنفى ليقوم بهذه المهمة. وهذه واحدة من قرائن عديدة تثبت أن النظام الحاكم يساند هذا الرجل الذى يُخرّب فى الإسلام تحت شعارات الإسلام. وهذه المساندة هى التى مكّنته من ميكروفونات الإذاعة ومن مقعد الأستاذ فى أصول الدين، على الرغم من اعتراض البعض على ذلك.

● وصفوة القول إذن إن هذه الدراسة لا ترجو إعلام تلك الدوائر الرسمية بشىء لا تعرفه، ويُفترض أنها إذا عرفته عَدَّلت مسلكها تجاه ذلك المخرب المراوغ، ولكنها تتجه إلى الجماهير المسلمة لتعرفه، ولتعرف أىّ نوع من الإسلام يريد النظام الحاكم أن يسود، وأى نوع من الرجال يتقدمون فى بلاطه، و: "لله الأمر من قبل ومن بعدُ."

* * *

جابــر عصفــور
قراءة فى كتاب « الرهان على المستقبل »

النسبية:

هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها المؤلف على امتداد أكثر من عشر سنوات، ونُشرت فى صحف ومجلات مصرية وعربية. والموضوع المسيطر فيها هو القول بأن الحقيقة نسبية، ومن ثمة يجب أن تتاح الحرية المطلقة للباحثين "دون شروط خارجية ودون سقف تفرضه أية سلطة مغايرة لسلطة العلم المعرفية". (ص ١٣٨)

ومعنى هذا أن تخضع ثوابت الإسلام وأصوله، للنقد والمراجعة والقبول والرفض، وأن يُنظر إلى نصوص الكتاب والسنة على أنها نسبية احتمالية، يمكن رفض بعضها استناداً إلى بحوث نقدية أو نظريات جديدة أو إبداعات علمية وفنية. لكن الدكتور عصفور لا يصارحنا بالمضامين الخطيرة لمقولة إن الحقيقة نسبية، ولا يكشف عن آفاق "الحرية المطلقة" تحاشيًا للصدام مع الإسلام، وذلك هو ما يسميه "البلاغة المقموعة" التى تقوم "على التعريض والتلطف والتلميح والتورية"، وقد أصلوا لها قواعد تمكن بلغاء المقموعين من مواجهة الأراقم-يعنى أخابث الحيات!- دون أن يمكنها من افتراسه "وكيف يقول ما لا يقال دون أن يقطع لسانه أو يستخرج من قفاه". (راجع: مفتتح مجلة فصول - المجلد ١٤- العدد٣ خريف سنة ١٩٩٥).

ومن أساليب البلاغة المقموعة "الإشادة بأتباع المذهب المفضل للكاتب، وازدراء أتباع المذهب المرفوض لديه. و الدكتور عصفور يثنى على لويس عوض، وأدونيس، ويوسف شاهين، وحسن حنفى، وإدوار الخراط وجبرا إبراهيم جبرا وحيدر حيدر وونوس، وغيرهم. ومعلوم للقارئ أى الاتجاهات الفكرية يمثل هؤلاء. وفى المقابل يصف الشيخ رشيد رضا بانه "ضيق العقل فى الحوار، وداعية إلى التعصب فى شئون العقيدة"!

ورواد التنوير عنده هم: شبلى شميل وإسماعيل أدهم العالم الرياضى والفيلسوف والناقد الأدبى اللامع. ومعروف أن شميل كان ملحداً مجاهراً بإلحاده، وأن أدهم يفوق شميل فى إلحاده وجهره بالكفر بالإسلام (راجع كتاب: التنوير والإظلام للدكتور عصفور).

والبلاغة المقموعة تيسر للناقد أن يقول ما يشاء باستخدام أوصاف بدلاً من الأسماء. وكتاب "الرهان على المستقبل" ومقالاته الأخرى التى لم ينشرها فيه، تحمل بشدة على "النقل". ومعلوم للقارئ أن "النقل" لفظ يُطلق على الكتاب والسنة كما أن "العقل" لفظ يطلق على الخبرات البشرية؛ فإذا قيل للناقد ماذا تعنى بالنقل، قال إنه يعنى أخذ اللاحق عن السابق، وبذلك ينجو من المواجهة. لكن كتابات الدكتور عصفور تفيد أن المقصود بالنقل هو القرآن الكريم والسُّنّة النبوية المطهرة. وإن لم تنص على ذلك صراحة.

وهو يدافع عن الإبداع بحرارة، ودون كلل أو ملل، فى كتابه هذا وفى مقالاته وكتبه الأخرى. وهو يحمل بشدة على الذين يحرمون البدعة، ويدعون إلى اتباع السلف. ومعلوم أن المسلمين يحرمون البدع المُضادة لمبادئ الإسلام وشرائعه، لا كل بدعة، استناداً إلى حديث الرسول ﷺ الذى سنفصل القول فيه بعد قليل.

الدكتور عصفور – إذن – يرفض حديثًا صحيحاً للنبىﷺ وهو فى مأمن من المؤاخذة لأنه لم يذكر نص الحديث، ولم ينقده بالنص، أو هكذا يظن. وهو لا يكلف نفسه عناء البحث عن النص الكامل للحديث، وتفسيره لأنه دخل الموضوع، وقد عقد العزم مسبقًا على التهجم على أهل السنة الذين يكررون هذا الحديث فى خطب الجمعة!

وهو يشرح مذهب أهل السنة فيقول إنهم ينكرون كل بدعة، ويقفون ضد كل تجربة جديدة ويتبعون السلف الصالح، ويطيعون الله تعالى ورسوله. وهنا يقع فى خطأ التعميم، لأن أهل السنة لا ينكرون كل بدعة، بل البدعة التى تضاد العقائد أو الشرائع أو الحقائق الإسلامية. وهناك بدعة حسنة، وبدعة سيئة. والتعميم المتعسف آفة شائعة فى لغة الدكتور عصفور!

وفى القرآن الكريم وردت مادة "بَ دَ عَ" ثلاث مرات ليس فيها نهى عن البدعة ولا أمر بها. وفى السنة المطهرة جاء قوله ﷺ: "من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء." (أخرجه مسلم) والبدعة السيئة هى التى تتعارض مع السنة، "والتحقيق أنها إن كانت مما يندرج تحت مستقبح فى الشرع فهى مستقبحة وإلا فهى من قسم المباح، وقد تنقسم إلى أحكام خمسة".[١]

ومعنى هذا أن فى الإسلام: بدعة محرمة وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة، وبدعة مندوبة وبدعة واجبة. وهذا هو ما غاب عن ذهن الدكتور كلية.

وعلى هذا يمكن القول إن الإبداع العلمى والتقنى الحديث يقع ضمن البدع الواجبة أو المندوبة (مع مراعاة فقه الحال الذى يأخذ إمكانات الأفراد فى الاعتبار) والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وهذا الإعداد يتطلب ابتداع الأسلحة وتطويرها. وقد كان رسول الله ﷺ أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق – رمى أهل الطائف – واستخدم (الدبابة التى كانت عبارة عن ساتر خشبى ضد نبل الأعداء) قال ابن إسحاق رحمه الله فى السيرة: "دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه..."[٢]

وحين اقترح عليه سلمان الفارسى رضي الله عنه حفر خندق – وكانت تلك العملية بدعة حربية لم يعرفها العرب قط – أخذ باقتراحه ولم يقل إنها ضلالة!

وسار الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم على هذا الهدى القرآنى والنبوى الكريم. من ذلك مثلاً: أن الوليد بن هشام بن المغيرة قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما "يا أمير المؤمنين، قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا وجندوا جنداً، فدون ديوانًا وجند جنداً، فأخذ بقوله".[٣] فلم يقل عمر إن ذلك بدعة رومانية أو ضلالة أجنبية،

---

(١) فتح البارى؛ شرح ابن حجر للحديث رقم ٢٠١٠، جـ٤، ص ٢٥٣.
(٢) سيرة ابن هشام؛ جـ٢، ص ٤٨٣.
(٣) تاريخ الطبرى؛ جـ٤، ص ٢٠٩.

بل وجد فيها بدعة حسنة، فاقتبسها دون تردد. فسواء جاءت البدعة الحسنة من مسلم، أو من غير مسلم، فإن الأخذ بها واجب أو مندوب... والأصل القرآني لهذا الحكم هو آية الإعداد السابقة (الأنفال: ٦٠) وكذلك قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ (الأعراف: ٩٩) والعرف هو كل حق وعدل وصواب تعارف عليه البشر، وهو يشمل البدهيات والثوابت والمطلقات التي عرفتها أمم الأرض، في مجالات التشريع والأخلاق والعلوم، كما يشمل الحكمة التي هي ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، كما قال رسولنا الكريم ﷺ.

أما النظريات الفلسفية فهي وجهات نظر تفتقر إلى الوثاقة النسبية التي تتسم بها الحقائق العلمية. وبعض النظريات يعد بدعة سيئة لأنها تتعارض مع عقائد الإسلام، مثل نظرية التطور عند دارون والتفسير المادي للخلق. وعندئذ يثور العلمانيون من أتباع نظرية التطور، ويقولون إن الإسلام - والأديان السماوية كلها - ضد كل تجريب أو ضد كل إبداع.

فالإبداع في الإسلام ليس كما صوره الدكتور عصفور ضد الانفتاح على الآخَر، أو ضد التنوع البشري الخلاق، بدليل القبول السمح لكل ما لدى الغير من العرف، في عهد النبوة، وفي عهد الراشدين، وعلى امتداد التاريخ الإسلامي، وحتى هذه الساعة. وقد اقتبس المسلمون عن الفرس والروم والإغريق، وهم يقتبسون اليوم عن الشرق والغرب دون حرج. لكنه اقتباس نقدي يميز بين ما يتعارض مع الإسلام وما لا يتعارض معه. وكذلك الاتباع؛ هو اتباع نقدي، يميز بين الوحي الإلهي - أي الكتاب والسنة - وبين اجتهادات البشر التي تقبل المراجعة والأخذ والرد. هذه الحقائق الوطيدة غابت عن ذهن الدكتور عصفور فكانت آراؤه بعيدة عن الصواب.

ثقافة الاتباع:

ويزعم الدكتور عصفور أن الاتباع امتد ليشمل الفكر والثقافة والأدب. فهو يرى أن الاتباع في المجال الديني: "يؤصل نزوعًا يغلب على كل المجالات السياسية والاجتماعية والتعليمية والفكرية والإبداعية والإعلامية فيما أسميه ثقافة الاتباع". وهذا هو التعميم الذي يقول به دون أن يقدم دليلاً على وجوده أو يسوق مثالاً

يجسده. ويكفى أن نتذكر أن النصوص الدينية لا تشمل كل شيء، ولذلك وجدنا أعمالاً كثيرة وأنظمة أكثر لا تحكمها نصوص. وقد بحث العلماء فى حكم هذه الأعمال تحت اسم "ما لا نص فيه" أو العفو، وأخضعوه للمصالح المتغيرة.

والمجالات السياسية والاجتماعية والتعليمية والفكرية والإبداعية والإعلامية هى أوسع المجالات للتطوير والتغيير. وإذا عارض بعض الشعراء التجديد فى الشعر فذلك ليس بسند من الدين بل من قواعد الفن نفسه. وإذا اعترض البعض على النظم السياسية الحديثة فذلك بسبب بعض الجوانب التى تصادم الإسلام. وأين هى ثقافة الاتباع فى التعليم؟ ألم يقتبس الأزهر نفسه تقسيم التعليم من الابتدائى إلى الدراسات العليا دون نكير؟ ومن ذا الذى طالب المبدعين بالتزام القواعد القديمة لفنونهم؟ **إن الاعتراض الحاصل هو ضد استخدام الآداب والفنون لنشر الفحشاء والإلحاد بين المؤمنين. وأما الفنون نفسها فهى موضع تقدير من جانب المسلمين.** ومن المضحك أن الدكتور عصفور رافض لفكرة المسرح الإسلامى. ربما لأنها تنفى زعمه بأن الثقافة الإسلامية كلها ثقافة اتباع! بل إن المسلمين يطالبون بالتجديد فى بعض أمور الدين المتغيرة، ويعظمون العلماء الذين يعتبرونهم مجددين فى عصورهم، من أمثال الإمام الغزالى وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمودودى رحمهم الله تعالى.

فكيف يجوز زعم الزاعم بأن الثقافة الإسلامية ثقافة اتباع بالمعنى الشامل المطلق الذى أراده الدكتور عصفور؟

وليس صحيحًا ما يقوله من: "إنه لا جديد تحت الشمس. وما يفعله اللاحقون تكرار بأكثر من معنى لما سبق أن فعله السابقون". هذه مبالغة بكل ما فى الكلمة من معنى. حقًّا هناك ثوابت مطلقة خالدة فى الإسلام، وفى غيره من الأديان، وفى الثقافات الإنسانية كلها. ففكرة العدل مثلاً بوصفها جوهر التشريع، وأساس العلاقات الفردية والطبقية والدولية، هى مبدأ مطلق ثابت، يعلو على الزمان والمكان. ومبدأ احترام العقود والعهود قيمة مطلقة لا ينالها تجديد أو تطوير. وقد ثار العالم كله ضد الإدارة الأمريكية حين أخذت تتنصل من معاهدة كيوتو لصيانة المناخ. وفى المجال الإسلامى لم يكن فى عهد النبوة علم اسمه "علم أصول الفقه"، الذى أصبح من أعظم العلوم الإسلامية، ولم يكن هناك علم اسمه علم التفسير، وصار الآن علماً هائلاً

متجدداً. وأين تفسير الطبرى أو القرطبى من تفسير المنار أو فى ظلال القرآن مثلاً؟ وفى مجال الفقه أُضيفت مباحث جديدة فى المسائل التى طرحت فى العصر الحديث بعد الاحتكاك الكثيف بالشرق والغرب. ولن تكون مسألة الاستشهاديين الذين يفجرون أنفسهم ضد العدو الصهيونى آخر تلك المسائل. وهذا كله جديد وحديث.

وفى الفكر الفلسفى ثوابت لا تتجدد ولا تتغير كالقيم الأخلاقية. والمذهب السائد الآن هو المذهب المطلق absolutism الذى تمسك به عدد من كبار الفلاسفة الأوروبيين، منهم كانط وسيدجويك، وبتلر، ومور، وشيلر، وهارتمن، وغيرهم. وهذا لا يسوغ لأحد أن يزعم أن الثقافة العربية ثقافة اتباع! إنه إغفال الثوابت المطلقة الذى يقف وراء ذلك الزعم الباطل. والفلاسفة المعاصرون أنفسهم يأخذون الكثير عن القدماء.

ويخطئ الدكتور عصفور حين يخلط بين النقل والاقتباس. فالنقل كمصطلح إسلامى يعنى الأخذ عن الكتاب والسُّنّة فى ميدان الدين، لكن الاقتباس يعنى الأخذ عن أى مصدر. والنقل عن الكتاب والسُّنّة ليس نقلاً أعمى ولكنه علم له قواعده وأصوله ومجالاته، وحدوده.

ويخطئ حين يخلط بين الماضوية والإطلاق؛ فالماضوية صفة للمتغيرات، لكن المطلقات لا توصف بالماضوية، لأنها ليست زمانية. من ذلك - مثلاً - البدهيات المنطقية والقيم الأخلاقية. وقد ذكرنا العدل والوفاء بالعهود فيما سبق فلا داعى للإعادة. لكن الدكتور عصفور يتجاهل الثوابت متأثراً بنيتشه ونظرية التطور والنظريات المادية والتجريبية الحديثة.

الوجه الأدبى للتقليد

ويزعم الدكتور عصفور أن التقليد فى المجال الدينى أشاع التقليد فى المجال الأدبى الثقافى عامة. وهو يصف العقلانيين الرافضين للتقليد بأنهم "الذين يؤمنون بأولوية العقل فى المعرفة والحكم والتفسير، ويوجبون النظر فى المقبولات والمشهورات والتقليديات لمعرفة ما يلزم منها وما لا يلزم. وهم مبتدعون يريدون اكتشاف عوالم تظل فى حاجة إلى كشف، كما أنهم طوائف اجتماعية تسعى إلى المزيد من التحرر، ومن ثم اكتمال الحق فى الوجود". وفى التقليديين نقيض هذه الصفات!!

وبعبارة أخرى أوضح، هو يرى أن العقل يجب أن يسود على الوحي، بحيث إذا اختلفا وجب الأخذ بكلمة العقل ونبذ كلمة الوحي. والعقلانيون يجب أن يبحثوا فى العقائد الدينية والشرائع الإسلامية وغيرها، مستندين إلى العقل وهم الذين يقررون ما يلزمنا منها وما لايلزمنا. والمعيار طبعًا هو مصالح الناس فى هذه الحياة (هذا رأى الدكتور زكي نجيب محمود). ورواد العقلانية عند الدكتور عصفور هم شبلى شميل وإسماعيل أدهم ولويس عوض وأدونيس وغيرهم. وهؤلاء نظروا فى الدين وأعلنوا رفضهم له والشك فيه، وهذه هى مكتشفاتهم! وهى فى الحقيقة انعكاسات للفلسفات المادية السائدة فى أوروبا وأمريكا.

وهم مبتدعون بالمعنى السيئ للبدعة بتبنى مذاهب مادية وتقاليد أجنبية مضادة للأخلاقيات الإسلامية. والإسلاميون يجعلون كلمة الله هى العليا فى أى خلاف بين الوحي والعقل، ولا يرتابون فى عقائد الدين، ويسعون لبلوغ البدعة الحسنة الواجبة، ومحاربة البدعة السيئة بكل مجال، وقد قاتلوا المستعمر الأجنبى والظالم المحلى، وكانوا ضحية العسف الاستعمارى الأجنبى، والحيف الاستبدادى الوطنى. وعلى الرغم من ذلك يشكو الدكتور عصفور من القمع، وهو الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة فى مصر، وكتبه تطبعها دور النشر الحكومية وتوزعها، والمجالات كلها مفتوحة أمامه ليحاضر فى الندوات والمؤتمرات المحلية والعالمية فى حين يحرم الإسلاميون من مجرد إصدار مجلة أو جريدة، أو السماح لهم بالرد على العلمانيين.

وهو يفسر معارضة الشعراء العرب للشعر المنثور ومذاهب النقد الأجنبية بردها إلى الإسلام! والحق أن الشعراء العرب المعارضين للشعر المنثور إنما يفعلون ذلك استنادًا إلى طبيعة فن الشعر ذاته. وفيهم شعراء علمانيون ماديون وملاحدة كثيرون، كما أن فيهم مسلمين متمسكين بالإسلام. والإسلام لا يمنع الشعر المنثور أو النثر المشعور، كما لا يمنع اقتباس فنون الرواية والمسرح، لكنه يمنع استخدام الآداب والفنون للترويج للفحشاء ونشر الإلحاد. قال تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾
(الشعراء: ٢٢٤– ٢٢٧)

وذكر بعض المفسرين أن كبار الشعراء المسلمين، وهم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة، هرعوا إلى رسول الله ﷺ يتساءلون: يا نبى الله، أنزل الله تعالى هذه الآيات، وهو تعالى يعلم أنّا شعراء! فقال ﷺ: "اقرأوا ما بعدها: ﴿إلاَّ الَّذين آمنوا وَعملُوا الصَّالحَات وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثيراً﴾ أنتم! ﴿وَانتَصَرُوا من بَعْد مَا ظُلمُوا﴾ أنتم! وقال لهم أيضًا: "انتصروا ولا تقولوا إلا حقًّا، ولا تذكروا الآباء والأمهات" يعنى بسوء. وقال كذلك "إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه. والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل".

ولما سمع ﷺ بيت كعب بن مالك الذى يقول فيه:

جاءت سُخينة كي تغالب ربها وليُغلَبن مغالب الغلاب

قال: "لقد مدحك الله يا كعب فى قولك هذا" [1]... فليس فى الإسلام مانع من مخالفة التقاليد الشعرية، طالما كان المضمون الأدبى أخلاقيًّا ساميًا.

النقل:

ويعرِّف الدكتور عصفور النقلَ، فيقول: "إن النقل هو الأخذ عن السابقين، والتعويل على نصوصهم والاستناد عمومًا إلى النصوص القديمة السابقة فى الوجود والرتبة – بوصفها مبتدى العلم ومنتهاه ومصدر المعرفة وإطارها، منبع الحقيقة وأفقها". وهذا التعريف مفعم بالأخطاء:

فالنقل فى المصطلح الإسلامى يوضع فى مقابل العقل، أو الخبرات البشرية عامة. ففى الإسلام مصادر المعرفة البشرية هي: الوحى، والحواس، والعقل، والحدس. والنقل هو الأخذ عن الوحى، أى الكتاب والسُّنّة فقط.

وأما الأخذ عن السابقين فهو الاقتباس من أى مصدر إسلامى أو غير إسلامي. وفى معظم الأحوال تتسق مصادر المعرفة، لكنها قد تتعارض. وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الضخم فى "درء تعارض العقل والنقل" والمسلمون يجعلون كلمة الله هى العليا عندما يقع تعارض بين العقل والنقل، لأن النقل اسم آخر للوحي، أو نصوص الكتاب والسُّنّة المقدسة عند أهل القبلة.

---

(١) تفسير القرطبى، آخر سورة الشعراء – وسُخينة هى قريش.

أما الخبرات البشرية فليس لها قداسة، لأن البشر يصيبون ويخطئون، ولذاك اعتبر الإمام الغزالى أن أقوال الصحابة مصادر موهومة للعلوم الشرعية، لأنه يجوز عليهم الغلط والسهو، ولم تثبت عصمتهم، وقد خالف بعضهم بعضاً وهم قد أجازوا مخالفتهم.[1]

ونحن الآن نأخذ ببعض اجتهاداتهم التي نجدها متفقة مع النصوص وندع غيرها مما لا يتفق مع النصوص. وكذلك نأخذ من اجتهادات الأئمة وندع. وهذه الحقائق تثبت يقينًا أن تعريف الدكتور عصفور للنقل خاطئ مضلل.

وإن من المدهش أن الرجل يجمع النصوص المقدسة والنصوص البشرية معًا ثم يصدر عليهما حكمًا واحداً! أى أنه يساوى بين آية قرآنية ورأى فقيه أو أديب أو فيلسوف! كان المسلمين ينظرون إلى فلسفة الفارابى أو ابن سينا مثلاً كما ينظرون إلى القرآن الكريم، وينقلون عن الفلاسفة العرب الذين يسميهم هو أهل العقل الذين جعلوا الكلمة العليا للعقل فوق الوحي، فى كل مجالات المعرفة. والحق أن الفلاسفة العرب القدامى مقلدون لأفلاطون وأرسطو، وليس لهم فلسفة أصيلة. ولذلك لفظهم المسلمون لفظ النواة. ولم يعتبر علم الكلام علماً إسلاميًّا عند كثير من علماء المسلمين. أولئك هم "فراخ اليونان" كما قال ابن تيمية بحق!

ويزعم الدكتور عصفور أن أهل العقل ينتصرون فى فترات الاستقلال والازدهار وينتصر أهل النقل فى فترات الهزائم والانكسارات. لكنه عجز عن تقديم أى دليل على صحة زعمه. ونحن نقول إن عصر النبوة والراشدين كان عصر النقل وسيادة الوحي حيث لم يكن هناك فلاسفة ولا متكلمون، وكان فى الوقت نفسه عصر الانتصارات الكبرى، وعصر استقلال الأمة عن الفرس والروم، بل عصر فتح بلاد الفرس والروم.

وعلى امتداد التاريخ الإسلامى كان أهل النقل هم أصحاب الكلمة العليا فى حياة المسلمين مع وجود بعض المتفلسفين المقلدين لأفلاطون وأرسطو، وكانت الهزائم

---

(١) المستصفى ؛ مكتبة الجندى ؛ ص ٢٤٣ .

قرينة استبداد الأمراء والتناحر بين الحكام الطغاة المتمردين على شريعة الله والعاصين لأمره بالشورى والاعتصام بحبل الله. فالرابطة التى توهمها الدكتور عصفور لا وجود لها فى أى عصر، وإنما العكس هو الصحيح، أعنى أن إخضاع الوحي للعقل (ومعه أهواء البشر وشهواتهم) لابد أن يفضى إلى ضعف الأمة المسلمة وتمزقها، وأن وحدتها - وهى لا تتحد إلا على الإسلام - هى سر قوتها وازدهارها واستقلالها.

ويذهب الدكتور عصفور فى تحيزه لأهل العقل من الفلاسفة والمتكلمين إلى حد جعل العقيدة الدينية قضية عقل. والحق أن الإسلام يخاطب غير المؤمنين بمنطق العقل، لكنه يخاطب الذين آمنوا به بحقائق الوحي وأوامره.

والعقل يؤيد الإيمان بالله الخالق، الواحد الأحد، ويرفض الإلحاد الذى يزعم أن العالم قد خلق نفسه بنفسه! فليس للمسلم الذى آمن بالله أن ينظر إلى العقيدة كقضية، بحجة أنه من أهل العقل، فذلك يعنى أنه قد ارتد إلى المرحلة السابقة على الإيمان. ثم إن العقل البشرى يقود إلى الإيمان، لكنه يعجز عن بلوغ تصور سديد لصفات الله تعالى، ولا يستطيع أن يدرك أوامره فيحتاج إلى الوحي. وكيف يعرف العقل أن صلاة المغرب ثلاث ركعات والعشاء أربع، وأن الحج فرض مرة فى العمر، وغير ذلك من الواجبات؟!

وكيف يدرك العقل غيبيات الدين، وهو سجين الحواس كما قال كانط فيلسوف ألمانيا الأكبر؟ الدكتور عصفور يرى مع بعض المتكلمين أن الإنسان مُكلَّف بحكم عقله، لا بحكم الوحي وأن الله سيحاسبه على أعماله سواء عرف الوحي أو لم يعرفه، لأن العقل حجة الله على خلقه. والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥) لكن الدكتور عصفور يُغفل هذه الآية المحكمة ويتابع شواذ المعتزلة والمتكلمين. أما نحن فنرى بعقولنا استحالة المحاسبة على أساس العقل فى أمور هى فوق مستوى إدراك العقول والألباب. وتلك من رحمة الله تعالى بخلقه ونحن نشكره - عز وجل - على ذلك ونسأله أن يسبغ رحمته الواسعة على كل خلقه.

الإجمـاع :

إن الإجماع بحسب علم أصول الفقه الإسلامى هو "الإجماع فى جملة الفرائض التى لا يسع أحد جهلها" [١] ويستند الإجماع إلى نصوص متواترة، وأمور معلومة ضرورة بقرائن الأحوال.[٢] أو كما يقول الغزالى إن الصحابة "ما كانوا يجمعون إلا على أمر يكون قد ورد فيه نص"[٣] و الإجماع هو إجماع كل مجتهد مقبول الفتوى، كما يقول الغزالى أيضاً. فليس الإجماع بلا أساس من الوحي.

فماذا ينكر الدكتور عصفور من هذا الإجماع؟

يقول الرجل إن الإجماع "صفة ملازمة للتقليد والنقل والتسليم فى ثقافة الاتباع". وهذا القول باطل، لأن الإجماع ليس تقليداً، بل اعتراف جماعى من جانب علماء المسلمين بصحة عقيدة أو شريعة إسلامية جاء بها القرآن الكريم أو السُّنَّة الصحيحة. والتزام الإجماع النقل -أو الوحي- ليس عيباً فيه، بل هو المسوغ الشرعى لقبول المسلمين له. والتسليم الذى يرفضه الدكتور عصفور هو جوهر الإسلام. وعلى هذا يكون الإجماع مصدراً للمعرفة الوثيقة بالعقائد والشرائع الإسلامية. وإذا تأكد وجود إجماع صحيح فى أمر من أمور الدين، وجب احترامه والعمل به، لأنه يعبر عن حقيقة إسلامية. ولا يعيب المسلمين الوقوف عنده، بل يعيبهم مخالفته، لأنهم عندئذ يخالفون شريعة إسلامية مستندة إلى نص، فإذا جاء أحد المعتزلة، كإبراهيم النظام أو غيره وقال إن الإجماع ليس حجة، كان قوله دليلاً على سوء فهمه للإجماع.

الدكتور عصفور سعيد برفض إبراهيم النظام – المعتزلى – للإجماع، لأنه يريد أن تكون العقائد والشرائع الإسلامية نسبية متغيرة، ويؤسفه أن يوجد إجماع أصولى سديد، مستند إلى نصوص صحيحة، يؤكد العقائد والشرائع الإسلامية، ويحميها من تقلب الأهواء والشهوات البشرية؛ إنها عقائد وشرائع مطلقة، خالدة ثابتة، يتحتم احترامها والعمل بحسبها فى كل العصور وحتى يوم الدين. وهذا الإطلاق والثبات هو ما يغضب اتباع نظرية التطور وفلسفة "نيتشه" والسوفسطائيين القدماء.

---

(١) أبو زهرة؛ أصول الفقه رقم ١٨٧ .

(٢) الغزالى ؛ المستصفى ؛ ص ٢٠٨ .

(٣) نفسه؛ الفقرة رقم ٢٠٠ .

إن أقوال الدكتور عصفور عن ثقافة الاتباع بقصد النيل من الإجماع والتنفير منه، هي أقوال زائفة فى حكم الشرع ومنطق العقل، ولن أعيد القول فى سقوط النسبية التى يريد إحلالها محل ثوابت الإسلام، مكتفياً بما سبق قوله.

الإنسان الاتباعى:

ويستخدم الدكتور عصفور تعبير ثقافة الاتباع بمعنى الثقافة الإسلامية، لكى يستبيح لنفسه الطعن فيها بما ليس فيها! فالإنسان الاتباعى الذى يدينه الدكتور عصفور ويزرى به هو الإنسان المسلم الملتزم بالكتاب والسُّنّة المطهرة. ومن مطاعن عصفور قوله إن ثقافة الاتباع "ظلت تلوذ بمفهوم يهبط بالإنسان إلى الدرك الأدنى، ويحصره فى طبائع ناقصة تدعوه إلى الفتور والكسل". ذلك أنه افترض أن الإسلام يقول بالجبر المطلق وينفى حرية الإرادة. ومعلوم أن قضية الجبر قضية إنسانية عالمية، عُولجت فى الفلسفة وفى الدين وفى علوم الإنسان. ولم يتفق البشر على مذهب واحد، بل اختلفوا وتباينوا إلى أبعد الحدود. وكذلك اختلف المسلمون فى القضية فقال بعضهم بالجبرية وقال بعضهم بالحرية وقال بعضهم بمركبات ومفاهيم تتوسط بين الطرفين. وإذن فليس لعصفور أو غيره أن يلصق الجبرية بالإسلام وحده، ثم يشن عليه حملة شعواء؛ مدعيًا أنه يهبط بالإنسان إلى الدرك الأدنى! ذلك كله باطل، ولا أساس له، بل العكس هو الصحيح.

ويرفض الدكتور عصفور قول النبى ﷺ: "كل ابن آدم خطاء" ... "لأن هذه النظرة التى ترى أن ابن آدم خطاء بطبعه لابد أن تركن إلى الوصاية الدائمة عليه حيث تسلبه الحق فى أن يخطو فى علاقته مع غيره أو علاقته بالله خطوة واحدة مستقلة نابعة من ذاته أو من إدراكه الخاص". وهذا هو أسوأ تفسير للحديث الشريف! فالحديث الشريف يقرر بدهية لا مراء فيها وحقيقة إنسانية عامة، نشاهدها كل يوم بل كل ساعة، ويستحيل إنكارها. والحديث الشريف يذكرنا بهذه الحقيقة لكى يخفف عنا وطأة الإحساس بالذنب، ثم يدعونا إلى التوبة فيقول "وخير الخطّائين التوابون" ... وهكذا يفتح للمؤمن باب الأمل والرحمة على مصراعيه. وكون ابن آدم خطاء معناه أنه حر الإرادة،، يطيع الله تعالى أو يعصيه، ويفعل الخير والشر، ولذلك هو مسؤول

أمام إخوانه من البشر وأمام الله تعالى . . . لكن التحيز هو الذى دفع الدكتور عصفور إلى ذلك التفسير الخاطئ المناقض للبدهيات والحقائق فى حياة البشر الواقعية .

والعلماء الموضوعيون الباحثون عن الحقائق لا يخطفون حديثاً شريفاً ثم يسيئون تفسيره، ثم يبنون عليه تصورهم للإنسان فى الإسلام، ثم ينهالون على الإسلام تجريحًا وتشويهًا ورفضًا! كلا، إنهم يدرسون الآيات القرآنية العديدة التى ذكرت الإنسان، والأحاديث الكثيرة التى وصفته ثم يشيدون على كل ذلك نظرية إسلامية فى الإنسان . أما أسلوب الخطف فهو "بروبوجندا" لا وزن لها ولا قيمة فى عالم العلم المنهجى الموضوعى .

وبهذا الأسلوب غير العلمى يشير الدكتور عصفور إلى آية قرآنية، بل يفسرها أسوأ تفسير، ويذهب فى ذلك إلى تناقض مشين وتصادم قبيح مع بدهيات اللغة وحقائق العلم. يقول - عز وجل -: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ١-٢) والنفس اللوامة هى نفس المؤمن الذى يلوم نفسه ويعاتبها حين تقع فى الخطأ. .هى ضمير الإنسان والصوت الباطنى الذى يحثه على العمل الصالح ويؤنبه إذا أخطأ. لكن الدكتور عصفور يرى أن النفس اللوامة "تكرر ضلالتها من عصر إلى عصر وسقطاتها من جيل إلى جيل. .!" فمن أين جاء الرجل بهذه الشناعات التى تناقض ألفاظ الآية الكريمة؟! ألم يعرف معنى اللوم؟ أم يشعر يومًا بوخز الضمير؟ ولماذا لم يستند إلى أى مصدر علمى إسلامى فى تفسيره؟ بل لماذا لم يراجع أى معجم للغة؟ وما البديل الذى يقدمه لنا الدكتور الكبير ليحل محل تصورات الإسلام للإنسان؟ هل هو التصور المسيحى الذى يقول بالخطيئة الأولى؟ هل هو تصور فرويد السيكولوجى؟ هل الإنسان عنده ملاك لا يخطئ أبداً؟!

إن الرجل يرفض فقط، دون أن يشير ولو بكلمة واحدة إلى مذهبه فى الإنسان . وهو حريص على تشويه معنى النفس اللوامة، دون أن يلتزم بأى منهج علمى، أو حتى بألفاظ اللغة العربية .

● وبعد، فماذا تُسمى تلك الأقاويل؟ إنها ليست علمًا بأى معنى لكلمة العلم، وليست نقداً فكريًا أو أدبيًا من أى نوع. إنها كلام كثير مرصوص يفتقر إلى المنطق، وهى محاولة فاشلة للزراية بالثقافة الإسلامية والتصور الإسلامى للإنسان .

محمد حسنين هيكل
السقوط في جب التحيز

تحدث الأستاذ هيكل فى باريس حديثاً مطولاً عن مصر والعالم العربى، تعرض فيه بالنقد لشعار "الإسلام هو الحل"، الذى رفعه الإخوان المسلمون. وفى السطر الأول من كلامه عن هذا الشعار رفضه رفضاً باتًا. وقال: إن "الإسلام ليس الحل"؛ ونحن هنا نريد أن نرى ما فى كلامه من الحق والباطل، والصواب والخطأ، بموضوعية، ودون تحيز. ولا أمل عندى فى إقناع هيكل، وإنما أريد أن أضع الحقائق بين يدى القارئ المسلم، طالما أن كلام هيكل قد نشر فى مصر على أوسع نطاق، مع هالة من التعظيم لشخصه ولآرائه.

نص كلامه:

ولكى يشاطرنى القراء النظر والرأى سأضع نص كلامه حرفيًّا بين أيديهم، وبعد ذلك نشرع فى مناقشته.

يقول الأستاذ هيكل: "اعتقادى أنه فى مصر، وفى غير مصر من بلدان العالم العربى، أن "**الإسلام ليس هو الحل**"، وإنما هو النور والهداية التى يمكن أن ترشد إلى مواطن الحل. واعتقادى أن الإسلام –شأنه شأن كل دين مقدس– ضياء يغمر هذا الكون، ومن ثم يهيئ للعقل الإنسانى ممارسة حقه فى اختيار الحل، أقصد أن الشريعة الإسلامية–وكل شريعة دينية–لم تفرض سلفاً على المجتمعات كيف تدير علاقاتها مع غيرها، ولا كيف تدير أمورها الاقتصادية والاجتماعية، ولا كيف تحقق العدل والحرية والمساواة فى الفرص لأهلها، ولا كيف تستطيع تحصيل العلوم وامتلاك التكنولوجيا. وإنما الدين –كل دين– نور يضىء طريق المؤمنين به حتى يختاروا بإرادتهم الحرة ما يرون فى تلك المجالات وغيرها، ثم يكون حسابهم أمام خالقهم على استعمال عقولهم أو تعطيلها."

هذا هو النص الأساسى فى كلامه عن شعار "الإسلام هو الحل"، وتيسيراً على القراء أحدد القضايا التى يثيرها هنا :

(١) هو أولاً ينفى أن يكون فى الإسلام أى حل لأية مشكلة من أى نوع كان، من تلك التى تواجه مصر؛ بل هو يعمم حكمه ليشمل العالم العربى كله، ربما لأن شعار "الإسلام هو الحل"، قد انتشر فى العالم العربى؛ فهو يوسع من نطاق النفى ليشمل الرقعة نفسها، فيكون شعاره ضد شعار التيار الإسلامى وعلى مقاسه الجغرافى!

(٢) وهو ثانياً يقرر أن الإسلام مثل أى دين آخر، لا يزيد عن أى دين شيئاً؛ يعنى مثل اليهودية والمسيحية والبوذية والهندوكية. والشريعة الإسلامية مثل أية شريعة دينية أخرى، لا تمتاز بشىء ولا تتميز بشىء. وهو يؤكد هذا المعنى ويكرره ثلاث مرات فى هذه الفقرة.

(٣) وهو يقرر أن الإسلام هو النور والهداية التى يمكن أن ترشد إلى مواطن الحل بأية مشكلة. ومن الجلى أن " النور" هنا يستخدم مجازيًّا؛ كما أن طبيعة "الهداية"، لم تحدد؛ فلم يذكر مثلاً أنها قيم أخلاقية، أو مثل عليا، أو عقائد دينية، أو شريعة ونظم وقواعد. كذلك لم يحدد هيكل الحل، وهل هو نظريات فلسفية أو نظم بشرية وضعية رأسمالية أو اشتراكية، أو غير ذلك.

(٤) والإسلام عند هيكل ضياء يغمر هذا الكون، ومن ثم يهيئ للعقل الإنسانى ممارسة حقه فى اختيار الحل، وهو يشرح هذا فيقول إنه لم يفرض على المسلمين كيف يديرون مواردهم؛ يعنى الشريعة لا تفرض واجبات أو قواعد لاستثمار موارد الأمة وإدارة ماليتها؛ ولا بينت لهم كيف يمكن تحقيق العدل!

(٥) والإسلام كأى دين آخر يضىء الطريق للمؤمنين به لكى يختاروا بإرادتهم الحرة ما يشاءون.

(٦) وسوف يحاسب الله الناس على تعطيل عقولهم أو تشغيلها.

● ونحن نأخذ عليه أنه ينفى أن يكون الإسلام هو الحل تعسفيا، أى بدون براهين من أى نوع. وكان عليه، إن أراد التزام مناهج الكتابة العلمية الرصينة، المقنعة،

أن يقدم لقارئه أو سامعه قائمة بمشكلات مصر الأساسية، وأخرى بمشكلات العالم العربى، ثم يعرضها على الإسلام قرآناً وسُنّة، ويثبت أنه لم يجد حلاً لأية مشكلة منها. لو فعل ذلك لقدم لنا علماً، وتحليلات علمية لها وزنها، لكنه للأسف لم يفعل، وبدأ بتقريراته، ونفيه، دون أن يورد دليلاً من أى نوع! **وعلى هذا نقول: إن كلامه لا يعدو أن يكون مجرد مزاعم شخصية لا قيمة لها ولا وزن بمعايير المناهج العلمية. هى مجرد معارضة سياسية تعسفية للتيار الإسلامى من جانب رجل يعادى هذا التيار منذ خمسين عاماً**، حين كان هو المبرر والمسوغ لاستبداد النظام الناصرى الشمولى وعدوانه المتكرر على أصحاب الشعار الذى يعارضه هيكل اليوم! وسوف نرى بعد قليل أن الإسلام هو حقًّا وصدقًا الحل لمشكلات مصر والعالم العربى، وأنه قد حل، ويحل الكثير من هذه المشكلات، على الرغم من "الأخذ الجزئى" له فى مصر والعالم العربى والإسلامى.

إن الدين عند الله الإسلام:

والإسلام، على نقيض مزاعم هيكل، ليس مثل أى شريعة أخرى. فالإسلام دين يخاطب العقل، ويقنعه، ولا يلجأ إلى المعجزات؛ حتى الإسراء والمعراج المعجزة الكبرى لنبينا ﷺ، لم يكن المقصود منها إقناع الناس بصدق محمد؛ ولو أريد لها أن تكون كذلك لتمت نهاراً، لا ليلاً. من هنا وجدنا الإسلام يزدهر مع تقدم التعليم، فى حين تتهاوى الأديان الأخرى للسبب نفسه! والإسلام دين التوحيد المصفى، النقى، البرىء من كل شوائب التشبيه والتمثيل والحلول والتعدد والإثنية. ومن هنا كانت قدرته على مخاطبة المفكرين والمثقفين والعلماء المحدَثين، فى حين تنتشر الفلسفات الملحدة بين غير المسلمين.

والشريعة الإسلامية ليست مثل أية شريعة أخرى، من حيث شمولها لكل جوانب الحياة البشرية، ورعايتها للعدالة الاجتماعية، وقدرتها على رعاية الطبقات غير العاملة، والفقيرة، وعلى استيعاب كل جديد فى حياة الأمة المسلمة عن طريق الاجتهاد استناداً للأصول القرآنية والحديثية. ونحن نسمع عن مشكلات الزواج والطلاق فى أوربا وأمريكا، وكيف تمردت الشعوب على شريعة دينهم التى تمنع الطلاق وتعدد الزوجات، فاستعاضوا عنها بإباحية شاملة، امتدت إلى الزنا بالمحارم،

وإباحة فعل قوم لوط، وكل ضروب الزنا والبغاء؛ كما أن شريعتنا تخلو من أية تفرقة عرقية أو ثقافية ظالمة.

والشريعة الإسلامية تقدم للمسلمين دستوراً كاملاً، ونظاماً قانونيًّا شاملاً، وأخلاقيات وقيماً سامية، تضمن إنشاء مجتمع إنسانى رفيع، راق، آمن، سعيد، يعبد الله تعالى ويأمل فى جنته. وهى مطبقة جزئيًّا فى حياتنا الراهنة؛ وكانت سرًّا من أسرار النجاح فى هذه الحياة واستقرارها. فعلى هيكل أن يأتى ببرهان إن كان لديه برهان، على تساوى شريعتنا الغراء بالشرائع الأخرى، وهيهات أن يفعل!

النور والهداية:

والإسلام نور وهداية دون ريب، ولكن ليس بالمعنى المجازى المائع غير المحدد الذى أراده هيكل. الإسلام نور وهداية للمسلمين فى عقائدهم الدينية، وفى الشريعة السمحة العادلة، وفى أخلاق الإيثار النبيلة السامية. الإسلام نور وهداية يتجسدان فى تعاليم محددة، وشرائع، ونظم، وفضائل أخلاقية، تبين للمسلم كيف يفكر، وكيف يعبد ربه، وكيف يتعامل مع زوجته وأهله، وماله عليهم، وما لهم عليه، وكيف يتعامل مع الناس فى كل مجالات الحياة الاجتماعية والمادية والمالية، بحيث لا يظلم، وبحيث لا يُظلم، وبحيث يعرف الفرض والواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، فى كل قول وعمل. وكل مشكلة تواجه المسلم لها الحل الشرعى السديد المحدد. والجماعة المسلمة، كالفرد المسلم، تجد الحلول لمشكلاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية فى الكتاب والسُّنّة؛ ولها الحق، بل عليها واجب الاجتهاد لمعرفة الحلول للمشكلات المستجدة، على أصول الإسلام. فالنور والهداية والضياء ليست كلاماً إنشائيًّا فى الإسلام، بل له معناه المحدد بكل دقة. ولذلك نرفض محاولة هيكل الإنشائية الخطابية هذه لتمييع مفهومنا للإسلام وشريعته.

قضية العقل:

ولقد مس هيكل قضية العقل، ودوره، وصلته بالدين مسًّا سريعاً، وخاطئاً. والقضية قديمة متجددة؛ وفيها كتابات غزيرة وعميقة، منذ عهد الفلاسفة المسلمين القدماء كابن سينا والفرابى والغزالى وابن رشد، وقد أضاف المحدَثون الكثير، ابتداءً من جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده، ثم المودودى والندوى وسيد قطب والعقاد

والرافعي، وغيرهم. والقضية هي: ما مصادر المعرفة ؟ هل الوحي مصدر معترف به عند الكاتب أم لا ؟ وعند التعارض بين العقل، أو (التجربة البشرية عامة) والوحي، لمن تكون الكلمة العليا؟ مثلاً، إذا زعم العلم الحديث أن الأحياء لا تتولد من الجمادات، وقال الإسلام إن الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ (الأنعام :٩٥) فمن نُصدّق؟ أو كيف نوفق بين المصدرين؟ هذه القضية الواسعة الكبرى، المتشعبة، والخطيرة، يدلي فيها الأستاذ هيكل بكلام خاطئ لا أصل له، ولا قيمة، ولا وزن، فيزعم أن الإسلام ضياء يهيئ للعقل ممارسة حقه في اختيار الحل!

هذا مسلك مؤسف، ومُضلل! والعلم برىء منه؛ والفكر الموضوعى والتحليل المنهجى لايجيزانه ولا يعترفان به. ثم يشرح الأستاذ هيكل رأيه فى الإسلام والعقل فيتورط فى أخطاء علمية وشرعية جسيمة. فلقد أفرغ الشريعة من كل مضامينها. فليس فيها - بحسب زعمه - قاعدة تفرض على المسلمين كيف يديرون علاقاتهم مع غيرهم من المجتمعات؛ وليس فيها قواعد لتنظيم كسب الثروة المالية وإنفاقها واستثمارها؛ وليس فيها مبادئ تحدد مفهوم العدالة أو تحدد نطاق الحرية؛ وليس فيها كلمة عن العلم والتقنية!

ولبيان مضامين الشريعة الغراء التى تكذب هذه المزاعم يحتاج المرء - دون مبالغة - إلى مجلدات! فالعلاقات الدولية فى الإسلام فيها مراجع عديدة، كلها تستند إلى القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الصحيحة. وربما كان كتاب الشيخ أبى زهرة رحمه الله فى الموضوع من أحدث ما كتب فيها. وأما الحياة الاقتصادية والمالية ففيها مئات المصادر الحديثة والقديمة. وأنا شخصياً لى كتابان حول النظام الاجتماعى فى الإسلام؛ وهو نظام أساسه العدالة الاجتماعية، بمعنى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٨، ٣٩). والأخلاق بمعنى: العطاء بلا مقابل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الإنسان: ٩). وهذه المبادئ تحققت، ولا تزال تتحقق، فى الحياة الاجتماعية للأمة المسلمة، وفى حياة الأفراد وسلوكهم. وهى مصدر كل سعادة، وحل لكل مشكلة، ومرجع للحكم فى كل قضية، ومعيار لحسم أى خلاف، وهى سر تماسك مجتمعنا على الرغم من كل عوامل الانهيار.

فمضمون شريعتنا السمحة بالغ السّعة، والتنوع، والشمول، والعمق، وهى تغطى كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا. واحترامها يضمن لنا الرضا، والأمن، والقبول فى المجتمع المسلم، والأمل فى مرضاة الله تعالى فى الآخرة. وانتهاكها أو تجاهلها يفجر المشكلات والمتاعب لنا. لكن الأستاذ هيكل لا يرى من هذه الثروة المهولة شيئاً، وينكر كل مضامينها، ليقول لنا إن الإسلام نور يضيء الطريق، وكفى! ترى، هل يخدعنا بهذه الألفاظ أم يخدع نفسه ؟

ثم يقول إن الله تعالى سوف يحاسب الخلق على تعطيل العقل أو إعماله. ولكن كيف يحاسبنا الله تعالى بدون وجود قواعد تبين الحلال والحرام؟ وهل تعطيل العقل هو المعصية الوحيدة ؟ إن أبالسة البشر جميعاً لا يعطلون عقولهم، فهل يدخلون الجنة لمجرد تشغيل العقول؟! ألا توجد عقيدة يحاسب من يفرط فيها، ويثاب من يؤمن بها؟ ألا توجد فروض ومندوبات ومحرمات فى كل نواحى الحياة ؟ ألا توجد عبادات، لها أصول وقواعد؟

عند الأستاذ هيكل لا ذكر لشيء من ذلك! الحساب أمام الله على "العقل" فقط! وهو لم يقل كلمة واحدة عن كيفية تشغيل هذا العقل، ولا عن القواعد والمناهج التى تحرره من الشهوات التى تسيطر عليه وتقسره على أن يتحدث باسمها!

قضية حرية الإرادة:

ويكتب الأستاذ هيكل سطراً أو سطرين عن قضية الإرادة والحرية! وكلامه لايكاد يبين! وكما هو معلوم لدارسى الفلسفة، تعد قضية الحرية من أعقد القضايا، بسبب تعدد مجالاتها، واتصالها بالقضاء والقدر، الجبر والاختيار؛ وكذلك على المستوى العملى الواقعى، تتصل بالنظام السياسى والاجتماعى والثقافى ومدى سعة مجالات الحرية الفردية فيه... إلخ

ومن الجلى أن الإدلاء برأى فى هذه القضية يحتاج إلى مجال آخر أوسع من مجرد فصل فى كتاب. ومع هذا نقول إن كلام هيكل خاطئ، فضلاً عن أنه قاصر. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦) فالمسلم اختار الإسلام؛ والإسلام معناه الطاعة لله ورسوله؛ فإذا أمر بعمل أتاه راضياً، وإن لم يكن قد اختاره؛ وقد يكون يشتهى

ألا يعمله، أو يعمل ضده، لكنه يستجيب لأمر الله ويطيعه، ولا يرى فى هذا إلا الخير.

الإسلام هو الحل لهذه المشكلات:

(١) مشكلة الازدواجية الثقافية:

والآن نستعرض بعض المشكلات الكبرى التى تواجهنا والتى يحلها الإسلام، ولا يحلها أى نظام علمانى. ولعل أخطر المشكلات تتمثل فى "الازدواجية الثقافية" التناقضية، التى شقت صفوفنا إلى أمتين متعارضتين: أمة مسلمة، تأخذ بالإسلام كاملاً شاملاً، وأمة علمانية ترفض الإسلام، أو تقبل منه عناصر لا ترى فيها تعارضاً مع مذهبها العلمانى وترفض كل ما عداها. والحل هو تصفية الثنائية، وبلوغ الوحدة الثقافية (والتنوع داخلها). وهذا يقتضى أحد أمرين: فإما أن ننحى الإسلام، وإما أن ننحى المذاهب العلمانية. وتنحية الإسلام شبه مستحيلة فى أمة مؤمنة به، ولا ترى له بديلاً بحال.

ثم إن الإسلام يتسع لكل مزايا النظم العلمانية، كالديموقراطية وحقوق الإنسان، والتقدم العلمى. وتكلفة تنحية الإسلام باهظة. ونحن الآن نرى تجارب عديدة فى مصر والجزائر. والدماء تسيل بغزارة، والأموال تهدر عبثاً، والاحتقان العام يتزايد مع كل محاولة لتقليص المضامين الإسلامية فى التربية والتعليم، أو المساس بالإسلام فى الإعلام والثقافة. **فلا حل للثنائية إلا بالأخذ الكامل للإسلام، ونبذ كل ما يتعارض معه، ووضع حد للاجتزاء الخبيث الذى ينتقى عناصر ويجحد أخرى.** ومن المؤسف أن أقول إن السياسات الراهنة تتجه إلى تصفية الإسلام، لا العلمانية. ولذلك أتوقع أن تزداد المشكلة حدة، لأن الدولة تتجه بقوة ضد إرادة الجماهير على مستوى النخبة وعلى مستوى العامة.

(٢) مشكلة التبعية:

ويتصل بالمشكلة السابقة مشكلة أخرى هى مشكلة التبعية القومية والوطنية، وضياع الاستقلال. وهيكل نفسه يشكو من تبعية البلاد لأمريكا؛ ولم يقدم حلاً.

والتمسك بالإسلام كاملاً هو الذى يضمن لنا الاستقلال فى الفكر والعمل جميعاً؛ إن اعتناق البراجماتية – أى الفلسفة الأمريكية النفعية – سيلحقنا بأمريكا نظريًا، ثم عمليًا. وذلك خطر كبير، توجست منه دولة كبرى مثل فرنسا، وأعلنت الحرب عليه! وأمريكا لا تعترف إلا بمصالحها؛ وهى تملى إرادتها على الأتباع، بدون مناقشة، كما قرر هيكل فى مقاله. وهذه الشركات العملاقة، العالمية، شرعت تسيطر على اقتصادنا، وتمتص دماءنا. ومسلك الأتباع، لا الحلفاء، فى المنطقة يشهد بأنهم ضيعوا استقلال بلادهم، فهم يحاربون بالأمر، ويسالمون بالأمر، ويبذلون بسخاء بالأمر، ويقبضون أيديهم بالأمر! والترتيبات تتخذ لإخضاع العالم كله لإرادة أمريكا تحت مسمى "الكونية" ! والعمل يجرى على قدم وساق لاستبعاد العروبة والإسلام وإحلال كيانات جغرافية محلها، تسيطر عليها أوروبا وأمريكا وإسرائيل! ولا حل لهذه المشكلة إلا بالتمسك بالإسلام وعقيدته، وفكره، وتطبيق شريعته وأخلاقياته. والسعى للتكتل والتوحد والتعاون مع الدول العربية والإسلامية. ولسوف تحترمنا أمريكا ساعتها، لأنها لا يمكن أن تخاطر بمصالحها عندنا.

(٣) المظالم الاجتماعية :

ونحن اليوم نعانى من مشكلات الفقر والمظالم الاجتماعية التى أطاحت بنسبة هائلة من شعبنا تحت مستوى الفاقة، وحولت نسبة أخرى كانت مستورة، أو معدودة من الأغنياء، إلى دائرة الفقر. وتلك نتائج تجريب الاشتراكية، ومن قبلها الليبرالية الملكية. ولولا إيمان الشعب بالإسلام، بما يفرضه من تكافل اجتماعى وعائلى، وزكاة، وصدقات، لانهار المجتمع المصرى ودمرته القلاقل. وهذه الحقيقة هى التى جعلت الخبراء العالميين يتعجبون من استمرار تماسك المجتمع المصرى، على الرغم من كل المشكلات الاقتصادية العاتية. وهيكل نفسه كتب هذا يوماً، ولم يدرك أن الإسلام هو الذى يعالج آثار المظالم والفشل الاقتصادى، وغياب العدالة الاجتماعية، على الرغم من رفض الدولة الأخذ الكامل الشامل له. فالعاطل والعاجز واليتيم يجدون النفقات الضرورية من الأهل والأرحام والمزكين المنفقين.

(٤) المخدرات، من يحمينا منها؟

والإسلام هو الذى حل مشكلة المخدرات وإدمان الخمر للذين يحترمون شريعته من بنى جلدتنا. بل إن أعداداً غفيرة من شباب الإسلام ترفض التدخين؛ وبعضهم لا يشرب القهوة والشاى، ويصر على تناول المشروبات الوطنية. وأحسب أننى لست بحاجة إلى القول إن مشكلة المخدرات وإدمان الخمور، والجريمة التى تتصل بهما، هى من أخطر مشكلات العالم المعاصر، وأعقدها. وهى تستنفد جهوداً طائلة واعتمادات مالية باهظة وتلحق أضراراً مهلكة بالأفراد والجماعات، صحيًّا وأمنيًّا؛ والعالم يقف عاجزاً إزاءهما. هذه المشكلة العظمى حلها الإسلام حين حرم الخمر والخبائث على المسلمين وبذلك نجا منها كل مسلم ملتزم بدينه. فهل ينكر هيكل هذه الحقائق؟ هل يستطيع أن يقول إن الإسلام ليس الحل لهذه المشكلة؟

لقد حلها الإسلام حقًّا وصدقاً. وليس مجرد رهان على المستقبل. وهذا كفيل بإسقاط الزعم الرئيسى فى كلام هيكل؛ أعنى قوله: "الإسلام ليس الحل لأية مشكلة"، لقد حَلَّ الإسلام بعض مشكلاتنا، من الباطن، أى بالعقيدة والأخلاق، لا "من الخارج" بالشرطة، كما يفكر الأوربيون والأمريكيون، وقد لاحقهم الإخفاق. وهذا هو "ريمون كيندلا" سكرتير عام الإنتربول يستغيث لانتشال إدارات مكافحة المخدرات، من إدمان تلك المخدرات، التى تهدد المجتمع الدولى. وتشير إحصاءات الأمم المتحدة إلى أن تجارة المخدرات تبلغ ٤٠٠ مليار دولار سنويًّا، حسب كلام "كيندلا"؛ وهذا البلاء العظيم يتسبب فى ٥٠٪ من الجرائم فى المدن الغربية الكبرى. (الأهرام: يوم ٢ / ١٠ / ١٩٩٥) ترى ماذا كان يمكن أن يلحق بنا من المصائب، نحن أبناء العالم الثالث، الأميين، الجهلة بكل التدابير الوقائية؟ من المؤكد أن الأخطار كانت ستكون أضعافاً مضاعفة. وقد حاقت مثل تلك الأخطار بدول العالم الثالث غير المسلمة وأهلكتها.

(٥) من يحمينا من الإيدز؟

ثم نصل إلى مشكلة طاعون العصر، أعنى مرض نقص المناعة "الإيدز" وقد ذكرت مصادر طبية أمريكية يوم ٩ / ١١ / ١٩٩١ أنه بحلول عام ٢٠٠٠ سيكون فى

العالم حوالى ٤٠ مليون مصاب بالإيدز. وذكرت المصادر الطبية أن الدعارة تلعب دوراً كبيراً فى نشر المرض. وتقول المصادر الرسمية إن الفوضى الجنسية هى سبب الانتشار الوبائى للإيدز، لأن ٨٣٪ من حالات العدوى ترجع إلى الشذوذ الجنسى والبغاء والجنس الحرام والفحشاء.

ومن الملاحظات البارزة أن المرض محدود الانتشار بين المسلمين بسبب انضباطهم الأخلاقى. فإفريقيا جنوب الصحراء يحصدها الوباء؛ فى حين أن شمال إفريقيا يعد من أقل مناطق العالم إصابة بهذا الوباء. **أى أن الإسلام بعقائده وشرائعه وأخلاقياته هو السد المنيع الذى يحمى أمته من ذلك الوباء. فهل ينكر هيكل أو غيره هذه الحقيقة ؟!**

● هذه عينة من المشكلات التى حلها الإسلام فعلاً، على الرغم من التطبيق الاجتزائى المشوه له، الأمر الذى يحبط مفعوله إلى حد كبير. وأظن أن هذه العينة كفيلة بدحض افتراءات هيكل وبيان تهافت مزاعمه ضد شعار "الإسلام هو الحل" و"الإسلام حياة كاملة".

* * *

الدكتـور طـه حسين
وخيـالاته الجامحة

حـديـث إفــك

الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى، ورائد الفكر المصرى الحديث فى القرن العشرين. وكلما مرت ذكرى وفاته تحدث عنه أتباعه والمعجبون به فرفعوه إلى أعلى عليين. وأنا هنا لا أريد المساس بمكانته ولا بعمادته، ولا أبتغى إنزاله من عليائه. كل ما فى الأمر أنه فى بعض مؤلفاته تحدث عن أخلاقيات أبناء الصحابة والتابعين ﷺ وعن أخلاق حجاج بيت الله الحرام حديثاً منكراً باطلاً، فوجبت مناقشته.

فى كتابه "حديث الأربعاء" الذى نشرته دار المعارف المصرية، وكان مجموعة مقالات نشرت فى الصحف قبل ذلك، أعلن الدكتور طه حسين أنه يدرس طائفة من الشعراء فى العصرين الأموى والعباسى، **اختارهم من الفُجار المُجّان دون سواهم**. وهو يلخص صورة ذلك العصر فيقول: "إنه عصر شك (فى الدين) وعبث ومجون. أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته"(١) ثم قرر أن دراسته: "لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحى هؤلاء الشعراء جميعاً، هى ناحية مجونهم وإسرافهم" وهو يصفهم بأنهم: "هم أصحاب المجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة" (٢) فهو يستبعد كل الشعراء الجادين الكبار والصغار. ويركز دراسته على أهل المجون والفجور واللهو والعبث. وهو يغفل الشعر الجاد لهؤلاء المجان أيضاً، ولا يهتم إلا بما قالوه فى المجون والفجور و اللهو. وبعد هذا الانتقاء وهذا الاجتزاء الصريح يقول الدكتور: "إن هذا هو المنهج العلمى الذى يصور ذلك العصر على ما كان عليه".(٣)

ومن الجلى أن هذا المنهج الاجتزائى الانتقائى لا يمكن أن يصور ذلك العصر على حقيقته. فإن الانتقاء يضاد الصورة الشاملة الصادقة التى تضم كل الظواهر فى

---

(١) جـ١ ص ٧ ط١٢.   (٢) نفسه.
(٣) نفسه ص ٨.

عصر من العصور. وسوف نرى مقدار الخطأ فى هذا المنهج حين نضم الظواهر الإيجابية إلى الظواهر السلبية التى عرفها ذلك العصر. وسوف يتضح مدى التشوه فى صورة تلك الحقبة من تاريخ المسلمين حين نتعرف على بعض الإنجازات الشامخة المضيئة التى تمت فيها.

الطعن فى أخلاق أبناء المهاجرين والأنصار

ويصف الدكتور طه حسين أبناء المهاجرين والأنصار ﷺ "فيزعم أنهم هم الذين ذهبوا مذهب اللذة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة- حرسهما الله - وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل". [١] وهو يطعن فى ضمائر العلماء والفقهاء والمفسرين، فيزعم أنهم كانوا يكرهون مجون أبى نواس، لكن ليس بسبب كراهيتهم للمجون ذاته بل لأن: " مقامهم وصناعتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ". [٢] وهذا يعنى أنهم كانوا يعلنون غير ما يبطنون، وذلك هو خلق المنافقين، وكأن طه حسين شق صدورهم وعلم بما تكنه قلوبهم فاعلنه! وأبعد من هذا، صور طه حسين مكة المكرمة، والحرم المكى الشريف، كساحة للغزل الماجن الفاسق، وفى مواسم الحج ذاتها. وصور نساء المسلمين الحاجات فى صورة ساقطات باحثات عن العشاق! [٣] فيقول طه حسين: "فلم يكن ابن أبى ربيعة -الشاعر- يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامى للجمال. وكان إذا اقترب الموسم اتخذ أجمل ما كان يستطيع من زينة، وظهر فى مظهر الفتوة والقوة، وفارق مكة، فتعرض للحجيج فى طريق المدينة والشام والعراق، يتلمس نساءهم، ويتبين هوادجهم، ويعرض منها لما تظهر عليها آثار النعمة والترف، فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك، كان "عمر" قد أحصى النساء اللاتى يجب أن يكون بينه وبينهن لقاء أو حديث أو مكاتبة. وكانت له رسل تعمل فى ذلك، فتأتيه المواعيد فى مكة حيناً وفى منى حيناً آخر، وكانت أحب ساعات الدهر إليه أوائل الليل من أيام الموسم، حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف. هناك كان عمر بن أبى ربيعة يترصدهن، ومنهن من كانت تترصده، وهناك كانت تبتدئ الأحاديث لتتم بعيداً عن البيت". [٤]

---

(١) حديث الأربعاء؛ جـ١ ص ١٨ ط ١٢.

(٢) نفسه؛ جـ٢ ص ٥٥.

(٣) نفسه جـ١ ص٣٠٩.

(٤) الموضع نفسه ص٣٠٩.

أبناء المهاجرين والأنصار: مجاهدون عظام

وقبل أن نورد شيئاً عن إنجازات أبناء المهاجرين والأنصار نستلفت الأنظار إلى أن طه حسين لم يأت بقائمة بأسماء المهاجرين والأنصار بل لم يذكر اسم واحد منهم، ولم يبين انتساب شاعر ماجن واحد إلى صحابى مهاجر أو أنصارى مدنى، وكان عليه ككاتب استجاز لنفسه تلك الاتهامات الفظيعة أن يقدم قائمة بالأسماء والأنساب يصل فيها كل فاجر وماجن بمهاجر أو أنصارى من أصحاب النبى ﷺ وهذا **ما لم يفعله عميد الأدب العربى، وبذلك ينهار أساس آرائه لتصبح مقولات فارغة.**

• والآن إليك أيها القارئ إشارات سريعة لإنجازات أبناء المهاجرين والأنصار.

(١) فى عام ٦١هـ ثار الحسين بن على – رضى الله عنهما – ضد الحكم الأموى الجائر الذى أحال الخلافة الراشدة إلى مُلك وراثى عضوض، وكان مع الحسين آلاف من الثوار.

(٢) وفى العام نفسه خرج ثائر عظيم آخر من أبناء المهاجرين هو عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – ضد يزيد بن معاوية، ومعه آلاف من المجاهدين من أبناء المهاجرين والأنصار من أهل مكة: "وعلا أمر ابن الزبير بمكة، وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: أما إذ هلك الحسين– عليه السلام– فليس أحد ينازع ابن الزبير".[١] وكاد ابن الزبير أن يطيح بملك بنى أمية ويعيد الخلافة الراشدة. ولم يكن بوسع قوم من المجان والفساق وأهل اللهو والعبث أن يقوموا فى وجه الحكام المستبدين المتجبرين من بنى أمية. كان الحسين ورجاله أهل تقوى وورع، وأهل غيرة وشجاعة، فقاتلوا حتى آخر قطرة من دمائهم، وكان الزبير ورجاله كذلك أهل صلاح ودين، وجسارة وشجاعة، وقاتلوا قتال الأبطال.

(٣) وثارت المدينة المنورة سنة ٦٣هـ ضد الحكم الأموى، وخلعت حاكمها عثمان بن محمد، كما خلعت الخليفة الظالم يزيد بن معاوية، وحاصرت من كان بالمدينة من بنى أمية. وكان قادة الثورة من أبناء المهاجرين والأنصار، وهم: عبد الرحمن بن زهير بن عوف (ابن عم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه)،

---

(١) تاريخ الطبرى؛ أحداث سنة ٦١هـ.

وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان الأشجعي، وكان أميرهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري.[1]

(٤) وفي عام ٩٢هـ غزا الأندلس طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم فتح المسلمون في العام نفسه مدينة طليطلة التي كانت من أعظم مدن الأندلس، وكانت تلك بداية إنشاء دولة إسلامية عظمى في أوربا.

(٥) وفي عام ٩٣هـ غزا قتيبة بن مسلم "سمرقند" وافتتحها واندفع بعد ذلك شمالاً وشرقًا حتى بلغ سور الصين، وحقق انتصارات تشبه المعجزات.

هذه بعض الإنجازات العسكرية، الجهادية، الضخمة التي حققها أبناء المهاجرين والأنصار ومعهم المجاهدون. فهل كان بوسع قوم فساق فجار، أهل شرب وعبث ولهو أن يحققوا ذلك؟ أليس الأجدر بنا أن نقول بناءً على هذه الحقائق : إن ذلك العصر كان عصر جهاد وفتوحات لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم كله؟ بلى، كان ذلك العصر العظيم فريداً في هذه الناحية، وعلى الرغم من ذلك يجب على العالم الموضوعي ألاّ يغفل النواحي والظواهر السلبية التي كانت ملحوظة فيه. وقد أشرت توّاً إلى جريمة بني أمية الذين أحالوا نظام الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض، وقد استحلوا في سبيل ذلك الظلم والبغي والرشوة وسفك الدماء. ومثل هذا حدث في العصر العباسي. وفي كل عصر ومصر كان هناك فساق وزناة وشاربو خمر وأهل عبث. وحتى عصر النبوة العظيم أقيمت فيه الحدود على زناة ولصوص وشاربي خمر، لكن هذه الحقيقة لا تسوغ بحال إنكار الإنجازات المعنوية والتربوية والأخلاقية والمادية لتلك العصور، والزعم بأنها كانت عصور عبث ومجون، لا لشيء سوى انحراف بعض الشعراء أو فساد بعض الحكام وبعض الأفراد. لكن طه حسين استساغ ذلك.

عصر علم وعلماء :

وفي العصرين الأموي والعباسي نشأت العلوم الإسلامية من تفسير وفقه وحديث وتوحيد وسيرة وتاريخ وأدب ولغة، فضلاً عن الترجمة، وازدهرت العلوم الرياضية، والطبيعية، وبدأت ترجمة الكتب اليونانية. وظهر الفقهاء العظماء: مالك

---

(١) المرجع السابق؛ أحداث سنة ٦٣هـ.

والشافعي وأبوحنيفة وأحمد بن حنبل. ولا يسعني هنا ذكر أسماء أولئك الأعلام العظام في مجال علم واحد فقط كعلم الحديث مثلاً. فإذا اتخذنا منهج طه حسين الانتقائي الخاطئ خرجنا بوصف خاطئ لتلك الحقبة، فقال الباحث في الفقه: إنه عصر الفقه وتشكيل المذاهب الفقهية. وقال الباحث في الفلسفة: إنه عصر الترجمة عن اليونان. وقال الباحث في علوم الحديث إنه عصر الحديث وتدوينه وعلومه وعصر المحدِّثين العظام. وهذه كلها صور جانبية أو جزئية لا يجوز أن تحل محل الصورة الشاملة لكل الجوانب الإيجابية والسلبية. وكل منهج يتصدى لوصف عصر من العصور استناداً إلى صورة جزئية، هو منهج قاصر، وغير علمي، ومشوه للحقائق.

تفتيش الضمائر:

وينفي طه حسين عن الفقهاء والعلماء والمفسرين في عصر أبي نواس غيرتهم على الفضيلة، ويزعم أن كراهيتهم لمجونه لم تكن بسبب كراهيتهم للمجون ذاته، بل لأن وظائفهم ومراكزهم في المجتمع هي التي كانت تضطرهم إلى ذلك! وهذا الاتهام بالنفاق يطلقه طه حسين دون تحديد أو تخصيص لينال كل عالم ومفسر وفقيه. وهذا هو الدليل الساطع على خطئه الشنيع، إذ يستحيل أن يكون كل العلماء على امتداد قرون–وهم آلاف مؤلفة–منافقين يبطنون غير ما يظهرون! وليس لدى طه حسين أية قرينة على نفاق أي عالم مسلم في ذلك العصر؛ فهو يلقي اتهاماته جزافاً، ويشكك في ضمائرهم اعتباطاً.

ونحن لا ننكر أن من العلماء من كان ينافق الحكام في تلك العصور، فهذه هي طبيعة البشر، أن يكون من بينهم المخلصون الشجعان، وأن يكون منهم المنافقون المدعون الذين لاتهمهم إلا مصالحهم فحسب. لكن هذه الحقيقة لا تعطي أي باحث الحق في اتهام الجميع بالنفاق والرياء، وتجريد كل العلماء من الإخلاص والشجاعة الأدبية والغيرة على الفضيلة والإنكار على المجان والفساق والعابثين وإن كانوا من الحكام والأمراء، **كأنه شق صدورهم واطلع على ضمائرهم فرداً فرداً، فوجدهم جميعاً منافقين لا يكرهون المجون بحق، بل لأن مقامهم في المجتمع كان يضطرهم إلى ذلك!**

وبوسعنا أن نورد عشرات الأمثلة لأولئك العلماء الأفذاذ الشجعان الذين أخلصوا دينهم لله، وتصدوا للحكام الظلمة، وتعرضوا لبطشهم وظلمهم. وأظن أن

مأساة الإمام أحمد بن حنبل على يدى الخليفة العباسى الظالم "المعتصم" المعتزلى، أنموذجًا للعالم الشجاع الذى لا يداهن ولا يساوم ولا يخشى فى الحق لومة لائم. ولقد عذبه "المعتصم" الذى كان يقف على رأس الجلادين يأمرهم بضربه بالسياط ويقول فى غضب: "شد! قطع الله يدك!" ومكث الإمام فى الحبس والضرب والإهانة ثمانية وعشرين شهراً، ثم نفاه "الواثق" بعد توليه الحكم. وبعد موت "الواثق" تولى "المتوكل" ورفع الحظر عن الإمام العظيم، بل حاول جاهداً أن يتقرب إلى الإمام،فرفض الإمام ضيافته بإصرار، ولم يأكل على المائدة التى أعدها له، وأبى قبول المال الذى بعثه إليه.

فهل هذا الإمام المجاهد العظيم منافق يبطن غير ما يعلن كما زعم طه حسين ؟!

وكان الإمام مالك بن أنس: "ينقم على الخليفة المنصور العباسى جبروته وطغيانه، ولهذا كان يأتيه أهل المدينة يستفتونه فى الخروج "أى الثورة" مع محمد المعروف- بالنفس الذكية- ويقولون إن فى أعناقهم بيعة لأبى جعفر المنصور (الخليفة العباسى) فيقول: "إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين."(١) فالبيعة كما أفتى مالك يجب أن تكون حرة وإلا فهى ليست بيعة. وكان "جعفر بن سليمان بن على" والياً على المدينة من قبل الخليفة المنصور سنة ١٤٦هـ، فأرسل إلى الإمام مالك وقال: "أنت الذى يفتى فى الإكراه وإبطال البيعة؟" فجرده من ملابسه وضربه مائة سوط حتى خلع كتفه، وظل الإمام حتى وافته المنية وهو لا يقدر على أن يَزِرَّ زِرَّهُ بيده اليسرى من آثار شدة الضرب.(٢)

صور خرافية:

والآن نعود إلى الصور الخرافية التى صورها طه حسين للمحصنات العفيفات من نساء المسلمين اللاتى قطعن مئات الأميال على ظهور الجمال ابتغاء أداء فريضة الحج. إنهن فى خيال طه حسين لم يقطعن الفيافى والقفار للحج! كلا إنهن فعلن ذلك لكى

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٩ ص ٢٠٦ .

(٢) مناقب الشافعى لابن أبى حاتم الرازى ، ص ٢٠٤ . مكتبة التراث الإسلامى ، سوريا، حلب، دون تاريخ .

يفزن بالعاشق الخرافى الشاعر ابن أبى ربيعة! ونحن نعلم أن كل امرأة تحج معها محرم، والحكمة من وراء ذلك صون النساء عن أطماع الفجار والفساق فى خلاء الطريق.
ولكن طه حسين يتجاهل ذلك، فيصور الآباء والأشقاء والأزواج الذين يرافقون أهليهم فى صورة القوادين! فالزوج ديّوث، والأب ديّوث والأخ ديّوث، يقدم أهله هدية لعمر ابن أبى ربيعة، يتفحصهن، وينتقى ما طاب له منهن لكى يقابلهن بعد ذلك فى الطواف.. أجل فى الطواف.. فى الطواف!!! ثم يتفق معهن على أن يتم الحديث بعيداً عن الحرم!!! وبعض الحاجّات كن يتربصن ذلك العاشق الخرافى العجيب! فلم يكن هناك رجال شرفاء، أعفّاء، أهل غيرة وحمية، مع أولئك الحاجات، ولم يكن هناك عشاق سوى ذلك الرجل الخرافى المدعو عمر بن أبى ربيعة!!

ولم تكن لبيت الله الحرام كرامة عند أولئك النسوة الساقطات، ولا عند محارمهن من الرجال الساقطين! لقد صارت مكة كلها والحرم كله، و"منى" و"عرفات" و"مزدلفة" كل تلك الأماكن المقدسة مستباحة لعمر بن أبى ربيعة. برضا رجال المسلمين وموافقتهم!

هذه هى سلسلة الأخطاء المتوالية التى ذهب إليها خيال طه حسين المريض الجامح، وهذا هو العلم الموضوعى الذى أنتجه منهج الشك الديكارتى! وهو كما ترى صورة لنساء فرنسا ورجالاتها أسقطها الكاتب على نساء المسلمين، استناداً إلى كتاب الأغانى للأصفهانى، الذى يقرر طه حسين نفسه أنه ليس المصدر الذى يعتمد عليه.[1] أما المصادر الأخرى المحترمة فتقول شيئاً آخر يناقض هذا الخيال. فلقد وقف الخلفاء بالمرصاد للشعراء المجان الذين قالوا أبياتاً - ولم يمارسوا أفعالاً - وذكروا فيها الجميلات من الحاجّات اللاتى كشفن وجوههن فى أثناء الطواف. فنفى عمر بن عبد العزيز - ﷺ - "الأحوص" الشاعر، وكاد عمر بن أبى ربيعة أن يلقى المصير نفسه لولا أنه أقسم أغلظ الأيمان ألا يعود إلى ذلك الشعر المسف القبيح. أما أن يقترب رجل غريب من هودج النساء فى الطريق فتلك - لعمر الحق - تطير فيها الرؤوس وتسفك فيها الدماء! وإذا كانت بعض الأبيات التى تمس كرامة الحرم الشريف قد أدت "بالأحوص" إلى المنفى، فماذا كان يكون مصير عمر بن أبى ربيعة وصبيانه

---

(١) حديث الأربعاء، جـ١ ص١٩١.

لو أنهم تعرضوا للنساء فى القوافل أو احتكوا بهن فى الطواف، أو فى "منى"؟! لم يحاول طه حسين ان يطرح مثل هذا السؤال، ولو أنه طرحه لظهرت الحقيقة، وبددت كل الخيالات المريضة!

والسؤال الآن هو: لماذا فعل طه حسين ما فعل؟ وما الغاية من وراء تلك الخيالات الجامحة؟ نحن لم نطلع على ضمير الرجل ولم نفتش فى قلبه، وهو لم يعلن عن غايته بنفسه، فلا يبقى لنا إلا التخمين استناداً إلى كلامه، وإلى مواقفه المعروفة المعلنة. فهو قد أعلن أن علينا أن نتبع الغرب وثقافته ونظمه.(١) وهو يسعى إلى إقناع الشعوب المسلمة بالتخلى عن ثقافتها وإحلال الثقافة الأوروبية محلها، ومن أجل هذا الغرض لابد أن يهون من قيمة ثقافتنا، وأن يعلى من قيمة الثقافة الأوروبية "بخيرها وشرها" كما قال هو نفسه فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر". وفى ضوء هذه الحقائق يمكن أن نفهم غايته من الطعن فى أبناء المهاجرين والأنصار واتهامه لعلماء الإسلام، وتشويه صورة الحرم المكى الشريف وإسقاط كرامته، والتحقير من أخلاق ضيوفه من الحجاج، **فهذا كله يصب فى خانة الثقافة البديلة التى يراد لنا أن نتخذها، ونحن لن نتخذها إلا إذا نبذنا ثقافتنا، ونحن لن ننبذ ثقافتنا إلا إذا اقتنعنا بأنها ثقافة كلامية لفظية لا تنتج أثراً ذا بال فى السلوك الفردى والاجتماعى،** فالعلماء والفقهاء والمفسرون منافقون، وأبناء المهاجرين والأنصار أهل عبث وفسق ومجون، وحجاج بيت الله زناة وزانيات يمارسون الفحشاء فى مكة نفسها ويأتون من أطراف الأرض وأقاصيها بغية مقارفة الرذيلة والفحشاء مع عمر بن أبى ربيعة!

● هذا ما أرى أنه الغاية من وراء خيالات طه حسين الجامحة التى عرضت لها هنا. وقد أكون مخطئاً، فهل من باحث محب لطه حسين أن يتناول الموضوع ويبين لنا الخطأ؟ إنا لمنتظرون، والله تعالى من وراء القصد.

* * *

---

(١) انظر كتابه: مستقبل الثقافة فى مصر.

محمود أمين العالم
وأزمة الفكر العربى

أجرى الأستاذ عماد الغزالى حواراً مع المفكر اليسارى المعروف الأستاذ محمود أمين العالم حول أزمة الفكر العربى، تناول مسائل مهمة مطروحة على الساحة الثقافية.

ونحن نرجو أن يتسع صدر الأستاذ العالم واليساريين عامة للرأى الآخر، أو الوصف الآخر للمسائل التى طرحها.

(١) وأول ما نأخذه عليه إصدار الأحكام العامة على الفكر الدينى الأصولى السلفى، فى حين أن هذا الفكر يتمثل فى تيار عريض، وتمتد الخلافات بين أهله إلى الأصول نفسها. وتبعاً لذلك ليس من الإنصاف أن نصدر حكماً واحداً شاملاً، كما فعل الأستاذ العالم، حين نسب إليه ممالأة السياسات والممارسات الرسمية.

إن عقيدتنا فى مصر كما يعلم الجميع سلفية، مع ميل إلى الأشعرية لدى البعض. والقسمة الكبرى بين المصريين اليوم تضعهم فى صنفين: الأول يصر على "الإسلام الشامل" كنظام حياة، لا مجرد عقائد وعبادات، والثانى رضى "بالإسلام الجزئى" الذى يقنع بالعقائد والعبادات، والأحوال الشخصية؛ والجميع سلفى، فليس فى مصر شيعة ولا خوارج ولا مرجئة، ولا معتزلة. وربما يصْدق على الراضين "بالإسلام الجزئى" أنهم ساندوا ويساندون السياسات والممارسات الرسمية فى مجال الفكر والعمل. أما أنصار الإسلام الشامل فلا يمكن أن يصْدق عليهم ذلك بحال. ولقد ذاقوا من الحكام الطغاة – فى عهد ناصر بالذات – ألواناً من العسف والتنكيل لمعارضتهم له.

وهذا التعميم الخاطئ يجافى المنهج العلمى، ولا يفيدنا بشىء فى التعامل مع ظاهرة الصحوة الإسلامية الحديثة. ويجب أن نتحاشاه، وننبه عليه. لأنه لم يواجهنا فى حديث الأستاذ العالم وحده، بل لدى أساتذة كبار أيضاً، بكل أسف!

(٢) وقد ميز الأستاذ العالم فى داخل حياتنا الثقافية بين عدة ثقافات رسمية،

وغير رسمية. ونحن لا نستطيع ان نسمي الإعلام الرسمى ثقافة، فمنذ ناصر والإعلام الرسمى (فى الرأى والخبر) لا هم له إلا تسويغ المواقف الرسمية، وطمس الحقائق فى أعين الناس. ومن المؤسف أن الأستاذ العالم نفسه طالما أسعدنا بكلماته وكتاباته المؤيدة لخط ناصر الشمولى الطاغوتى، وإن كان هذا شيئًا طبيعيًا من يسارى مثله. وقد اعتبر الأستاذ العالم أن الفكر القومى الناصرى "ثقافة" غير رسمية. وأظن أن القومية مجرد "جزء" فى الثقافة العلمانية، أريد له أن يقف فى وجه ثقافة الخلافة الإسلامية، فى الصدام الشامل بين الثقافتين الأوربية والإسلامية، ولا يمكن أن توضع الناصرية إلى جانب السلفية والماركسية، بوصفها تياراً ثقافيًا.

(٣) وقد عاب الأستاذ العالم على الفكر العربى الإسلامى أنه لايقدم إجابات للأسئلة المطروحة في الواقع. وأقول إنه من الإجحاف أن تطالب السلفيين بحل المشكلات الموروثة للناصرية، وهم لا يزالون مطاردين خارج الحقل السياسى، وتضن الدولة عليهم بتنظيم يجمعهم، أو حتى مجلة تعبر عنهم. وقد اضطروا – فراراً من الحصار– إلى التحالف مع حزبى العمل والأحرار. وبقى البعض الآخر صامتاً محاصراً! ويعلم الأستاذ العالم ان السلفيين من أنصار "الإسلام الشامل" وأنا واحد منهم لا يسعهم تقديم أى حلول لمشكلات تنشأ فى المجتمع بسبب التطبيق الجزئى للإسلام؛ ومتى نجح نظام ما فى تحقيق نتائج إيجابية ملموسة فى الوقت الذى تُستبعد منه أهم آلياته الاجتماعية والسياسية؟!

إن الفكر القومى الناصرى، المشبع بالماركسية، هو الذى أفرز لنا الديون والنكسات وأزمات الإسكان والمرافق، وغيرها. وما أظنه يستطيع أن يتخلص منها ومن التبعية المهينة المترتبة عليها. ونحن نستدين، دون توقف، ونسمى ذلك إنجازات عظمى.

(٤) وأما الوصف الآخر، السديد، لأزمة الفكر المصرى فيقول: "إن هذا الفكر يحتقر نفسه، ويرى أن أمته أمة عقيم، بلهاء، مفلسة. وتبعاً لذلك يفقد كل أمل فى أصوله، وإمكاناته، ويفتح فى كل جامعة مكتباً "للاستيراد الثقافى" من امريكا أو روسيا، ويقذف كل من تسول له نفسه أن يعكف على الأصول أو ينمى الجذور، باتهامات الرجعية والتخلف والتعصب والظلام. هذه هى في اعتقادي الجرثومة الثقافية والمنهجية لأزمة الفكر المصرى. وهو لن يتعافى إلا بالخلاص منها. فتعود الثقة المفقودة، وتذهب عقدة الدونية.

(٥) ويتصل بهذا ما ارتآه الأستاذ اليساري من وجود حضارة معاصرة واحدة! هى الحضارة المادية وليس لنا إذن حضارة متميزة مستقلة! ثم إنه أدان النموذج الغربى منها، "الاستعمارى الاستغلالى" ماديًّا وثقافيًّا، ولكن أليس النموذج الشرقى "استعمارى استغلالى" أيضاً؟! ألم يلتهم الاتحاد السوفيتى سبعين مليونًا من المسلمين فى القوقاز وغيره؟! ألم يرسل أسلحته العصرية إلى أفغانستان لكى يفرض عليها الشيوعية كرهاً ؟!وهل نسينا ما فعله الروس فى المجر وتشيكوسلوفاكيا.

وأما فى المجال الاقتصادى فالنموذج الشرقى- الذى ينتسب إليه الأستاذ العالم ثقافيًّا - ويشكل النصف فى "الحضارة الوحيدة" - يراجع الأوراق كلها، وهو يشطب الكثير من كتابات ماركس ولينين. ويقول بعضهم: إن إتمام الإصلاح لن يتحقق إلا بتمام القضاء على الماركسية!

فالحضارة الوحيدة فى رأي الأستاذ هى حضارة روسيا وأمريكا، أو العالم الشيوعى والعالم الرأسمالى. وأنتم أيها اليساريون تنكرون حضارة الغرب. والغرب ينكر حضارتكم الشمولية. وأما نحن فنظن، والله أعلم، أن لدينا حضارة متميزة -حضارة مبادئ وقيم، لا حضارة مصالح مادية نفعية، فردية أو طبقية أو قومية. وهى ليست حاكمة اليوم، ولكنها موجودة، وفعالة فى عالم عريض اسمه العالم الإسلامى.

● ولذلك نحن نختلف معكم فى النظر إلى أصولنا الفكرية. فأنت ترى أن "نستلهمها" فقط. ونحن نرى أن نحياها، ولا نحييها، لأنها لم تمت أبداً: نريد أن نحيا على التوحيد، ونطرد الإلحاد، ونريد الإيثار ونبرأ من الأنانية، ونطبق العدل، ونحارب المظالم ونعود إلى الشورى ونضع حداً للشمولية والفاشية!

* * *

قضية نصر أبو زيد
من الترقية إلى التفريق

بداية القضية:

ثارت قضية الدكتور نصر أبو زيد الأستاذ فى كلية الآداب، بجامعة القاهرة -قسم اللغة العربية - بعد أن صدر حكم محكمة استئناف القاهرة الدائرة ١٤- للأحوال الشخصية، برئاسة المستشار الدكتور فاروق عبد العليم، بالتفريق بينه وبين زوجته الدكتورة ابتهال يونس، أستاذ الأدب الفرنسى بالكلية نفسها.

وقد هاجم الحكم بضراوة، ودون تحفظ، وقبل صدور حيثياته، عدد كبير من الكتاب العلمانيين فى الصحف والمجلات القومية والحزبية، الأمر الذى يشكل ظاهرة سلبية شاذة لا مثيل لها فى تاريخ مصر القضائى الحديث.

وكانت المشكلة قد ظهرت أول الأمر حين تقدم الدكتور نصر أبو زيد، سنة ١٩٩٢، ببحوثه للترقية إلى درجة أستاذ، وكان الدكتور عبد الصبور شاهين عضواً فى اللجنة العلمية التى شُكلت لتقويم تلك البحوث، وهو أستاذ بكلية دار العلوم، بجامعة القاهرة أيضاً. وجاء تقرير الدكتور شاهين سلبيًّا، بمعنى أنه لم يجد فى تلك البحوث من الإبداع والأصالة ما يسوغ ترقية صاحبها، بل وجد فيها دعوة إلى التحرر من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وكلاماً كثيراً يصادم العقائد الإسلامية ويناقضها. وعلى الرغم من ذلك شهد لبعض تلك البحوث بالقيمة والطرافة، وهذا فى تقديرى يثبت موضوعية تقريره السلبى؛ ولو كان متحيزاً كما قيل لأدان كل المؤلفات دون تمييز.

وخرجت القضية من الجامعة إلى الإعلام من خلال المقالات العديدة التى هاجمت الدكتور شاهين، كالسيل المنهمر، دون التزام بالمنهج العلمى أو آداب المناظرة. وتحولت القضية إلى خلاف ثقافى وسياسى بين الإسلاميين والعلمانيين، وعبرت المواقف التى اتُخذت حيالها عن الانقسام الثقافى العام الذى نعانى منه فى كل مجال.

موقف القسم والجامعة

ولكى تتم ترقية الدكتور نصر أبو زيد بحسب نظام اللجان العلمية الأكاديمية كان عليه أن يعيد كتابة بعض تلك البحوث، ويمحص آراءه، ويستبعد ما يعاند الإسلام عقيدة وشريعة، وكل ما يخالف القرآن الكريم والسُّنّة النبوية؛ وأن يضيف بحوثاً أخرى أدق وأصح وأعمق؛ لكن قسم اللغة العربية، فى كلية الآداب، الذى يسيطر عليه الدكتور جابر عصفور - وهو علمانى يسير على الخط نفسه الذى يسير عليه الدكتور نصر أبو زيد - أصدر تقريراً مضاداً لتقرير الدكتور شاهين، مدافعاً عن الدكتور نصر، مؤيداً لآرائه، نافياً لكل المآخذ التى أخذها عليه تقرير الدكتور شاهين. وبدلا من حث الدكتور نصر أبو زيد على مراجعة بحوثه، وآرائه التى هى مجرد آراء نظرية، قُبلَت تلك البحوث على علاتها؛ ولم يعترف تقرير القسم بأى خطأ فى تلك البحوث، كأنها تنزيل من التنزيل، أو كأنها حقائق هندسية، أو نتائج لتجارب معملية دقيقة، راجعها عالم بعد عالم، ومحصها باحث بعد باحث! وهكذا ثبت أن تقرير قسم اللغة العربية تقرير متحيز، يفتقر إلى الموضوعية؛ ولو أنه اعترف بخطأ واحد: كقصور فى فكرة، أو شطط فى عبارة، أو زلة فى برهان، لوجب علينا أن نصفه بالموضوعية. أما وقد ارتفع ببحوث الدكتور أبو زيد إلى ما فوق كتاب الله - تعالى- وقد كذّب القرآن الكريم وأنكر عقائد الإسلام،، وأيده التقرير فى ذلك، بكل ما أوتى من مغالطة (مع مظاهرة الجامعة له)، مقرظاً مادحاً مؤيداً على طول الخط، مهاجماً لتقرير الدكتور شاهين، ناقداً له، رافضاً لكل ملاحظاته؛ أما وقد تورط تقرير قسم اللغة العربية فى هذه الخطيئة العلمية والدينية الكبرى، فلا مفر أمام الكاتب إلا أن يسقطه من حسابه ويجرده من كل قيمة علمية.

رسالة مفتوحة للإسلاميين

لكن جامعة القاهرة رحبت بذلك التقرير المنحاز، غير الموضوعى، وغير العلمى؛ وغيرت من نظام الترقيات بحيث تمت ترقية الدكتور أبو زيد إلى درجة الأستاذية، دون أن يراجع بحوثه ويمحصها، أو يعدّل كلمة واحدة فيها! وكان ذلك دليلاً ساطعاً على أن الجامعة قد ألقت بكل ثقلها إلى جانب أبو زيد، وفكره العلمانى، فى رسالة مفتوحة إلى الأساتذة الإسلاميين فى كل الكليات، تؤكد تحيزها إلى الفكر العلمانى،

ضد الفكر الإسلامي الذى يسيطر الآن فى أوساط تلك الطبقة الرائدة من أساتذة الجامعة، ويعبر عن نفسه بقوة في انتخابات عضوية نادى هيئة التدريس. وتلك ظاهرة تغيظ النظام الحاكم غيظاً شديداً، وتسبب له الحرج والقلق إلى أبعد الحدود. فبالسيف والذهب، والترغيب والترهيب، فشل النظام فى نشر العلمانية، وانتزاع القيادة الفكرية الحرة فى جامعة القاهرة من أيدى الإسلاميين. **وتلك قرينة علمية إحصائية تشهد بأن الإسلام ليس جهلاً، ولا ظلاماً، ولا رجعية، بل هو قرين الفكر والعلم الرفيع؛ وبيئته الخصبة هى تلك الذرى الرفيعة فى عقول أساتذة الجامعات**؛ وذلك نفى عملى شعبى، للفرية العلمانية الساذجة التى لا تزال تحاول، عبثاً، أن تلصق الجهل بالإسلاميين وبالإسلام، والتى رددها الدكتور أبو زيد فى كتاباته، مقلداً دون وعى مقولات المستشرقين والشيوعيين وكل أعداء الإسلام. وسوف نرى كيف نسفت حيثيات الحكم القضائي تلك الفرية، وكل فرية وردت فى كتابات أبو زيد، بالبرهان العلمى الموضوعى الرصين الذي يستحق الاحترام والإعجاب. وقد أصابت المحكمة وعَدَلَتْ حين حَمّلت الجامعة والكلية مسؤلية تهديم عقائد الطلاب بفعل الدكتور نصر أبو زيد، وكتبه؛ فجاء فى حيثيات حكمها التاريخى أنها ترى: "أن الكلية التى يدرّس بها الدكتور أبو زيد، والجامعة، مسؤلان عن هذه الكتب – أى مؤلفات أبو زيد – لأن هذه المؤسسات العلمية عندها من الوسائل، وتستطيع أن تضع من التنظيمات، ما يكفل منع هذه المؤلفات التى تحاول هدم أصول العقيدة الإسلامية".

وأقول إن معركة الإسلام ضد العلمانية فى جامعة القاهرة وغيرها لن يحسمها عميد ولا مدير. وما أبو زيد إلا حلقة واهية فى سلسلة طويلة من العلمانيين؛ وكانت البداية بعض المستشرقين الذين سمموا عقول بعض تلاميذهم؛ ثم تولى هذا البعض مقاليد الجامعة. وأخبار سنة ١٩٣٩ طافحة بالنضال الطلابى ضد الدكتور طه حسين وتلامذة المستشرقين. ووقف توفيق الحكيم والدكتور زكى مبارك يدافعان عن الكتب التى تطعن فى الإسلام، والتى نقل عنها أبو زيد معظم اجتهاداته!" وتصدى لهم المرحوم الأستاذ محمد أحمد الغمراوى بكل شجاعة وقوة.

وجاء بعد ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوى، واستند إلى الفلسفة الوجودية لكى يزعم أن كل موجود زمانى؛ ولا وجود خارج الزمان. يعنى: هو ينكر وجود الله، ولكن بمصطلحات وأساليب فلسفية! وراح الدكتور زكى نجيب محمود يروج

للوضعية المنطقية الملحدة. وعلى الرغم من ذلك ظلت الصحوة الإسلامية تعلو وتتقدم. وكرر الدكتور فؤاد زكريا أقوال زكي نجيب ولكن بأساليب ركيكة! وحاول الدكتور حسن حنفى أن يستخدم النفاق، وتهديم الإسلام من الداخل؛ ولا شك أن بعض مزاعم الدكتور أبو زيد منقولة عن حسن حنفى، الذى يزعم - مثلاً - أن ختم النبوة معناه انتهاء دور القرآن والسُّنَّة، وبداية عهد العقل! وصدق المرحوم عبد الرحمن شكرى حين قال : "إن أحوج الناس إلى مظاهر الحق هم أهل الباطل. ومن هذه الحاجة نشأ سعارهم! ولم ينشأ ذلك السعار من شدة الإخلاص للحق، بل من شدة شعورهم أنهم على باطل يحتاج إلى مظاهر الحق."

إلى ساحات القضاء :

وتابع الرأى العام المصرى تطورات القضية؛ وأدرك المثقفون المسلمون أن النظام الحاكم يناهض الإسلام، وينافق، فيقبل أجزاء من العقيدة، ثم يتصرف بما يؤكد نفاقه وخبثه، فيجند الجامعة، ويعبث بلوائح الترقيات، لترقية أستاذ علمانى لا يستحق الترقية. ومن ثم جاءت فكرة اللجوء للقضاء، للفصل فى قضية التفريق بين الدكتور أبو زيد وزوجته؛ ورفع الدعوى المستشار صميدة أحمد صميدة. وفى محكمة أول درجة لم ينظر القضاة فى "الموضوع" بل رفضوا القضية على أساس أن المدعى لا مصلحة له فى رفعها. وفى محكمة استئناف القاهرة صدر الحكم بالتفريق، فثارت المشكلة من جديد، مضافاً إليها مسألة "التفريق" بين الزوجين، لأن الإسلام يحرم بقاء الزوجة المسلمة فى عصمة الزوج إذا ارتد. وعلى الفور، ودون انتظار لنشر حيثيات الحكم، انفجرت موجات الاحتجاج العلمانية الغوغائية، العشوائية، على نحو أسوأ مما حدث فى انفجارها الأول، فراحت تسب وتقذف المحكمة والقضاة،و الدكتور شاهين، والمستشار صميدة، وتنال من الإسلام نفسه! ثم صدرت الحيثيات يوم ١٩٩٥/٦/٢١ فى ثوب قشيب من العلم والموضوعية والدقة، فكانت فخاراً لمصر كلها، وحجراً ألقمته المحكمة لأعدائها.

المثل الأعلى الإسلامى وتطبيق المحكمة له :

ونحن لا يسعنا بحال أن نجارى العلمانيين فى غوغائيتهم وعشوائيتهم فى معالجة القضية؛ ففرض على المسلمين الذين يلتزمون بشريعة ربهم، لا الذين هم

مسلمون بالبطاقة، أن يلتزموا الموضوعية والعدل والقسط ولو على أنفسهم؛ وهذا ما فعله القضاة الأجلاء.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) ويقول: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) فالمسلمون ملتزمون بهذا بصرف النظر عن المستفيدين والمتضررين منه. وهذا المثل الأعلى الإسلامي هو أحد المبادئ التي تبنتها الفلسفة المعاصرة؛ **فالموضوعية هي الخاصية الفارقة التي تميز الإنسان من الحيوان. والإنسان إنسان بقدر موضوعيته فيما يصدره من أحكام؛ وهو ينحدر إلى مستوى الحيوان الأعجم بقدر تحيزه وعجزه عن التزام الموضوعية.**

فإذا طبقنا هذا المثل الأعلى على ما لدينا من أحكام على جوانب قضيتنا هنا، وجدنا حكم محكمة الاستئناف هو أسمى تجسيد لهذا المثل الأعلى؛ وذلك راجع إلى طبيعة القضاء، ودربة القضاة على التجرد، وتنحية الذات، والتزام القانون المعمول به؛ ويلي حكم المحكمة تقرير الدكتور شاهين الذي استطاع أن ينحي عواطفه جانباً، ويقر بأن لبعض بحوث الدكتور أبو زيد قيمتها العلمية، وبما فيها من إضافة، (وأنا شخصياً أرى أنه أعطاه فوق حقه، وسوف أبين رأيي هذا في هذه الدراسة.) هذا على الرغم من الإثارة العنيفة التي تنتج عن قراءة كلام الدكتور أبوزيد وهو يطعن في القرآن الكريم والسُّنّة المشرفة. أما تقرير قسم اللغة العربية، وكذلك دفاع الدكتور أبو زيد عن نفسه، فأبعد ما يكونان عن المثل الأعلى الإسلامي في الموضوعية؛ فهما لا يعترفان بأي خطأ من أي نوع في تلك البحوث؛ ولا يعترفان بأي صواب في انتقادات الدكتور شاهين. **وهذا يثبت وصمة التحيز الممقوت عليهما**، كما ذكرنا، ويسقط القيمة العلمية لهما لذلك. وثالثة الأثافي، أو عظيمة العظائم، هي التهجم على القضاة، وعلى محكمة الاستئناف، وعلى الشريعة الإسلامية التي تتبعها تلك المحكمة، قبل صدور الحيثيات، وبعد صدورها، وبالغوغائية نفسها التي اتبعوها عند ظهور المشكلة أول مرة. **وإنني أشهد بعد أن درست حيثيات الحكم بأن عشر ما ارتكبه أبو زيد من إثم يكفي للحكم بردته**؛ وأشهد بأن القضاة التزموا القسط والعدل والموضوعية؛ وأنهم حللوا آراء أبو زيد بدقة، وردوا عليها، وفندوها بمنهج علمي رصين يليق بمقام

القضاة ووقار القضاء. وإن كل إنسان لديه ذرة من الدين، أو العلم، أو من العقل، لابد أن يقبل ذلك الحكم الجليل. وأن يعجب بعلم الذين أصدروه ورصانتهم، وعدلهم، واعتدالهم. فماذا كان موقف العلمانيين من الحكم قبل وبعد صدور الحيثيات؟

سنحاول أن نعرض أهم معالم هذا الموقف قبل صدور الحيثيات؛ لأننى أكتب هذه الدراسة فى اليوم التالى لصدورها؛ ولم يظهر بعدُ موقفهم بعد اطلاعهم عليها.

ولكن قبل كل شيء، لابد أن ننظر فى دفاع الدكتور أبو زيد عن نفسه، ونرى مقدار ما فيه من الحق والباطل، على ضوء حكم المحكمة المنصف العادل الرصين.

بيان أبوزيد إلى الأمة فى ضوء حكم المحكمة:

وهذه هى كلمات الدكتور أبو زيد فى بيانه إلى الأمة، ذلك البيان الذى أرسله إلى الصحف العلمانية دفاعاً عن موقفه، فنشرته يوم ١٩/٦/١٩٩٥، والذى يؤكد فيه أنه: "باحث مسلم وهب حياته للدفاع عن الإسلام، وكرس طاقته العلمية للكشف عن غاياته النبيلة، ومعانيه الإنسانية السامية.."

وفيما يلى بعض دفاعات هذا الباحث المسلم الذى وهب حياته للدفاع عن الإسلام، كما جاءت فى خلاصة حكم المحكمة، وبعد دراسة دقيقة متأنية لكلامه فى مقالاته وكتبه:

(١) فهو أولاً كذَّب كتاب الله تعالى بإنكاره لبعض المخلوقات التى وردت فى الآيات القرآنية ذات الدلالة القاطعة، والتى لا تقبل اجتهاداً أو تأويلاً، فى إثبات خلق الله تعالى لها ووجودها، كالعرش، والملائكة والجن والشياطين، ورد الآيات الكثيرة الواردة فى شأنها.

(٢) واتهم القرآن الكريم بأنه: "حول الشياطين إلى معوقة، وجعل السحر أحد أدواتها"... ويلاحظ هنا أنه يراوغ باستخدام لفظ "النص" للدلالة على كتاب الله؛ لكن بحوثه كلها تشهد بما لا يدع مجالاً للشك بأن كل انتقاص من "النص" موجه إلى القرآن الكريم؛ وهذه الحقيقة هى التى حاول جابر عصفور أن يكذبها زاعماً أنه يقصد "نص" المفسرين والفقهاء من البَشر؛ وتلك أكذوبة فجة، قبيحة. يجب أن يخجل منها قسم اللغة العربية الذى بصم على ذلك التقرير المزور!

وهذه نقطة مهمة فى هذه القضية؛ فلنؤكد إذن بكل وضوح أن "النص" فى كلام الدكتور أبو زيد هو القرآن الكريم؛ وكل طعن فى النص هو طعن فى القرآن الكريم؛ وأبو زيد هو الذى أوضح هذا تمام الوضوح، وميز بين نص القرآن ونص السُّنَّة بما يزيل كل خلط.

(٣) وفى دفاعه المجيد عن الإسلام أنكر الباحث المسلم الدكتور أبو زيد، مشاهد القيامة، ورماها بتهمة الأسطورية!

(٤) وكذّب آيات القرآن العديدة التى تقرر أن القرآن كلام الله تعالى، وقال إن القرآن نص بشرى إنسانى، وفهم بشرى للوحي!

(٥) وكذّب الدكتور أبو زيد آيات القرآن الكريم التى تنص على أن الإسلام، رسالة عالمية.

(٦) وطالب بنبذ الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية الحديثة محلها، لأنها عنده أكثر إنسانية وتقدماً!

(٧) وأنكر أن السُّنَّة النبوية وحي من الله تعالى لرسوله ﷺ وأنكر أنها أصل للتشريع؛ ورد الآيات القرآنية التى تؤكد حجيتها، وأنها وحي من الله.

وهكذا نرى مقدار النفاق والادعاء فى بيان الدكتور أبو زيد إلى الأمة. فهذا هو دفاع أبو زيد المجيد عن الإسلام؛ **إنه إنكار القرآن الكريم، والسخرية من آياته، وردها، وإنكارها، وتكذيب الله تعالى وتكذيب رسوله، والدعوة إلى نبذ دينه، وهجر شريعته، وإحلال القوانين الوضعية محلها**. ولهذا وهب الباحث المسلم حياته!! ولهذا كرس طاقته العلمية، وبهذا يكشف عن غاياته النبيلة ومعانيه الإنسانية!!

وهو يعتز بهذا الدفاع ولن يتنازل عنه أبداً ! هكذا يقول؛ والمحكمة الموقرة، بعد أن قضت بردته أهابت به أن يتوب إلى الله تعالى وأن يعود إلى دين الإسلام الحق، والتبرؤ من كل الكتابات التى كتبها ومما فيها من كفر وتكذيب لآيات الله تعالى ورد لأحكامه سبحانه: "وليكن فى آخرين كانوا قد سلكوا مسلكه، ثم تابوا إلى الله سبحانه، قدوة له فى ذلك" فالمحكمة الموقرة ترجو، وكل مسلم معها يرجو، أن يتوب أبو زيد ويعود إلى الإسلام، لكنه يصر ويعاند، ويغالط، ويراوغ، ويتجرأ على مخاطبة الأمة المسلمة، ويخادعها بعبارات إسلامية، للتأثير فى بسطاء الناس.

ولقد بادرت شياطين الإنس إلى تحريضه، وتصويره على أنه بطل، ومفكر ومجتهد، ورمز، وأعلنت وقوفها معه، ضد الأمة المسلمة، وضد حكم المحكمة العادل؛ وتدخلت شخصيات "سامية"، ربما سفراء أجانب، وربما حكام كبار، تحرضه على العناد والإصرار، والاعتزاز بأخطائه وجهالاته وكفرياته. وشجعه كذلك صمت المعسكر الإسلامى، وعلى رأسه الأزهر، إسهام بعض "المفكرين" الإسلاميين بكلام ملتو، متهافت، فراراً من المواجهة ضد الإعلام العلمانى، الذى يتكرم عليهم من حين إلى آخر بنشر صورة أو كلمة؛ وتلك خطيئة يجب أن يبرأوا منها.

ولقد قال أحد كبار المحامين الإسلاميين إن المفروض أن تكون مواجهة فكر أبو زيد فكرية، لا قضائية. والحق أن القضاء لا يستطيع أن يرفض نظر قضية هى من صميم عمله؛ والمستشار صميدة لم يطلب من القضاء مواجهة فكر أبو زيد، بل طلب التفريق بينه وبين زوجته. وفضلاً عن هذا، نجد المحكمة الموقرة قد تصدت لفكر أبو زيد بالنقض العلمى؛ فكلام الأستاذ المحامى خطأ. وهذا يشجع أبو زيد على العناد والإصرار؛ ولكن هذا كله يهون أمام صمت الأزهر المريب!

وبعد صدور حيثيات الحكم، ماذا يريد أبو زيد من الأمة المسلمة؟ أيريد أن تتبع كفرياته، وتقبلها، وترفض حكم المحكمة الموضوعى العادل المنصف؟! ماذا يريد من الأمة المسلمة بهذا البيان؟ أيريدها أن تصدق أنه وهب حياته للدفاع عن الإسلام؟! أيريدها أن تقول آمين حين يكذّب القرآن الكريم؟! أيريدها أن تتبرأ من شريعتها وعقيدتها اتباعاً للمجتهد العصرى العظيم الإمام أبي زيد؟!

إننا نتمنى من صميم قلوبنا أن نقرأ بياناً آخر يعلن توبته فيه، إن كان حقًّا يريد للأمة المسلمة أن تصغى إليه.

الضمير الزائف أو (المجلس الأعلى للثقافة):

انفجر العلمانيون فى ثورة عارمة من الغضب -كما ذكرنا من قبل- فى دائرة الحكومة، وفى الإعلام؛ فاصدر ما يسمى "المجلس الأعلى للثقافة" الذى شكله الوزير الفنان فاروق حسنى، من أعضاء جُلّهم على شاكلته، أصدر بياناً يزعم فيه أنه: "هيئة تعبر عن ضمير الأمة بكافة طوائفها!" و "يعبر" عن عميق قلقه لما بدا مؤخراً من الالتجاء للقضاء كوسيلة للتدخل فى حرية التعبير فى ميادين الفكر والإبداع والبحث

العلمي والجامعي، ويرى في هذا خطراً ماثلاً يهدد مستقبل هذه الأمة في لحظة مصيرية من تاريخها".

وهذه المزاعم باطلة وفجة. فالمستشار صميدة لم يلجأ للتدخل في حرية التعبير أو لمنع نشر كتب الدكتور أبي زيد، بل لجأ لمحكمة أحوال شخصية لوقف العلاقة الزوجية بينه وبين زوجته بعد أن انهار ركن من أخطر أركان مشروعيتها، بارتداد الزوج.

وهذا المجلس "الأعلى" الذى يتظاهر هنا بالغيرة على حرية التعبير انتابته من قبل حالة صمم، فلم ينطق بكلمة احتجاج واحدة على القانون اللقيط الموصوم برقم ٩٣ لسنة١٩٩٥، والذى يقنن لوأد حرية التعبير وإخراس مصر كلها! ثم إن الذى يهدد مستقبل الأمة المصرية بحق هو هذا المجلس وأمثاله من أولئك الذين يسخرهم النظام العلماني في خدمته، للترويج للفكر المادى، ومحاربة الفكر الإسلامي. فيصمتون وينطقون بإشارة من بنان سيدهم. هؤلاء هم آخر من يحل لهم الحديث عن حرية التعبير وعن مستقبل الأمة المصرية المسلمة. ووقوفهم إلى جانب الدكتور أبو زيد بقيادة الفنان فاروق حسني، ومعه الدكتور جابر عصفور -كاتب تقرير قسم اللغة العربية إياه!- يسيء إليه ويثبت عليه تهمة مناهضة الإسلام، وهي ثابتة يقيناً بحكم المحكمة. ولو كان هذا المجلس "الأعلى" ساهراً بحق على مصالح مصر، معبراً بحق عن ضميرها،لاحتج على رئيسه ومكونه يوم أن سمح لراقصة بأن تعلو نصباً على المسرح يمثل الكعبة المشرفة لكي تهز أردافها عليه! ولو كان يعبر عن ضمير الأمة المسلمة بحق لنصح الدكتور أبو زيد بان يحترم عقيدة الأمة؛ ولو كان يعبر بحق عن ضمير الأمة المسلمة لما سمح لرجل مثل الدكتور عصفور، صاحب التوجهات العلمانية المعادية للإسلام، بأن يركب فوق رأسه! ولو كان يعبر بحق عن ضمير مصر المسلمة لشكل لجنة علمية لفحص كلام الدكتور أبو زيد، وبيان الحق من الباطل فيه. ولو كان مجلساً للثقافة بحق لانتظر نشر حيثيات الحكم!

لكن المجلس "الأعلى" لم يفعل شيئاً من هذا كله، واكتفى بإصدار بيانه السالف الذكر بأسلوب اللجان والخلايا الثورية في العهد الاشتراكي البائد والذين كانوا يخلطون بين العلم وبين التهريج السياسي، وبين الثقافة والدعاية، وبين الرأى الشجاع والنفاق الجبان!

وأصدر الحوار القومى - وهو عبارة عن صفحة أسبوعية فى الأهرام، يسيطر عليها بعض الشيوعيين، تحت قيادة لطفى الخولى- أصدر بياناً اتهم فيه القضاة (الذين أصدروا حكم التفريق) بالإرهاب والعمل مع الإرهابيين فى جيش واحد! وقال عن حكم المحكمة إنه: "حادث رهيب، جديد، لاغتيال العقل، وردع اجتهاده العلمى، بأسلحة التكفير وتشريح الضمير العقدى." قال الشيوعيون هذا الكلام يوم٢١/٦/١٩٩٥ قبل صدور حيثيات الحكم! وختموه بنداء إلى مثقفى الوطن: "للانتصار للعقل والدفاع عن حياته وقيمه ضد من يحاولون اغتياله." ولم يحدث قط أن هوجم القضاة فى مصر بمثل هذه البذاءات الوضيعة. (وسوف نناقش مزاعمهم، ومزاعم المجلس "الأعلى" وترهات غيرهم، حول الحريات، والدفاع عن حرية الفكر والإبداع، بعد أن نعرض لنماذج أخرى مما نشروه حول القضية)، ولكن لابد أن نقول كلمة فى تهجمهم الإجرامى على المحكمة وقضاتها.

إن اتهام القضاة بالإرهاب يمثل عدواناً صارخاً على الهيئة القضائية التى يقولون -عندما يصدر منها حكم يعجبهم - إنها قدس الأقداس! ولا شك أنهم يريدون إرهاب قضاة محكمة النقض، الأمل الأخير لهم لإسقاط حكم الاستئناف. وأرجو أن لا يمر هذا العدوان دون ردع. والهيئة التشريعية ونادى القضاة، يعرفون كيف يصونون كرامة القضاء ويحمون القضاة من هذا الإرهاب الشيوعى. وجريدة الأهرام شريك أصيل فى الجريمة. والشعب المسلم ينتظر انتفاضة القضاة للدفاع عن كرامتهم وحياتهم.

والشيوعيون الذين يستخفون وراء "الحوار القومى" يعلقون آمالهم على أن "الحسبة" الشرعية ليست قانونية فى مصر؛ و"الحسبة" تعنى أن على المسلم أن يدافع عن دينه ومجتمعه، وأن يتخذ مواقف إيجابية، ولا يقول: "أنا مالى!!" إزاء التهديدات التى يراها. هم يعلقون آمالهم على: "الأناماليزم" العلمانية السلبية التى تريد أن تحرم رجلاً مثل المستشار صميدة من أن يرفع دعوى كهذه التى رفعها ضد الدكتور أبو زيد. وقد بشرهم رفاقهم الحمر من المحامين بأنه لاحسبة فى القانون المصرى. ولسوف يعلمون أن رفاقهم قد خدعوهم. ومنذ اليوم الأول لصدور حكم

الاستئناف، لاكلام لهم فى "موضوع" الحكم، بل دار اللجاج كله حول "الحسبة"؛ وقد وجههم المستشار سعيد العشماوى، صنو أبو زيد، فى العلمانية ومعادات الإسلام (مع الإصرار أنه مسلم!) إلى الطعن فى وجود "الحسبة" فى القانون المصرى. ولقد أنساهم الشيطان أن نفى الحسبة عن القانون المصرى وصمة عار له، ونقص معيب فى كيانه، لأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع؛ ولابد أن تكون الحسبة، قانونية تبعاً لذلك؛ وإذا ثبت إلغاء الحسبة، كما يشتهون، فإن على وزير الأوقاف أن يصحح معلوماته، ولا يردد أن الشريعة مطبقة فى مصر بنسبة ٩٩٪ !

مقالات صحفية

وبالإضافة إلى بيان المجلس "الأعلى" و "الحوار القومى" تدفقت المقالات الصحفية أنهاراً. والخاصية العامة لها هى: العشوائية، والخطابية، والخلو من الانضباط العلمى وتناسى الحقائق، والتهجم المقذع على الدكتور شاهين والمستشار صميدة، وقضاة المحكمة التى أصدرت الحكم؛ كل ذلك قبل صدور حيثيات الحكم بأيام!

من ذلك ما كتبه الدكتور غالى شكرى، الكاتب اليسارى المعادى لكل ما يمت بصلة للإسلام؛ كتب فى الأهرام يوم٢١ / ٦ / ١٩٩٥ يترحم على وكيل النيابة الذى برأ الدكتور طه حسين من تهمة إنكار آيات من القرآن الكريم وتكذيبها، وهى تلك التى تحدثت عن أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، إذ زعم طه حسين أنهما لم يذهبا إلى مكة، ولم يبنيا البيت! وفى أثناء المقال طعن غالى فى رجال الأزهر والمشايخ الذين يسميهم: "رجال الدين" والمتعصبين! ومعلوم للجميع أنه لاوجود لرجل الدين إلا عند غيرنا! والدكتور غالى يعرف هذا جيداً! والحقيقة أن جرائم أبوزيد تزيد على جريمة طه حسين عشرات المرات.

ومن خلال المقال يستغيث الدكتور غالى شكرى بأمريكا وأوروبا، ويقول إن حكم المحكمة ليس وبالاً على أبى زيد كفرد: "يجب أن تحميه الدنيا كلها من أى "صايع" يحمل مسدساً فى الظلام." كأنه لايثق فى القوى الرسمية، السامية وغير السامية، التى انضمت إلى أبى زيد؛ وكأنه يريدها حرباً صليبية جديدة تشنها أمريكا وأوربا على الإسلام والمسلمين. وهو يطعن فى الإسلام، بأسلوبه المراوغ، فيقول: "فمن هو الذى سيحمى الشعب المصرى إذا تحول: "الصايع والمسوس والظلام"

إلى قانون؟" وهو يشير بلغة العلمانيين - إلى الشريعة الإسلامية، فالظلام هو الإسلام عندهم؛ والنور هو الفلسفة المادية الملحدة التي يروجون لها في مصر! وجسارة الدكتور غالي على الإسلام وعلى القضاء الإسلامي الشرعي، (لأن حكم الاستئناف تم على أساس الشريعة الإسلامية) تشير إلى مدى سطوة الزمر العلمانية وشعورها بالطمأنينة مهما اعتدت على مقدسات الأمة المسلمة. وبصفة عامة، أدان الدكتور غالي شكري تقرير الدكتور شاهين إدانة شاملة، وكذلك حكم المحكمة - قبل صدور الحيثيات- وقرّظ كلام أبو زيد وتقرير الدكتور عصفور بدون تحفظ! **وهذا مرة أخرى هو التحيز الفج، ضد كل ما هو إسلامي، ومع كل ما هو مادي إلحادي.** وهذا هو الموقف الوحيد الذي يستطيع الدكتور غالي شكري، بخلفيته الدينية والماركسية، أن يقفه. ولقد فزع أشد الفزع من احترام المحكمة لشريعة الله؛ هو يحسبها ردة إلى الوراء؛ وهي في الحقيقة أعظم أماني الشعب المصري في العصر الحديث، وفي المستقبل المنشود.

هلاَّ شققت عن قلبه؟

ومن النقاط التي ترددت كثيراً في دفاع العلمانيين عن رجلهم الزعم بأن حكم المحكمة تناول العقيدة، التي هي مسألة قلبية باطنية، وأنها بذلك خالفت سُنّة النبي ﷺ. وكلامهم كله زائف؛ هو هراء لا أصل له ولا معنى، ولكنهم يمضون، حتى بعد صدور الحيثيات في مضغه وتكراره، على ألسنة شيوخهم كما على ألسنة صبيانهم. وفي حسباني أن هذا يشكل مأساة ثقافية؛ فلا علم، ولا منطق، ولا ثقافة، ولا أصل لهذه الفرية القبيحة.

ولقد جاء في حيثيات الحكم القضائي، في مقدماته، قول المحكمة إن: "الردة" تكون بأن يرجع المسلم عن دين الإسلام، ظلماً وعلواً، بأن أجرى كلمة الكفر عامداً، صريحة على لسانه، أو فعل فعلاً قطعي الدلالة، أو قال قولاً قاطعاً في جحود ما ثبت بالآيات القرآنية والحديث النبوي، وأجمع عليه المسلمون مثل أن يكون: "قد كفر بآية من آيات القرآن الكريم أو جحد ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم من أخبار، أو كفر ببعض الرسل، أو لم يؤمن بالملائكة أو بالشياطين، أو رد الأحكام التشريعية التي أوردها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم".

فلم تأخذ المحكمة المتهم بنيته، ولا شقت عن صدره، بل نظرت فى كتبه ومقالاته، التى لم ينكرها، بل يصر عليها. أخذته المحكمة بأقواله المتعددة، لا بزلة لسان أو قلم: وقد أنكر فيها عقائد الإسلام وكذّب القرآن الكريم وطعن فى صدق محمد ﷺ. فأين شق الصدر أيها المدلسون المفترون؟ اين محكمة تفتيش النوايا، يا شيوخ الضلال والخداع؟ أتظنون انها محكمة ثورة أو محكمة جلادين كمحاكمكم الشهيرة؟!

ولقد الزمت المحكمة الموقرة نفسها بقاعدة عظيمة أبرزتها فى مقدمات حكمها فقالت: **"لأن الإسلام ثابت يقيناً ولا يزول اليقين إلا بمثله، فلا يزول لا بالظن ولا بالشك؛ فيلزم أن يكون ما صدر من المدعى بردته مجمعاً على أنه يخرجه من الملة عند كافة علماء المسلمين وأئمتهم، مع اختلاف مذاهبهم الفقهية "** .

هذه هى القاعدة العظمى التى ألزمت المحكمة نفسها بها؛ إنها نظرت فيما صدر عن أبى زيد، ولم تفتش فى قلبه كما يشيع المغرضون المعتدون الظالمون، ولم تحكم بردته على أساس ظن أو شك، بل على أسس يقينية. وإن المرء ليشعر بالفخر والاعتزاز بهذا القضاء الإسلامى المنصف المنزه عن الهوى والغرض.

أما هم، أما العلمانيون الكبار الذين يملكون ناصية صحفنا القومية، فيصفون هذا الحكم بأنه "تكفير المجتهد"! كما جاء فى عنوان مقال سامى خشبة، فى الأهرام يوم ٢٣/٦/١٩٩٥، أى بعد صدور الحيثيات.

قضية الحريات

ولعل قضية الحريات هى أهم العناصر التى اشتملت عليها الكتابات والبيانات المؤيدة للدكتور أبى زيد و"اجتهاداته"! فيزعم الدكتور غالى شكرى أن المرحوم محمد نور وكيل النيابة الذى حقق مع الدكتور طه حسين، قد: "قرر قاعدة قانونية وليبرالية مهمة، وهى أن أفكار الكاتب لا يجوز أن تمس، وإلا عدنا إلى العصور المظلمة لمحاكم التفتيش. فالغوص فى الضمائر، جريمة وهمية، لا وجود لها إلا فى خيال الدكتور غالى شكرى؛ وليس لوكيل النيابة أن يقرر قواعد القانون؛ وليس فى الليبرالية البريطانية أو الفرنسية قاعدة تقول بهذا، إلا إذا كان المقصود هو الأفكار قبل التعبير عنها؛ فتلك الأفكار فى تلك المرحلة، لا صلة لأحد بها، ولا سلطان لأحد عليها، لأن أحداً لايطلع

عليها غير صاحبها. أما إذا عبر عنها ونشرها، فإنها تخضع لقوانين البلاد، ويحاسب صاحبها عليها. هذا هو الواقع فى كل بلاد العالم. إذ لكل مجتمع قيمه التى يصونها بالدستور والقانون والأخلاق؛ وما الدستور والقانون إلا قيود على الحرية، وهى قيود ارتضاها المجتمع واعتبرها من خلال مجالس نيابية أو استفتاءات شعبية حرة.

وهل يستطيع الدكتور غالى شكرى أن يدعو إلى قلب نظام الحكم فى الأهرام - مثلاً -؟! إنه يستطيع أن "يفكر" فى ذلك لكنه لا يستطيع أن يعبر عن تلك الفكرة. بل إن مقاله -الوهمى الذى يفترض أنه دعا فيه إلى قلب نظام الحكم - لن ينشر فى الأهرام؛ ولن يسمح له بعده بالكتابة فى الأهرام! وفى كل البلدان الشيوعية، والدكتور غالى شيوعى قديم، تكاد القيود لا تسمح لأحد بأى قدر من حرية التعبير إلا لرئيس الحزب الشيوعي أو لأمينه العام الذى هو فى الوقت نفسه الحاكم الأوحد للبلاد. وحتى فى البلاد الليبرالية لاوجود لخرافة الدكتور غالى هذه، أعنى الحرية المطلقة. نعم لديهم حريات واسعة، لكنها ليست مطلقة. وهم هذه الأيام يخنقونها عن طريق وسائل التجسس الحديثة التى قضت على حرمة البيت وخصوصية الفرد؛ وحتى الهايد بارك، تتعرض الآن للتجسس والتصوير والتسجيل السرى لأغراض مخابراتية!

فالحرية على نقيض ما يزعم العلمانيون هى أساس الحياة الإسلامية كلها؛ والقرآن الكريم يعبر عن الحرية بمصطلح: "الرضا"؛ فالبيع والشراء، والعقود التجارية، والإيجارات، كلها لا تصح بحال إلا على أساس "الرضا" التام بين الأطراف. وكذلك الزواج بالرضا؛ والطلاق أيضاً بالرضا؛ فإذا أراده طرف ورفض الطرف الآخر كان على الطرف الذى يريد فسخ العقد الأول الرضائى مسؤليات مالية يدفعها تعويضاً للطرف الآخر، وحتى إمامة الصلاة لاتجوز إلا برضا المصلين؛ وإمامة الأمة؛ أو الرئاسة السياسية مشروطة برضا الأمة.

ولقد تورط كاتب علمانى كبير هو الدكتور زكى نجيب محمود فى إنكار وجود الحرية فى الإسلام، لجهله بالمصطلح الإسلامى: "الرضائية" وبناء على مزاعمه، ردد عشرات من العلمانيين الفرية نفسها. وها نحن نشاهد سيلاً من البيانات والمقالات التى تصور حكم محكمة الاستئناف الشرعية على أنه ينسف الحريات، ويغتال العقل، ويعيدنا إلى محاكم التفتيش! كأن العلمانيين أكثر تمسكاً بالحريات من

الإسلام! وهذا افتراء؛ وأبوزيد ليس بطلاً للحرية، ولا شاهين عدوا لها! ولكن **العلمانيين يريدون حرية التهجم على الإسلام والترويج للفحشاء، وإحلال كل ما هو غربى محل كل ما هو إسلامى.**

ومعظم هؤلاء الأدعياء كانوا جنوداً للحكم الشمولى الاستبدادى، وأنصاراً للشيوعية؛ ذلك العهد الذى حرم على الفلاح أن يبيع قطنه أو قمحه بحرية، بل وصل الأمر إلى تحريم صنع المراتب من القطن، إلا عن طريق الشركات الحكومية! وإلى بضع سنوات مضت كان نقل الفول السودانى من مركز إلى مركز محرماً على المزارعين! وهؤلاء الأدعياء الكاذبون كانوا يقفون ضد الحريات بكل ضروبها. ولا يزالون يمنعون المسلم من إصدار مجلة أو تكوين جمعية أو إنشاء حزب سياسى. ولا يزالون يمنعون نشر الردود على أقاويلهم الكاذبة ضد الإسلام والمسلمين. وأنا شخصيًا لى تجارب عديدة مع الأهرام والأخبار والمصور؛ وما قصة رفض "أكتوبر" نشر رد مشايخ الأزهر على أكاذيب فرج فودة ببعيد.

مجتهد أم مقلد

فى خضم الثورة العلمانية الأولى ضد الدكتور شاهين والثانية ضد حكم المحكمة، وصف الدكتورأبوزيد بأنه مجتهد، ومفكر، ومبدع؛ فما الصواب فى هذه الأوصاف؟

إن الدكتورأبا زيد يقرر أن كتاباته كلها تنطلق من اعتقاده أن النصوص الدينية، من قرآن وسُنّة، نصوص إنسانية، لغة وثقافة؛ ومن أن: "الواقع هو الأصل ولا سبيل إلى إهداره. ومن الواقع تكون النص (أى القرآن والسُّنّة). ومن لغته ومادته صيغت مناهجه. فالواقع أولاً، والواقع ثانيًا، والواقع أخيراً".(١)

ومعنى هذا الكلام، وبدون مناورة وخداع أو لف ودوران أن النبى ﷺ هو الذى ألّف القرآن؛ وأن مضامين القرآن هى مضامين ثقافة أهل الحجاز فى ذلك العصر. لأن الواقع هو مصدر الفكر والثقافة واللغة؛ وكل مؤلف أو كاتب إنما هو معبر عن ثقافة مجتمعه، بلغة مجتمعه، فلا وحي ولا تنزيل ولا جبريل؛ وإنما واقع الحياة العربية، هو الذى أوحى

---

(١) انظر كتابه: نقد الخطاب، ص ٩٩.

إلى محمد نصوص القرآن والسُّنة، بحيث إذا تجاوزهما، لم يعد لهما اعتبار؛ إنه تطور الواقع والحياة!

هذا جوهر كلام أبوزيد. وهو ينكر فيه النبوة، ويكذِّب النبى ﷺ ويدعو إلى نبذ الإسلام كله عقيدة وشريعة، مسايرة لتطوير الواقع. فهل هو مجتهد فى هذا؟ هل هو مبدع لهذا الهراء؟! أم مجرد مقلد يردد أقاويل غيره دون تبديل أو تعديل؟

إن كل دارس لتاريخ الفلسفة يعرف أن "ماركس" هو الذى قال بهذا (أعنى أن الفكر من نتاج المادة؛ بل كل شيء عقلى أو روحى أو فنى، أو دينى هو من إنتاج المادة). والدين، والألوهية، من إنتاج الإنسان الذى هو من إنتاج المادة. وكان بهذه الأفكار يعبر عن فلسفته المادية الملحدة، فى مواجهة فلسفة "هيجل" التى قررت أن الروح هى التى خلقت المادة وطورتها.

ولكن أبا زيد لم ينقل عن "ماركس"، بل عن الدكتور زكى نجيب محمود الذى نقل فكرة "ماركس"، وحاول تطبيقها على الإسلام والثقافة العربية. قال الدكتور زكى نجيب محمود إن واقع العرب واقع صحراوى. ولذلك كانت لغتهم، ودينهم -أى الإسلام- وثقافتهم بكل عناصرها صحراوية. (وهذا ما سبق أن فصّلنا فيه القول فى الدراسة الأولى فى هذا الكتاب).

بل إن لغات المنطقة العربية كلها، وأديانها كلها، صحراوية [1]، وكان تعبير الدكتور زكى نجيب محمود أشد فجوراً من تعبير تلميذه أبو زيد، إذ قال بالنص: "معطياتنا الحسية هى الأول والآخر والظاهر والباطن!" [2] فهو يصف الواقع الحسى المادى بوصف القرآن لله تعالى!! فالمعطيات الحسية، المادية، هى إله زكى نجيب محمود! وهذه هى ترجمته العربية لكلام "ماركس"، ثم جاء تلاميذ كثيرون من بعده، منهم أبو زيد، ليترجموا عبارته بأساليب مختلفة، منكرين أستاذيته وأستاذية أساتذته من الخواجات!

---

(١) زكى نجيب محمود؛ عربى بين ثقافتين: ص ٤٤، ٥٢، ٥٤، ٥٨، ٦٣، ٦٦، ٦٧.

(٢) انظر كتابه؛ قشور ولباب؛ ص ٢٩٤.

هذه الفكرة المركزية المادية، الملحدة التى أصّلها "ماركس"، وربما بعض علماء الاجتماع، نقلها الدكتور زكى نجيب محمود، ثم تلاميذه. فلا اجتهاد إذن ولا ابتكار، ولا إبداع، بل تقليد أعمى، عاجز، للفلسفة الأوربية المادية الملحدة. ولكن الدكتور زكى نجيب محمود لم يدعِ قط أنه فيلسوف أصيل، وكان يردد أنه وزملاؤه تلاميذ مقلدون لأساتذة أوربيين، على عكس الدعاوى الفارغة التى يرددها أبو زيد والعلمانيون الذين يعتنقون الخط المادى نفسه كابراً عن كابر. وتطبيقاً للفكرة الأوربية، زعم أبو زيد أن وصف الله تعالى بأنه "الملك" وأن له جنداً، وعرشاً، كما جاء فى آيات القرآن الكريم، هو من إملاء البيئة الحجازية والعربية؛ ونص كلامه يقول: "ولعل الصور التى تطرحها النصوص (يعنى نصوص القرآن الكريم، ونصوص السُّنَّة النبوية) كانت تنطلق من التصورات الثقافية للجماعة فى تلك المرحلة؛ ومن الطبيعى أن يكون الأمر كذلك"[1]. وأقول من الطبيعى طبقاً لمادية "ماركس" و"ماركوز" صاحب نظرية سوسيولوجية المعرفة، لا طبقاً لعقيدتنا الإسلامية التى تقرر أن القرآن تنزيل من عند الله تعالى، كى يصحح الخطأ فى المعتقدات والشرائع والأخلاقيات، التى احتوتها ثقافة العرب الجاهليين.

ومن اجتهادات الإمام أبي زيد رفض العبودية والطاعة لله. فهل هو فى هذه "السوأة" مبدع؟ ليس بمبدع! وإمامه الدكتور زكى نجيب محمود مثله؛ وما هو إلا صدى يردد العبارات نفسها تقريباً، بوضوح أقل، والتواء أكثر!

قال الإمام المجتهد نصر أبو زيد إنه يرفض عقيدة المسلمين السائدة: "حيث ينظر لعلاقة الله بالإنسان والعالم من منظور علاقة السيد بالعبد الذى لا يتوقع منه سوى الإذعان." أما أستاذه الدكتور زكى نجيب محمود فقد رفض مبدأ عبودية العباد لله، ووجوب طاعته فقال: "إنى أنظر فأرى سلسلة الخصائص التى يراد لها أن تقتلع جذورها من تربتنا الثقافية. وأولى هذه الحلقات، وأعمقها جذوراً، وأكثرها فروعاً،

---

(١) نصر أبوزيد ؛ نقد الخطاب؛ ص ٩٨، ٩٩ .

هى نظرة العربى إلى العلاقة بين الأرض والسماء. ونظرة العربى فى صميمها هى أن السماء قد أمرت وعلى الأرض أن تطيع، وأن الخالق قد خط وخطط وعلى المخلوق أن يقنع بالقسمة والنصيب...."[1] هل ثمة فرق بين الأستاذ والتلميذ؟ إن كليهما مبطل، وجاحد؛ لكن تعبير التلميذ قميء، وتعبير الأستاذ رشيق! وكلاهما يردد مقولة إبليس، ويحاول انتزاع وظيفته من يده، وظيفة التحريض على معصية الخالق - جل جلاله -، والتمرد على دينه!

ولن أثقل عليك أيها القارئ بالكثير من هذه المقارنات بين الإمام المجتهد أبي زيد، وأساتذته؛ وستكون الفلسفة النسبية هى آخرها.

• أبو زيد يعبر عن الفلسفة النسبية، ويحاول تطبيقها على القرآن الكريم فيقول: "وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة فى النصوص (يعنى نصوص الآيات القرآنية)، بل لكل قراءة بالمعنى التاريخى الاجتماعى جوهرها الذى تكشف عنه"، ومعنى كلامه هنا أن مرور الزمان، وتغير المجتمعات لابد أن يغير فهمنا للنصوص؛ أى لابد أن نتجاوزها، ونهجر نصها الحرفى، امتثالاً للتطورات المتلاحقة؛ وأن نحل محلها المفاهيم العصرية المتجددة.

وهذه سفسطة جاهلة. لأن العقائد والشرائع والأخلاقيات القرآنية خالدة، مطلقة ثابتة، لا تتغير، مثلها مثل الحقائق الرياضية. وحتى فى الفكر البشرى نفسه، هناك بعض هذه الثوابت المطلقة، وأقرب مثال لذلك مبدأ العدل. والفلسفة الأوربية المعاصرة والحديثة تؤكد ذلك. وأما التغيير فينتاب معرفتنا لتلك الثوابت. أما الوسائل فهى متغيرة؛ ولا اعتراض لأحد على ذلك. وهذه نبذة مقتضبة جداً عن الثابت والمتغير فى الفكر.

وأبو زيد هنا ناقل سيئ، ملتبس الذهن؛ بعكس أساتذته الكبار فى الخارج والداخل. ومرة أخرى نقتبس بعض كلام الدكتور زكى نجيب محمود فى النسبية؛

---

(١) زكى نجيب محمود؛ تجديد الفكر العربى؛ ص ٢٩٤ ط ٥/ ١٩٨٧.

فعنده لا شيء ثابت ثباتاً مطلقاً؛ لكن التغيير سريع فى أشياء بطىء فى أخرى: "لأن الثبات المطلق لا يتحقق إلا لمن هو فوق الزمان وتقلباته وقيوده، سبحانه وتعالى". [1] ونضيف نحن هنا، وشريعته سبحانه، لأنها من كلامه.

وأما إصرار العلمانيين على النسبية فلأنها المبدأ الذى ييسر لهم نبذ الإسلام؛ فهى تقول إن كل شيء يتغير بتغير الزمان والمكان. وعلى ذلك يجب تغيير عقيدتنا وشريعتنا، وذلك بإحلال الفلسفة المادية محل العقيدة، والقوانين الوضعية محل الشريعة!

● وبعد، فهذه هى قضية نصر أبو زيد من الترقية إلى التفريق، دون لف أو دوران، قضية أستاذ كتب ونشر أنه يكذّب الله تعالى ورسوله ﷺ، وينكر عقائد الإسلام وشرائعه؛ ثم استغل وظيفته ليدرس كفرياته تلك لأولادنا. وحين عرضت على القضاء الشرعى قضى بردته، ومن ثم بالتفريق بينه وبين زوجته. وعندئذ قامت قيامة العلمانيين، فى هجمة ضارية على القضاة، وعلى الحسبة الشرعية وعلى الإسلام والإسلاميين؛ وقد خلطوا كل شيء بكل شيء لتضليل الأمة، وتبرئة صاحبهم من حكم الردة، وحكم التفريق المبنى عليه. وقد ذهب كل ذلك هباء بإذن الله، وبقى الحكم القضائى الموضوعى العادل. وإذا أراد الله تعالى بأبي زيد خيراً فإنه سيتبرأ من كفرياته، ولا يجدى نفعاً نطقه بالشهادتين دون ذلك التبرؤ. فإذا عاند وكابر، فليبحث لنفسه عن نظام للزواج غير نظام الإسلام، يقره – مع ردته – على إبقاء زوجته فى عصمته. وعلى الرغم من كل شيء، نحن ندعو الله أن يعينه على شياطين الإنس، ويعيده إلى مظلة الإيمان، وساعتها سوف نصفق له طويلاً، تقديراً لشجاعة الاعتراف بالخطأ.

* * *

(١) زكى نجيب محمود ؛ حصاد السنين ؛ ص ٣٤٤ .

المفترون على الله تعالى

تلامذة ماركس العرب!

فكرة مرضية متسلطة

إن العداء بين الإيمان والإلحاد بدهية لا يمارى فيها أحد، والعداء بين المادية الماركسية وبين دين التوحيد هو الشيء الطبيعي الوحيد الممكن، لكن ثمة ظروفاً تجعل العداء للإسلام فكرة مرضية متسلطة لدى معظم الشيوعيين المصريين. وفي حسباني أن التقهقر الشامل، والانسحاب غير المنتظم، الذي تعاني منه الشيوعية الدولية، لابد أن يأتي على رأس القائمة. وإلى جانب هذا السبب "الخارجي" هناك سبب آخر "داخلي" يتمثل في الصحوة الإسلامية، والظواهر "المقلقة" التي تنطوي عليها!! فالشيوعيون المصريون "يختنقون" في الداخل، ولا يجدون المدد من الخارج. إنهم ينزفون شعبيًا وجماهيريًا لصالح التيار الإسلامي، و"الأخبار الحزينة" تتوالى يوميًا عن ثورات الشعوب المسلمة ضد الشيوعية. وزعماء الشيوعية يتخلصون من قبضة ماركس وقوالب لينين، ولا يكادون يرون علاجاً في غير الرأسمالية -العدو القديم اللدود!!

الشيوعيون المصريون يقفون مع أية هيئة أو دولة أو شخص أو أي شيء كائناً ما كان، يعمل ضد الإسلام ويحاربه، أو يظن أنه يفعل، أو أنه يحتمل أن يفعل!!

كان ماركس يدرك بوضوح أن ماديته الملحدة سوف تواجه أعتى مقاومة من الأديان، لذلك استعان بالمذاهب الإلحادية الأوربية، وخصوصاً نظريات "دارون" و"فرويد"، و"دوركايم" و"ليفي بريل" و"هيجل" لتشويه الدين والتشكيك فيه، ووصفه بأنه أفيون الشعوب الذي يخدرها كي تستسلم لجور الرأسمالية والحكام الظلمة.

وتلقفت العقول المقلدة فى شرقنا العربى المنكوب أكذوبة "ماركس"، وراحت تسعى جاهدة لِوَصْم الإسلام بها!!

الإسلام ضد العدل!

فالدكتور زكى نجيب محمود يزعم أن الإسلام هو سند الظلم والاستبداد! لماذا؟ لأنه أقر المعجزة للأنبياء. والمعجزة -عنده- انتهاك لقوانين الطبيعة. وفى موازاة ذلك يتحتم-عنده- ان ينشأ عندنا نظام اجتماعى يعطى للحاكم الفرد المستبد حق انتهاك الدستور والقانون. ونحن إذا أردنا الخلاص من الحكام الظلمة المستبدين كان لابد أن نقتلع تلك العقيدة القرآنية التى تؤكد وقوع المعجزات، وأن ننكر كل الآيات القرآنية التى تتحدث عنها. فهذه هى فكرة ماركس كما فلسفها عقل الدكتور زكى نجيب محمود!

ويردد الدكتور فؤاد زكريا مقولة ماركس نفسها، لكنه يبنيها على أساس آخر. فهو يرى أن جوهر الإيمان الطاعة. ويرى أن الطاعة هى "أسوأ علاقة يمكن أن تربط محكوماً بحاكم" -هكذا دون تمييز بين طاعة الله، وطاعة رسوله، وبين الطاعة لغير الله ورسوله! والمهم عند الدكتور فؤاد ليس العلم، ولا أصول البحث والمناظرة، وإنما تشويه المبادئ الإسلامية وتشكيك الناس في صحتها. وخلاصة ما يبتغيه هو ترسيخ الاعتقاد الخاطئ بأن العلاقة المختلة بين الحكام والمحكومين فى هذا البلد سببها الإيمان بالله وبرسوله.

فهذه مقولة ماركس مرة أخرى يشرحها الأستاذ فى الفلسفة ويحور فيها قليلاً أو كثيراً بحسب الظروف. وتنحدر الفكرة من جيل إلى جيل ومن كاتب إلى آخر دون توقف. فطلع علينا الأستاذ محمود أمين العالم بصيغة جديدة لها، فزعم أن التيار الإسلامى فى مصر يمالئ السلطة. ولما واجهناه بالحقائق لاذ بالصمت!

وانتهز أحدهم -ذات يوم- توزيع الجوائز على حفاظ القرآن الكريم، لكى يفسر الأمر لنا برده إلى تأييد آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ للحكام الفجرة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ - واستشهد كاتب شيوعى فاجر -

بشطر آية قرآنية بترها بتراً، وبحديث نبوى لم يروه كاملاً. وأشار إلى كتاب من كتب الحديث، وحدد مكان الحديث المبتور منه، يريد بذلك أن يوهم القارئ أنه باحث موضوعى، وأنه كاتب موثق، وأنه لا يتجنى على القرآن أو على السُّنّة، وإنما يعتمد على المراجع والمصادر الإسلامية المعتبرة!!

ولسوف أبين للقارئ هنا أن هذا يعد قمة الغش العلمى والتدليس الصحفى! ونبدأ -أولاً- بالآية العظمى التى سلخ منها شطراً، وأغفل سائرها، فضلاً عن نزعها عن سياقها القرآنى الذى يبرز عظمتها ويكشف عن معانيها الجليلة فى تدعيم العدل-على نقيض مبتغاه كله - وتقييد الحكام بدستور الإسلام، أعنى القرآن، وبسنة نبيه، والاحتكام إليهما عند النزاع بين الحاكمين والمحكومين. يقول جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٨-٥٩).

فى هاتين الآيتين كما نرى، يأمر الله تعالى الحكام بالتزام العدل. ويأمر المسلمين جميعاً حكاماً ومحكومين بطاعة الله ورسوله. وهى تعنى طاعة القرآن و السُّنّة كما نعلم جميعاً. وكذلك يأمر القرآن المحكومين بطاعة أولى الأمر من المسلمين، بصرف النظر عن الخلاف المشهور فى فهم عبارة: ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وهل هم الحكام والأمراء، أو العلماء. وقد قرر الرسول ﷺ والمسلمون من بعده، وبالإجماع، أنه: "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق"، كما جاء فى الحديث الصحيح المشهور. فسواء جاء الأمر من حاكم أو من عالم، لا طاعة لأحد فى معصية الله ورسوله، ومن حق المسلم أن ينازع فى أى أمر يصدر إليه، يشعر أنه لا يتفق مع ما جاء فى كتاب الله أو سُنّة رسوله ﷺ، وعندئذ يكون المرجع والحكم هو السُّنّة النبوية الشريفة. قال تعالى فى سورة النساء نفسها: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ثـم تمضـى الآيـات التاليات فى توكيد العدالة الإلهية، ونزع مستند الحكم من أيدى الطواغيت، وتندد بالمنافقين – أسلاف الشيوعيين المعاصرين– الذين كانوا يفضلون الاحتكام إلى غير الله ورسوله، صداً عن سبيل الله، كما يفعل أخلافهم اليوم!

بتر الكاتب الماركسى المتعصب شطر الآية الكريمة، وانتزعها من سياقها، لكى يتيسر له إخفاء الصورة القرآنية الرائعة التى تحدد قسمات نظام الحكم الإسلامى العادل، القائم على مبادئ الدستور الإسلامى الخالد، ونتيجة لذلك يشكك القارئ فى عدالة الإسلام وفى حرصه على القضاء التام على الاستبداد والظلم وكل المظاهر الطاغوتية، ويبذر فى نفسه الظن بأن كتاب الله يؤيد السلطة الحاكمة المستبدة، الظالمة، الفاجرة، وفى مقابل ذلك تغدق تلك السلطة الأموال على حفاظ هذا الكتاب من أبناء المسلمين!!

أفتكون هناك جريمة أخلاقية وعلمية ودينية أقبح من هذه ؟!!

القصور فى الاستشهاد:

ندع الجواب للقارئ، ونُثنى بالحديث الشريف الذى يريد الكاتب أن يتخذه سنداً لزعمه بأن الرسول ﷺ كان مع المستكبرين ضد المستضعفين، أو مع أولى الأمر الفجرة ضد "البروليتاريا"!

ويعلم أى دارس مبتدئ للإسلام أن الاستشهاد بالحديث النبوى فى الجدليات، (وغير الجدليات) يتطلب تخريج الحديث، لا مجرد تحديد موضعه من أحد مصادر السُّنّة، ربما باستثناء "المتفق عليه" من الحديث. وفضلاً عن هذا فإن من الضرورى لتقرير حكم الإسلام فى مسألة ما الاستئناس بكل النصوص، أو معظم النصوص، التى تحكم فيها. والكاتب الشيوعى المدعى للموضوعية والعلمية زوراً وبهتاناً، لم يخرّج الحديث، وأغفل عن عمد النصوص القرآنية والحديثية العديدة التى تحدد حكم الإسلام فى طاعة أولى الأمر، وهذه النصوص فى متناول اليد، ومعظمها موجود مع تفسير الآيات السابقة من سورة النساء! فعل ذلك كله عن عمد وسبق إصرار لكى يبلغ هدفه الإجرامى الخبيث!

لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق:

ولقد حفظت لنا مصادر السُّنّة خبراً يشرح لنا، من خلال التطبيق، حقيقة حكم الإسلام فى طاعة أولى الأمر. فقد أمّر رسول الله ﷺ "عبد الله بن حذافة" على سرية من سراياه. وكانت فى "ابن حذافة" دعابة، فأمر بإشعال نار، وإلقاء أنفسهم فيها، وقال لهم: "ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتى؟!! وعلى الرغم من أنه كان قائداً عسكريًّا لهم، فإنهم رفضوا طاعته. ولما علم النبى ﷺ بالأمر قال قولته الباقية: "**لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.**" (قال القرطبى: هذا حديث صحيح الإسناد، مشهور) وصارت مبدأً حاكماً، وقاعدة دستورية فى حياة المسلمين، يعرفها خاصتهم وعامتهم على السواء، باستثناء أولئك الذين أعمى الله بصائرهم من الكتاب الشيوعيين الحاقدين على رسول الإسلام العظيم ﷺ. وفى حديث آخر رواه ابن مسعود، وأخرجه مسلم وأحمد وغيرهما، أنه عليه السلام قال: "ليس (يا ابن أم عبد) طاعة لمن عصى الله" – قالها ثلاث مرات!

ومرة أخرى نتساءل: أفتكون هناك جريمة أخلاقية وعلمية أبشع من هذه؟!!

وندع الجواب للقارئ أيضاً، كما فعلنا من قبل، لكى نشير فى عجالة إلى آثار القرآن الكريم والسُّنّة المطهرة فى مقاومة الظلمة والفجرة والمستبدين فى حياة الأمة المسلمة، فى الماضى والحاضر. ونحن لن نستشهد بعهد الراشدين، لأن الكل يعرفه أحسن معرفة، إلا هذه الطغمة المنحرفة!

الإسلام محرر الأمة:

ونسأل الناس أجمعين: ما القوة الدافعة المحركة التى أشعلت نيران الثورة ضد الغزاة الفرنسيين فى القاهرة فى نهاية القرن الثامن عشر؟ أليس هو الإسلام؟ وما المصدر الأساسى للطاقة التى حركت الجماهير ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر؟ أليس هو الإسلام؟ وما القوة التى واجهت جبروت العدوان الشيوعى على أفغانستان؟ أليس هو الإسلام؟ من ذا الذى قاتل فى فلسطين ولا يزال يقاتل ضد طلائع الاستعمار الأوربى

والأمريكى من الصهاينة؟ أليس هو الإسلام؟ وما القوة المحركة للجماهير المصرية فى وقفتها الشجاعة فى وجه الطواغيت من حكام يوليو؟ أليس هو الإسلام؟ وفى ليبيا، والجزائر، والمغرب، والسودان، وباكستان، وإيران، كان هو الإسلام الذى قاوم الاستبداد والظلم، وانتصر للمستضعفين وخذل المستكبرين، لا الشيوعية، ولا الرأسمالية، ولا المادية الإلحادية، ولا العلمانية اللادينية المنافقة الجبانة؟!

● تلك حقائق يدركها المتجردون من الهوى، والحقد، والتعصب الممقوت. أما أولئك الموتورون الذين تسلطت على عقولهم لوثة المقت للإسلام وكره كتابه ورسوله، فلا أمل لهم فى شيء سوى الافتراء. فالإسلام قد استيقظ وهو يتعافى يوماً بعد يوم ويطرد عن أمته جراثيم الشيوعية والرأسمالية المادية الملحدة. والستار الحديدى يتهتك ويكشف عن مسرحية جديدة، حزينة، المجرم الشرير فيها "لينين" و"ستالين"، والفاجر فيها "ماركس" و"انجلز" و"ماو"!! وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾

* * *

فوضى المرجعية

فى حسبانى أن الاضطراب الشديد الذى نشأ بين مفاهيم التجديد التى وصفنا طرفاً منها فيما سبق، مسئول إلى حد ما عن فوضى المرجعية التى نريد أن نصفها الآن، فقد حاول كل فريق أن ينتصر لرأيه، وأن يسانده ويعضده بأقصى ما يطيق. ولأن شعوبنا العربية مسلمة فى أغلبيتها الساحقة، ولا تقتنع بآراء أمثال فرويد أو دارون أو هيدجر، اضطر الفرقاء جميعاً من أنصار الإحياء والإحلال إلى اللجوء إلى التراث الإسلامى، حتى إن بعض الملاحدة من الماديين أخذ يستشهد بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية؛ وقد انتهى الأمر إلى فوضى شاملة، وراح كثير من الكتاب يخطف خطفاً من أقوال الصحابة ﷺ أو يستند إلى شرع من قبلنا، وإلى مأثورات ومرويات كثيرة عن سيدنا موسى- عليه السلام – ولم يتورع كبار الكتاب عن الاستشهاد بأقوال مرسلة، منسوبة إلى مجاهيل أحياناً، وحتى الأطفال صاروا مراجع معتمدة فى تقرير أخطر الآراء! وعبثت أقلام كثيرة، وكبيرة، بأصول القياس فى محاولات مستميتة لإخضاع الإسلام للتوجهات السائدة فى مجالات الاقتصاد والسياسة، وكان للكُتّاب اليساريين ولع عنيف بأبي ذر الغفارى ﷺ. ولم ينج الإسلاميون – بما فيهم المتخصصون فى العلوم الإسلامية–من هذا المرض الوبيل، وشهدت الساحة الثقافية انتهاكات كثيرة لأبسط أصول القياس، على أيدى كبار الفقهاء!

وإذا نحن عدنا إلى علم أصول الفقه، علمنا أن أقوال الصحابة وأفعالهم ليست حجة مستقلة. إنها من الأصول الموهومة. وفى هذا يقول الإمام الغزالى رحمه الله: "إن من يجوز عليه الغلط والسهو، ولم تثبت عصمته عنه، فلا حجة فى قوله."

ويقول أيضاً: "وقد اتفق الصحابة على جواز مخالفة الصحابة، فلم ينكر أبوبكر وعمر على من خالفهما بالاجتهاد، بل أوجبوا– فى مسائل الاجتهاد – على كل

مجتهد أن يتبع اجتهاد نفسه، فانتفاء الدليل على العصمة، ووقوع الاختلاف بينهم، وتصريحهم بجواز مخالفتهم فيه، ثلاثة أدلة قاطعة." [1] يعني: على أن أقوالهم وأفعالهم ليست حجة.

الشيوعيون "الأبوذرية"!

لكن في خضم الفوضى المرجعية، ضُرب عرض الحائط بهذه الأصول، وتمادى اليساريون وغيرهم في انتهاكها، وقد كلفوا -كما ذكرنا توًا- بآراء أبي ذر، وموقفه المخالف لمعاوية بن أبي سفيان والي الشام، ولعثمان بن عفان، الخليفة الثالث ﷺ، ومرد ذلك إلى توهمهم إمكان تصويره للناس كثائر ماركسي لينيني، وزعيم للكادحين في دمشق، وتبعاً لذلك يثبت لهم وللناس أن الإسلام شبيه بالشيوعية أو هو الشيوعية، وقد نجحوا في تسريب هذه الأفكار إلى أحد مناهج وزارة التربية والتعليم المصرية، من خلال كتاب كامل عن أبي ذر الغفاري، محامي الفقراء، وفيما يلي مختصر لبعض ما جاء فيه من آراء.

قال المؤلف: "كان كل من أبي بكر وعمر زاهداً في الدنيا راغباً عن متع الحياة، وكان الناس متساوين في الحياة، ليس فيهم غني أو فقير أو صغير أو كبير." وهذه المقدمة زائفة، وأحسب أن زيفها لا يحتاج إلى برهان، والهدف منها بيّن، وهو تصوير الحياة في عهد الشيخين كأنها شيوعية.

ثم جاء عهد عثمان، وانقسمت الأمة إلى فقراء وأغنياء: "وبلغ تأثير أبي ذر في الفقراء مبلغاً عميقاً حتى ثاروا وهاجوا، وبدءوا يعلنون سخطهم على الأغنياء الذين لا ينفقون أموالهم على أعمال الخير." وكلام كثير من هذا القبيل تناثر في فصول الكتاب، وللغرض ذاته.

خطأ أبي ذز:

وأخبار أبي ذر وخلافه مع معاوية، ولقاؤه مع عثمان لا تذكر شيئاً من هذه

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي ؛ المستصفى ؛ ص ٢٤٣ .

المزاعم. ثم إن حقوق الفقراء تستند إلى القرآن الكريم والسُّنّة المطهرة وما فيهما من سياج صلبة عديدة من التشريعات والتدابير والنظم. وإذا كان لأى رأى لأى صحابى، أى قيمة فسبب ذلك تعبيره عن مبدأ ما فى المرجعين الأساسيين للفكر الإسلامى، وأى رأى يشذ عنهما لابد أن يُلفظ لفظ النواة. وهذا هو ما حدث لرأى ابى ذر القائل إنه لا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالاً، إذ رد عليه عثمان قائلاً: "يا أبا ذر، علىّ أن أقضى ما علىّ، وآخذ ما على الرعية (من الزكاة الواجبة)، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد."[1]، وقد خطّأ الصحابة والتابعون رأى أبى ذر، لأنه لا سند له فى القرآن الكريم والسُّنّة المطهرة، أو الإجماع. ومعلوم أن: "فى المال حقًّا سوى الزكاة." وذلك فى حالات الحرب والقحط والجدب، لا فى أيام السلم والوفرة. وفيما يتعلق بالاقتناء، لا يمكن قبول رأى أبى ذر بحال، فهو يضاد النصوص التى تبيح ذلك كما يناقض البدهيات العقلية والاقتصادية، وأبوذر نفسه قَبِل عطاء عثمان، وكان قوامه (٢٥) رأساً من الغنم، ومثلها من الإبل، وغلاماً وأمة فضلاً عن نصيبه اليومى من ذبيحة المسلمين.

فوضى المرجعية عند الإسلاميين :

وقد ابتُلى كثير من الإسلاميين بفوضى المرجعية أيضاً، فالبعض أراد أن يتفلت من الأصول الإسلامية حين وجدها تحول دون الفتوى بما يوافق التيارات السائدة، وظهر ذلك جليًّا فى الحوار الواسع الذى دار حول الفوائد المصرفية فى الصحف المصرية، فى عامى ١٩٩٨–١٩٩٩م، وإلى جانب هؤلاء وجدنا محاولات عديدة للاستناد إلى شرع من قبلنا دون اعتبار لشرعنا نحن الإسلامى! ومن الطرائف أن أحد الصحفيين أفتى بحرمة كل نقد يوجه إلى الحكام فى مقالات صحفية استناداً إلى قول الله تعالى لسيدنا موسى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (طه: ٢٤) فقد فهم أن هذه شريعة موسوية، وأن المسلمين ملزمون بها، وأنها تفرض على كل ناصح أو ناقد أن يذهب إلى

---

(١) تاريخ الطبرى ؛ جـ٤ ص ٢٨٣–٢٨٤ .

مقر الحاكم وأن ينصحه أو يعظه مباشرة، وانه لا يجوز أن يفعل ذلك فى رسالة أو مقال او خطبة، ونسى الكاتب أن النبى ﷺ لم يذهب إلى كسرى، أو قيصر أو المقوقس، أو أى ملك من ملوك العرب، وأن الله تعالى لم يأمره بذلك، وما نهاه عن الكتابة أو الخطابة التى ينقد فيها الملوك أو الحكام، وقد أرسل ﷺ الرسائل إلى الملوك، ودعاهم إلى التوحيد، وحملهم مسؤولية الشعوب الضالة التى تقلدهم والتى يمكن أن تهتدى بتأثيرهم.

مثال طريف للفوضى:

ومن الطرائف أيضاً فتوى استاذ جامعى بتحريم اعمال الشركات العربية لاستخراج الثروات المعدنية، فى البلدان الإسلامية، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (الكهف: ٨٢)، ففى رأى الأستاذ أن هذه الآية تقضى بترك تلك الكنوز إلى أن تبلغ تلك الشعوب رُشدها وتستخرجها بنفسها، وحقيقة الآية -كما نرى- أنها لا تأمر بشىء ولا تنهى عن شىء، ولا تندب إلى شىء، لا بالنص، ولا بالدلالة، والشعوب المسلمة المتخلفة فى مسيس الحاجة إلى معادن بلادهم، ليبنوا المدارس والمستشفيات ويستصلحوا الأرض، وغير ذلك من الضروريات. وإذا لم تبادر الشركات العربية إلى ذلك، بادرت غيرها من الشركات الأجنبية. وفضلاً عن هذا ليس ثمة تماثل أو تشابه بين الأصل - أى الآية الكريمة - والفرع، أى حكم استخراج تلك المعادن اليوم، وهذا فى حكم علم الأصول قياس فاسد، لأنه قياس على غير أصل.

وكثير من الخطباء والوعاظ كَلِفَ بالإسرائيليات والروايات المرسلة عن سيدنا موسى وبنى إسرائيل، ومن ذلك - على سبيل المثال - الإدانة المنكرة لزوج آدم (حواء). ومن ذلك أيضاً الاتهامات التى يلصقونها زوراً وبهتاناً بالصحابى البدرى الكبير ثعلبة بن حاطب الأنصارى، بوصفه مانع الزكاة الذى رفض النبى توبته

النصوح. والأمثلة كثيرة، وهى نماذج شنيعة لفوضى المرجعية عند الإسلاميين أنفسهم، لا عند العلمانيين وحدهم، وهى ليست تصيب صغار الباحثين والكتّاب، ولكنها ضربت بعض قيادات الرأى، فصارت أشبه ما تكون بالسرطان فى مراحله المتأخرة، حيث يصيب الجسد من أخمص القدم إلى خلايا المخ.

الاستناد إلى أقوال المجاهيل، والأطفال:

أما ثالثة الأثافى، كما يقال- فتتمثل فى الاستناد إلى المجاهيل. ولو كان من يقترف هذا الخطأ طالباً فى الدراسات العليا، أو أحد كُتّاب الأعمدة فى الصحف، لهان الخطب، ولكن حين يقترفه أستاذ جامعى كبير، ومفكر مخضرم، وكاتب شهير، فتلك تكون الحالقة!

إن هذا الخطأ الجسيم يواجهنا فى كتاب: "تجديد الفكر العربى" للدكتور زكى نجيب محمود، فى أثناء استدلاله على أن اللغة العربية مبتوتة الصلة بدنيا الناس – قال الأستاذ: "لن أنسى ما حييت قصة صبى من ذوى قرباى، طلب أستاذ اللغة العربية منه أن يكتب خطاباً إلى أبيه، فجعله (الصبى) متصلاً بحياته المباشرة، وذكر له (يعنى لأبيه) بعض الصعاب التى لقيها فى حياته. فدهش الأستاذ أن يكون هذا إنشاءً عربيًّا، وكانت الدرجة عنده صفراً. ثم أضاف الدكتور زكى رواية أخرى، سمعها عن شيخ مجهول، يصفه بأنه كان من أعلام اللغة، مؤداها أن ذلك الشيخ كان يملى على تلاميذه فى بداية دروس الإنشاء قائمة بما يقال فى مدح الشىء، وأخرى بما يُقال فى ذمّه.

معالم التجديد المنشود:

هذه هى إحدى العلل الفتاكة التى يعانى منها الفكر المصرى المعاصر، وقد وصفتها فى إيجاز، ولو اتسع المجال لأسهبت فى تشخيصها، وقدمت نماذج كاملة، مفصلة للفكر الذى ابتلى بها. وأحسب أن معالم التجديد تلوح لنا الآن بعد هذا التشخيص الموجز، فلابد من وضع حد لهذه الفوضى، والتعليم والنقد والحوار هى الوسائل الفعالة فى إبلاغنا غايتنا العزيزة.

إن لكل فكر مصادره المعتمدة، وفكرنا يكون إسلاميًا إذا نبع من المصادر الإسلامية واستند إليها. وعندنا علم ناضج خاص بأصول التعامل مع المصادر الإسلامية، هو علم أصول الفقه، فإذا نحن أغفلناه، ورحنا نقلب أصوله رأساً على عقب، لم يجز لنا أن نسمى فكرنا إسلاميًا، ولن يُجد فى شىء أن نرجع إلى أقوال الصحابة ﷺ، أو إلى شرائع من قبلنا، إذا نحن وضعناها فى غير موضعها على سلم المصادر المعتمدة. أما إذا سمحنا لأنفسنا بالرجوع إلى المجاهيل والروايات المرسلة والإسرائيليات، وحكايات الأطفال، فإن فكرنا يمكن أن يتصف بأية صفة إلا "الإسلامية" وربما ننتكس به إلى نوع من السفسطة الفوضوية.

تغيير الثوابت، وتثبيت المتغيرات:

وتقودنا فوضى المرجعية إلى وصف علة أخرى متصلة بها، وأعنى بذلك الاتجاه إلى تغيير ثوابت الإسلام، والاتجاه المضاد إلى تثبيت المتغيرات. فقد رمى الفكر الإسلامى بالجمود والتحجر، وطلب إلى المسلمين أن يغيروا فكرهم، عقيدة وشريعة وأخلاقاً وفلسفة، وإلا كان مصيرهم الفناء. وترددت هذه الفكرة فى كتابات المستشرقين والمبشرين الأوربيين، أول الأمر، ثم رددها من ورائهم كتاب عديدون. وحاول البعض تحقيق التغيير المطلوب، بإطراح النصوص، وهم الذين يطلق عليهم "القرآنيون".(١) وحاول البعض الآخر تحقيقه من خلال مبدأ المصلحة، فقدموا المصالح على الكتاب والسُّنّة، وأفاضوا فى الحديث عن اعتبار الإسلام للمصالح، ورعايته لها، وعن مرونة الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان. وكانت الغاية الخفية، الثاوية تحت ركام الجدال، هى تغيير ثوابت الإسلام، ومن ثم إتاحة الفرصة لتجديد الفكر والنظم والحياة التشريعية والسياسية، وإطلاق العنان للاقتباس عن الغرب، وتحرير الآداب والفنون من الضوابط الأخلاقية!

---

(١) الشاطبى: الموافقات فى أصول الأحكام: جـ٤ ص ٣٥.

علاج الجمود. . .كيف؟

ولا أحد ينكر ما أصاب الفكر الإسلامى من الجمود، لكن شفاءه من الجمود لا يمكن أن يتحقق بإطراح النصوص، أو تقديم المصالح المرسلة على القرآن. إن هذا العمل يُسقط صفة الإسلامية عن فكرنا ويحيله إلى فكر علمانى أساسه التجربة الاجتماعية والآراء الفردية التى تمليها الشهوات، وهذا هو ما حدث فى الفكر الأوربى الذى أجاز زواج الرجل من الرجل، والذى يدافع عن اللواط والبغاء فى مقررات الأخلاق فى بعض الجامعات الأمريكية! (١)

وتقديم المصالح على القرآن والحديث يقودنا حتماً إلى رد العديد من الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، وإنكار عقائد وشرائع إسلامية معلومة من الدين بالضرورة، وهو خطر داهم لا طاقة لمسلم به، فإنه يفتح الباب لإملاء المستبدين الظالمين، ويخرج المسلم من الملة والعياذ بالله.

أكذوبة المسايرة :

والإسلام مصلح لكل زمان ومكان، لأنه يقود، ويصحح، ويوجه، ويرشد، وهذه المعانى تختلف عن "مسايرة" كل عصر، والتشكل بحسب مقتضياته، فهذا دور التابع، الخاضع. **وليس الوحي تابعاً للعباد، بل العباد تابعون للوحي.**

أما مرونة الإسلام فتتحقق – أولاً – فى المجال الواسع الذى لا تحكمه النصوص: هنا تعتبر المصالح العامة الحقيقية للأمة هى مصدر التشريع، فى ضوء المقاصد العليا للشريعة. والتشريع هنا قابل للتغيير والتطوير. وفضلاً عن هذا تسمح النصوص الظنية فى دلالتها بالتفسير على أنحاء مختلفة. وفى هذا يجد الفكر الإسلامى حريته، ويمارس وظائفه. فالجانب الثابت المطلق فى الإسلام لا يعنى التحجر، أو الجمود. لأن التغيير فى الفكر والحياة لا يحتاج إلى أى تغيير فيه، لأنه لا يتعلق بالمتغيرات.

---

(1) Morality and moral controversies

الخطأ المقابل:

والخطأ المقابل اقترف أيضاً فى ساحتنا الفكرية. فالاجتهادات الموروثة فى مجال "ما لا نص فيه"، وفى تفسير النصوص الظنية فى دلالاتها، أخذت على أنها ثوابت مطلقة؛ وفى العصر الحديث اتهم المجتهدون فيها بأنهم يحاولون تأسيس مذهب خامس فى الفقه السُّنّى، وهى جريمة فى حسبان الذين رفعوا أيديهم بالاتهام. ونحن نحترم الأئمة الأربعة، رحمهم الله، لكننا نعلم يقيناً أنهم ليسوا معصومين، ومن ثم يؤخذ من أقوالهم ويترك. وفضلاً عن هذا، يظن البعض أن مشكلات العصر الفكرية هى نفسها مشكلات عصر النبوة والراشدين، وتبعاً لذلك يتصور أن التجديد الفكرى يماثل تلك النقلة من الجاهلية إلى الإسلام، وأننا اليوم لا نحتاج لأى شىء جديد، أو مبتكر، للتصدى للاعوجاجات الفكرية التى تواجهنا. وهذا وهْم لا مسوغ له. إنه محاولة لتثبيت المتغيرات، وهى مضللة، لأنها تصرفنا عن الإبداع فى المواجهة الراهنة لأسقامنا الفكرية والاجتماعية.

أمراض جديدة، ولابد لها من علاج جديد:

لقد كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام، ولكن المسلمين اليوم، من العرب وغير العرب، أصيبوا بداء جديد هو: اعتناق الفلسفة المادية فى مذاهبها المختلفة، وراحوا يدافعون عنها مُتترسين بالعلوم الطبيعية. ومن البدهى أن النقلة المطلوبة اليوم من الفكر المادى إلى الفكر الإسلامى تختلف عن النقلة القديمة من الجاهلية إلى الإسلام، وتبعاً لذلك يتحتم علينا أن نتسلح بكل علم وأن نلتمس كل وسيلة، لبلوغ هدفنا.

ولقد ابتلى المسلمون بداء آخر وبيل، وجديد هو: الاجتزاء من الإسلام، أعنى نبذ الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية من الإسلام، وترك العقائد والعبادات، إن شاء الناس اعتنقوها وعملوا بها، وإن لم يشاءوا فلا تثريب عليهم. وهذا داء خبيث، لأنه يرتدى عباءة الإسلام، فى حين أنه ليس بالإسلام، لأن الإسلام

كل لا يتجزأ. ولم يتفش في عصر النبوة أى داء شبيه بهذا، والبرء منه يحتاج إلى جهد فكرى وتربوى كبير.

والتراث لا يزودنا بالأساليب الفكرية والأدبية والفنية لمواجهته، فالإبداع قدرنا، والقول بثبات البيئة الثقافية على ما هى عليه، ومن ثم إعفاؤنا من الإبداع ضرب من الغفلة يجب أن نحذره.

كارثة الفرقة

ولقد ابتلى المسلمون أيضاً بالنزعات القبائلية والشعوبية المعادية للوحدة والاتحاد، وتشقق العالم الإسلامى إلى خمسين دولة، يقاتل بعضها بعضاً، كما حدث بين العراق وإيران، والعراق والكويت، والجزائر والمغرب، وقطر والبحرين، ومصر وليبيا، وسورية والأردن. وهذا بلاء جديد، مدمر، أفرزه فكر شعوبى مخرب، وفلسفة عرقية مستوردة، ولابد من مواجهته بفكر إسلامى، أساسه مبدأ الأخوة الإسلامية، الذى يربى إرادة الاتحاد لدى الجماهير، لكى تتم الوحدة بالرضا، وتتأسس على الشريعة، وتستطيع أن تقاوم عوامل التفكك الطبيعية والمصطنعة.

هذه نماذج محدودة للأسقام الجديدة التى تواجه الفكر في مصر، وفي العالم العربي والإسلامى، ومن المكابرة أن ندعى أن كل شىء لا يزال على ما هو عليه، لم يتغير، وأننا لا نحتاج إلى أى شىء جديد من أجل التجديد المأمول.

● إن هذه الدراسة لا تعدو أن تكون مقدمة موجزة فى نقد الفكر المصري المعاصر، ركزت على الخطوة المنهجية الأولى فيه، وهى تشخيص العلل والأسقام الفكرية، لكنها لم تُتمم التشخيص العلمى والمسح الشامل لتلك العلل، وأسبابها ومظاهرها، وأخطارها. حتى الأدواء الثلاثة التى انتخبتها لهذه الدراسة لم تنل حقها من الوصف والتحليل، فالتشخيص المنشود لا يزال بغير إنجاز، وهو يتحدانا، ويقف فى مواجهتنا، فهل نقبل التحدى؟

* * *

(انتهى الكتاب)

كتب للمؤلف

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام؛ نشر مكتبة دار العلوم بالرياض، سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م. ونشر دار الوفاء بالمنصورة (طبعة ثانية) سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

(٢) نقد الثقافة الإلحادية؛ نشر دار هجر؛ مصر؛ سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م

(٣) خُلُق القرآن؛ نشر المؤلف؛ سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م..

(٤) موقف الإسلام من الدنيا؛ نشر دار هجر؛ مصر؛ سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

(٥) الإسلام وامن المجتمع - التدابير الوقائية فى الإسلام -؛ نشر دار الاعتصام؛ مصر؛ سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م

(٦) أساطير المعاصرين؛ نشر بيت الحكمة؛ مصر؛ سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م.

(٧) الإسلام والقتال؛ نشر دار الشرق الأوسط؛ مصر سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

(٨) مَنْ ذا الذى ينتهك حقوق الإنسان؟ الإسلام أم الأمم المتحدة؟ نشر مركز الإعلام العربى؛ سنة ١٩٩٣م (كتيب)..

(٩) العلمانية والخداع الثقافى؛ نشر مركز الإعلام العربى؛ سنة ١٩٩٣م (كتيب).

(١٠) رسالة إلى خطيب مسجدنا؛ نشر دار الاعتصام؛ سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

(١١) قانون النصر فى العقيدة القتالية الإسلامية؛ نشر دار الوفاء بالمنصورة؛ سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

(١٢) «السماء تمطر ذهبا»؛ مسرحية فى فصل واحد؛ نشر دار سفير؛ مصر؛ سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

(١٣) «ملهاة آل الطيب» - مسرحية فى ثلاثة فصول؛ نشر دا هجر؛ سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م.

(١٤) مفهوم القلب فى القرآن الكريم – نشر المؤلف؛ سنة ١٤٢٠ هـ– ٢٠٠٠م

(١٥) نقد الإسلاميين المعاصرين؛ نشر المؤلف؛ سنة ١٤٢٠ هـ– ٢٠٠٠م.

(١٦) الاستشراق؛ دراسات تطبيقية؛ مكتبة وهبة سنة ١٤٢٣ هـ– ٢٠٠٢م.

(١٧) كيف ولماذا التشكيك فى السُّنة؟ نشر وزارة الأوقاف فى قطر على الإنترنت، موقع Islam Web ؛ سنة ٢٠٠١م، ونشر مكتبة وهبة ط الأولى سنة ٢٠٠٧م.

(١٨) مرض كراهية الإسلام؛ نشر دار التحرير بالقاهرة؛ كتاب الجمهورية؛ جزءان، أغسطس وسبتمبر؛ سنة ٢٠٠٣م.

(١٩) تطوير الإسلام؛ نشر دار الحكمة؛ مصر؛ سنة ٢٠٠٤م..

(٢٠) البديل الأمريكى للإسلام؛ نشر دار التحرير؛ مصر؛ سنة ٢٠٠٥م.

(٢١) الحوارات العطرة (فى السيرة النبوية)؛ نشر دار التحرير؛ مصر؛ سنة ٢٠٠٦م.

(٢٢) نقد أعلام الفكر المصرى المعاصر.

كتب تحت الطبع :

(١) لماذا أسلم هؤلاء (محمد أسد، مريم جميلة، مراد هوفمان).

(٢) التأصيل الإسلامى لعلوم التاريخ والجغرافيا والاجتماع والخدمة الاجتماعية.

(٣) تطوير الخطاب الدينى – تطوير الدعوة.

(٤) قيمة التراث الإسلامى فى حياة الأمة.

(٥) تحرِّى الرَّشد – بحوث فى العقيدة والسياسة والتاريخ، الإسلامى.

(٦) منهج الحياة الإسلامية؛ للإمام المودودى (ترجمة).

(٧) الخطابة العلمية (نماذج لعام كامل: ٥٢ خطبة).

* * *

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

* * *